أُصول التراث المسيحي في شمال إفريقيا

دراسة تاريخية عن القرنين الأولين

تأليف: روبين دانيال

أُصول
التراث المسيحي
في شمال إفريقيا

دراسة تاريخية عن القرنين الأولين

تأليف: روبين دانيال

ترجمة : سمير مالك

مساعدة : م . الخوري و ع . المهدي

وإخوة آخرون

دار منهل الحياة

جميع الحقوق محفوظة

ص . ب ٦٠ منصورية المتن
بيروت - لبنان
١٩٩٩

Originally published in English under the title:
"This Holy Seed".
Copyright © Robin Daniel 1992

المحتوى

المقدمة 5

الجزء الأول - الثمار الأولى (القرنان الأول والثاني) 15

1- البذار قد بُذر 17

2- الانفتاح على العالم المتحضر 26

3- البحث عن الله 33

4- الأخبار السارة 46

الجزء الثاني - عصر ترتوليانوس (أواخر القرن الثاني - أوائل القرن الثالث) . . 55

5- أسلوب الحياة الفاضلة 57

6- الجماعة المسيحية 71

7- انتصار الحق 82

8- الكتابات الروحية 96

9- معاناة الأبرياء 108

10- المحن الحارقة 119

11- المعذَّبون المبتهجون 131

12- قوّة الحياة الجديدة 137

المقدمة

إن المسيحية جزء أساسي من تراثنا الديني والثقافي في شمال إفريقيا . فقد عرف الناس ، في هذه القارة ، طريق المسيح وأحبُّوها زمنًا طويلاً قبل أن تصل تعاليمُه إلى أوروبا الغربية وأمريكا والشرق الأقصى .

ففي مدة لا تتجاوز الخمسين سنة منذ أن ألقى المسيح الموعظة على الجبل ، ترسَّخ الإنجيلُ في شمال إفريقيا كإيمان غير محصَّن لأقلّية مضطهدة . وخلال قرنين ونصف ، سمع سكان هذه البلاد إنجيل المسيح واستجابوا له لا بتأييد من السلطة الرومانية ، بل على الرغم منها . والواقع أنّ الحكّام والقضاة الرومانيين عملوا كلَّ ما بوسعهم للضغط على الإيمان ، وتدمير قادته ، ولجر أتباعه إلى المعابد الوثنية . كما سُنَّت على أعلى المستويات سلسلة جازمة من القوانين القاسية على يد مجموعة متتالية من الأباطرة الطغاة الذين كانوا يهدفون إلى محو المسيحية من على سطح البسيطة .

وإنه لمن المثير أن كنائس شمال إفريقيا ، في سنوات الاضطهاد ، لم تزدد إلاّ ازدهاراً ونموّاً . لقد كان إيمانها صلبًا وشهادتها السلمية للناس والمحيطين بها فعالة بدرجة جعلت الجزء الأكبر من تونس وكثيراً من الجزائر وأجزاء كبيرة من ليبيا والمغرب تُعرف في القرن الثالث بأنها مسيحية .

لقد كان المسيحيون الأوائل في شمال إفريقيا متميِّزين عن الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية المعاصرة كليهما . فهم ، بكل بساطة ، كانوا متشبّثين بالتعاليم الأصلية للمسيح نفسه وكتابات أتباعه الأوائل التي تواترت من الأجيال الأولى وجُمعت في الكتاب المعروف «بالعهد الجديد» . وكان سرُّ نجاحهم هو أسلوب حياتهم الجديد المبنيّ على المبادئ النبيلة للمحبة والأمانة واللطف مع جميع الناس . كما أنّه كان لديهم رجاء قوي في وعود الله لهم بأن هناك حياةً وفرحًا وراء ظلمة القبر .

وسنرى في هذه الصفحات ما كان أسلافنا يؤمنون به بكل قوّة ، والآثار الرائعة لذلك الإيمان في المجتمع الأول لشمال إفريقيا .

الجزء الأول

الثمار الاولى

(القرنان الأول و الثاني)

الفصل الاول

البـذار قـد بُـذِر

لم تكن پِرْپيتُوَا تـدري كيف تجيب أباها . اخيراً استدارت نحوه و هي تقول : «ابي . . . أترى هذا الابريق القائم هناك ؟ هل تعتقد انه اناء صغير للماء أم هو شيء آخر ؟ » ألقى الرجل العجوز نظرة عاجلة على الشيء القائم في زاوية زنزانة السجن القذرة ، ثم أجاب : « إنه إبريق ، بحسب ما يبدو لي .» عندئذ قالت پرپيتوا : « هـل نستطيع ان ندعوه اسمًا آخر ؟ » « كلا ، لا نستطيع ، على ما أظن . » ثمّ تابعت پرپيتوا كـلامهـا بلطافة وهـي تقـول : «وانا لا أستطيع ان ادعو نفسي بخلاف ما أنا ؛ إني مسيحية يا أبي . »

نشأت فيفيا پرپيتوا (Vivia Perpétua) في عائلة فاضلة . قضت معظم طفولتها السعيدة على شـواطىء مدينة قـرطاجة الجـميلة ، الواقـعة على سـاحل البحـر الابيض المتـوسط بإفريقـيا الشمالية . لم تفتقر پرپيتوا الى الراحة و اليسر ، لأن التعليم الذي كان متوافراً لها لم يكن متوافراً لمعظم بنات عصرها . ودّعت پرپيتوا حقبة الطفولة ، لتصبح الآن فتاة شابة في الثانية و العشرين ، و متزوجة . كـمـا ودّعـت الفتـرة الآمنـة المطمـئنـة من حيـاتها المبكّرة لتـواجـه الآن ضغـوطات زعزعت حياة العائلة بأسرها . لقد ألقي القبض عليها و أودعت السجن بتهمة خَطِرة ، ألا و هي اعترافها بأنها اعتنقت الديانة المسيحية .

ها هي الآن في سـجن المدينة منذ عـدة أسابيع . و قد أمل أبوها في أثناء ذلك أن يقنعـها لترجع عن إيمانها ، فيضمن اذذاك اطـلاق سـراحهـا . لكـنّ الوَقـت كـان يمـرّ بسرعـة من دون أن تُظهـر پرپيتوا أيـة عـلامـة تشير الى الاسـتسـلام او التـخـلّـي عن ايمانها بالمسيح . في هذه اللحظات الحاسمة ، سمعها العجوز و هي تقول له بأكثر صلابة و عناد ، إنها ما زالت عازمة على اتّباع الطريق الذي رسمه المسيح ، وعلى السير في إيمانها . و هكذا اندفع الأب الى الخارج ساخطًا غاضبًا .

ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك ؟ فهـو رجـل شـريـف محـتـرم و مواطـن قرطـاجـي مسـتـقيـم الاخـلاق ، معـروف في مجتمعه و مشهور في الاوسـاط المحترمة . لم يتورّط قط في أية مشكلة أو أيّ إحـراج ، و هو بالطبع يتعبّد للآلهة نفسها التي يعبدها جيرانه . لم يتسبب قط بأية اسـاءة او إهـانـة لأحـد . و لكـن ، ها هـو الآن يواجـه الـذلّ و الخـزي و العـار ، كل هذا بسبب ابنته العنيدة المتمردة .

حبّه لابنته دفعه للذهاب الى السجن العام باذلاً قصارى جهده لدخول تلك المسالك المظلمة والممّرات الحقيرة والوسخة . لم يكن أبو پرپيتوا قاسي القلب ، لذلك فقد حزن على ابنته واكتأب وكان توّاقًا ليمدّ لها يد العون ، و يبعدها عن هذا المكان البغيض المفزع . عادت به الذاكرة الى تلك الاوقات السعيدة التي كانا يقضيانها ، هو و ابنته خلال الأيام الحلوة الهانئة . كان مستعدًا لبذل أقصى الجهود لاقناع هذه الابنة العنيدة لتكفّ عن حماقتها الرعناء ، تلك الحماقة التي سيطرت عليها بشكل لم يستطع أن يهضمه . كتبت پرپيتوا في مذكراتها تقول : « الآن ، وبعد أن دنا موعد المسابقات ومباريات المصارعة بالساحة العامة ، جاءني أبي ممزقًا بالمشاكل والصعاب ، تارةً ينتف لحيته و يلقي بنفسه أرضًا على وجهه ، وتارةً أخرى يلعن أيّامه . أمّا انا فقد حزنت حقًا على بؤس أبي و تعاسة شيخوخته . »

لم تكن پرپيتوا وحيدة في زنزانتها . كان معها طفلها الصبي ، البالغ من العمر بضعة أسابيع . كانت پرپيتوا سعيدة لوجود ابنها معها . أُخذ منها في السابق ، لكنها كانت تعلم علم اليقين انه بكى كثيرًا طلبًا لحضانتها ، فأُعيد اليها . أمّا هذا الطفل فهو مصدر آخر لأسى الرجل العجوز . قال أبو پرپيتوا : « فكّري في طفلك الصغير الذي لا يقدر على أن يعيش من دون امّه ؛ اتركي كبرياءك جانبًا و لا تدمّرينا جميعًا . » حزنت پرپيتوا على ابنها لأنها كانت تعرف أنه لا بد من أن يعيش من دونها .

تحدّث بعض الاصحاب الطيبين الى سلطات السجن فحصلوا على إذن خاص لپرپيتوا لتقضي أوقات معيّنة من النهار في مكان منير في مبنى السجن . و هنا ، و في هذا السجن بالذات حضر أخو پرپيتوا وبصحبة والدتها لزيارتها ، و جلبا معهما ابنها الغالي العزيز . فكتبت پرپيتوا في مذكراتها تقول : « لقد بدا لي السجن عند حضور طفلي و كأنه قصر جميل ، و أحببت أن أبقى فيه مفضّلة اياه على أيّ مكان آخر . » و منذ ذلك الحين لم تدع پرپيتوا طفلها يبعد عنها ، فأبقته معها طوال الوقت . وكانت ترضعه من ثدييها و هي في زنزانتها الحارّة المظلمة المزدحمة . و كانت تصلّي لأجله حتى حين يكبر يتعرّف هو أيضًا بطريق الحق ويسير فيه قُدمًا من دون خوف أو وجل .

و لا ننسى فيليستاس (Félicité) التي كانت معها في الزنزانة عينها ، إنها الخادمة المخلصة ، بل أكثر من خادمة إذ هي اختها بالمسيح و صديقة حميمة و عزيزة . كانت فيليَستاس قلقة ، ولكن ليس بسبب الموت ، بل كانت تخشى ان يتركها اصحابها . لم تكن الامبراطورية الرومانية تعدم النساء الحبالى ، وفيليستاس كانت حبلى في شهرها الثامن . لقد سألت فيليستاس پرپيتوا واصحابها الآخرين ليرفعوا إلى الله صلاة لتلد قبل موعد المحاكمة . واستجاب الله حالاً وبدأت آلام المخاض . صرخت فيليستاس من الألم ، فسخر منها أحد الحراس وقال : « إنْ كنت تبكينَ من آلام الولادة ، فماذا ستفعلين حين تُلقَين لقمة للوحوش الكاسرة؟» أجابت : « أنا أعاني الآن ما أعاني ، و لكن في ذلك اليوم ، سيكون معي الله الذي سيحمل آلامي لأنّ معاناتي حينئذ ستكون من أجله هو .» فولدت فيليستاس مولودة أنثى ؛ و لكنّ المولودة المسكينة ، أمست يتيمة بعد ثلاثة أيام فقط من ولادتها .

كان السجّان يسمح لأصدقاء پرپيتوا وفيليستاس بأن يزوروهما في الزنزانة بين الحين والآخر . كان الظلام دامسًا و المكان ضيّقًا مرعبًا ، و قد عانت المرأتان وحشية الحرس و قساوتهم ، و مع ذلك ، ففي هذا المكان المقرف ، تعمّدت المرأتان بالماء ، كشهادة على ايمانهما ، وتعمّد معهما أيضًا ثلاثة أو أربعة من زملائهما . لقد صلّت پرپيتوا ليمنحها الله الصبر و السلوان لتحتمل كل ما هو آت عليها من عذاب و هوان .

أُفرزت پرپيتوا مع اصدقائها الآخرين عن بقية مسيحيّي قرطاجة . كانت رغبة السلطات الحاكمة ، أن تجعل من هؤلاء عبرة علنية لمن يعتبر من جمهور قرطاجة . و ينتظر الآن جميع أهالي المدينة ليروا إذا كانت پرْپيتُوا و زملاؤها سينكرون الرب المسيح و يذبحون للوثن . كان الحاكم يأمل ذلك ، فهذا الأمر قد يُثَبِّط عزائم الآخرين ، فيحذون حذو هؤلاء في انكار سيدهم ، و اتّباع عبادة الأوثان . ولكن الحاكم اساء تقديرَ تصميم پرپيتوا ، و استخف بعزائم اصحابها القوية الصلبة . و لم يكن يعلم شيئًا عن نعمة الرب وقوته المعطاة للمؤمنين ، والتي ستؤازرهم و تساندهم في ساعة محنتهم . اذا كان المطلوب أن يكونوا عبرة للآخرين ، فقد قرروا ان يكونوا عبرة شريفة وأن ينجزوا ذلك الامتياز الذي منحهم إياه الله إذ يشرقون ببهاء محبة الله على المسرح الذي أُعدّ لهم .

كان قلب پرپيتوا متعلّقًا بأبيها ؛ و كانت ترغب في اسعاده ، لكن الفارق هو أن أباها لا يعرف المسيح ، أما هي فتعرفه . وقد كانت تدرك أن انكارها للحق لا يُمكن أن يساعد أباها ، بل ستكون بذلك قد خدعته . عليها أن تريه طريق المسيح مهما حدث ، و في كل الظروف ، و أن تصلّي لكي يتعرّف بهذا الطريق و يتبعه .

كان أخوها يعرف شعورها و دواخلها . و كانت ترتاح اليه ، لأنه هو أيضًا اعتنق المسيحية كأمه ، لقد جاء ليشاركها الصلاة في الزنزانة و اقترح عليها أن تطلب الى الله أنْ يكشف لهما ما الذي سيحدث . فجاء جواب الله على هيئة رؤيا . حلمت بسلّم ذهبي ضيّق طوله من الأرض الى السماء ، يحرسه حيوان ضار في أسفله ، و محاط من جوانبه بمختلف أنواع أسلحة القتال والحرب . كذلكَ رأت في هذا الحلم سَاتُورُوس (Saturus) ، وهو أحد الرجال المسيحيين الأربعة المسجونين معها . ثم شرع ساتوروس بتسلّق السلّم و تبعته هي أيضًا . وعندما اعتلت الدرجة الأولى من السلّم داست على رأس الوحش . و عندما وصل ساتوروس الى أعلى السلم ، دعاها باسمها و هو يقول : « انني في انتظارك يا پرپيتوا .» وبانضمامها اليه وجدت نفسها في مرج خصيب ، حيث يجلس راعٍ يحلب غنمه ، محاطًا بأناس يلبسون الثياب البيض . دنا منها الراعي وقدّم لها قطعة من الجبنة . اخذت پرپيتوا قطعة الجبنة بكلتا يديها ، و إذا بالأناس المتسربلين بالثياب البيض يصرخون «آمين » . و في هذه اللحظة استيقظت من حلمها ، و لكنّ مذاق الجبنة بقي في فمها . لقد جلب هذا الحلم الجميل و غيره من الاحلام ، شعورًا كبيرًا من الراحة لپرپيتوا و أصحابها ؛ ومنحهم الجرأة و القوة والشجاعة لمجابهة مشقاتهم و انزعاجاتهم بفرح و غبطة . و هكذا استطاعوا أن يواجهوا المستقبل من دون خوف او وجل . لقد عرفوا يقينًا أنّ هذه الرؤى كانت من الله ، وان اللّه تعالى

سيحقق لهم ما جاء فيها . كذلك عرفوا أنّ الراعي لم يكن في الواقع الاّ مخلّصهم ، وأنّ هذا الراعي الصالح سيستقبلهم قريبًا في المرج الجميل الذي اراهم اياه . هناك سيتذوقون حلاوة محبة اللّه .

كانت تصرفات پرپيتوا و زملائها تختلف عن تصرفات السجناء الآخرين . كان هؤلاء السجناء يسبّبوا اضطرابات ، الأمر الذي جعل حياة الحراس معهم صعبة و شاقة . أمّا اولئك فقد كانوا صبورين ومراعين شعور الآخرين ، مملوئين اطمئنانًا و ايمانًا . ورد في مذكّرات پرپيتوا أنّ احد الحرّاس المشرفين على السجن بدأ ينظر اليها و إلى أصحابها بعين التقدير و الاحترام مدركًا أنّ قوة اللّه في داخلهم . كان اسم هذا الحارس « پُودنز » (Pudens) .

عند إعلان يوم المحاكمة ، عاد والد پرپيتوا مرةً ثانية ، فحاولت پرپيتوا أن تقدّم لأبيها التعزية والمواساة و هي تقول : « لتكن مشيئة الله الصالحة يا أبتاه ، إذ ليس قَدَرُنا بأيدينا و انما بيديه الكريمتين . » فأجاب ابوها قائلاً : « يا بنيّتي العزيزة ، ارحمي أباك و اشفقي على شيبته ، فاذا كنت تكنّين لوالدك الاحترام و الاعتبار الكافيين ، فلا تدعي الناس يسخرون بي ، و لا تسببي لنا الدمار والخراب ، بحيث لن يجرؤ أيّ منا أن يُطل بوجهه امام الناس ، و لا سيما إذا حكموا عليك . » ألقى أبوها بنفسه عند قدمي ابنته و بكى بمرارة و يأس متوسلاً اليها أن تعود عن هذا الطريق الحقير الرهيب الذي اختارته . و قفت بيربيتوا امام والدها بهدوء وسكينة و هي تنتظر ان يُكمل حديثه . وبعد أن أكمل ما يريد قوله ، تركها بقلب كسير ، و خرج حاملاً طفلها .

وقد كتبت پرپيتوا في مذكراتها تقول : «الوقت يمر سريعًا وموعد المحاكمة بات قريبًا ، وفيما كنا نتناول الغداء ، استعجلونا إلى السوق العام ، حيث الإستجواب . بسرعة كبيرة انتشرت الاخبار في السوق وبدأ الناس يتهافتون للتجمّع حولنا . اعتلينا المنصّة جميعنا ، واعترف زملائي بكل جرأة أنهم من المؤمنين بيسوع . ثم جاء دوري . » عندئذ انسلّ أبوها ليكون على مقربة منها قدر المستطاع ، و كان يلوّح لها بطفلها فكان علَيّ مرأى من ناظريها ، وصرخ قائلاً : «ارحمي طفلك يا پرپيتوا . » ولم يستطع القاضي أن يحتمل هذا المشهد ، فألحّ على پرپيتوا أن تنبذ إيمانها و تنسحب قبل فوات الأوان ، و قال لها : « احفظي شيبة أبيك ، و ارحمي طفلك ، و كل ما هو مطلوب منك هو أن تُقرّبي تقدمة وأن تعبّري عن ولائك لأمبراطورنا العظيم ، و هكذا يُفرج عنك فوراً . » فأجابت پرپيتوا : « لا استطيع أن أفعل هذا . » فسألها القاضي : « هل أنت مسيحية ؟ » فأجابت بعزم و ثبات : « نعم إنني مسيحية . »

بعد هذه الكلمات صرخ أبوها صراخًا مرًا ، و استمرّ هكذا محدثًا جلبة كبيرة حتى نَفَدَ صبر القاضي فأمر بإبعاده . و في أثناء إبعاده عن المشهد ، انهالت عليه ضربات الحراس بهراواتهم الثقيلة . سمعت پرپيتوا اصوات الهراوات و هي تنهال على أبيها ، فكتبت في مذكراتها تقول : « لقد عانيت آلام الضربات التي تعرّض لها أبي كما لو كانت تنهال عليّ . لقد عانيت بسبب شيخوخته البائسة الكئيبة .» و لكن لم تستطع پرپيتوا أن تتراجع عن ايمانها ؛ لم

تستطع أن تنكر الحقيقة ؛ لم تستطع أن تخدع عائلتها ؛ لم تستطع أن تنكث عهد سيدها ومخلّصها . لقد صدر الحكم بادانتها مع الآخرين وبات عليها أن تواجه الوحوش في الساحة العامة .

كان هناك محام شاب يدعى تَرتُولِيَانُوس (Tertullien) ، وكان يعيش في قرطاجة في ذلك الزمان . و يُحتمل أنّ هذا الشاب كانَ واقفًا في الزحمة الكبيرة ، وقد كان هذا الشخص هو الذي كتب الى الحكومة الرومانية يقول : «إنّ دماء المسيحيين هي بذار .» فاذا زُرعت هذه البذار المقدسة ، لا بدّ من أن تعطي ثمارها ، و ستكون هذه الثمار حصاداً مذهلاً مدهشًا .

على كلَ حال ، نُقل السجناء الى زنزاناتهم ، و بقوا هناك ينتظرون الاحتفال الكبير الذي سيقام بمناسبة عيد ميلاد أحد ابناء الامبراطور . كان مُقرراً في تلك الأثناء تنفيذ حكم الاعدام بالسجناء لتسلية أهل المدينة . وقبل موعد تنفيذ حكم الاعدام ، توفّي واحد من الشبّان يدعى سكُونْدُولُوس (Sécundulus) ، و لكن بمرور الايام شهد السجن مشاهد استثنائية ملفتة للنظر حَقًا . ذلك لأن الشبّان المسيحيين الخمسة ، بدل أن يندبوا حظهم العاثر ، كانوا يستمتعون بشعور البهجة و السرور . كما أنّ دماثة اخلاقهم ، و ايمانهم المخلص الثابت ، ترك عند المشاهدين انطباعًا عميقًا . و الذين كانوا يزورونهم ليَرْثوا لهم ، كانوا يجدونهم ممتلئين ثقةً وثباتًا . والذين كانوا يأتون ليطمئنوهم و يعزوهم ، كانوا يجدونهم متمتعين بأقصى الطمأنينة و السلام والثقة التي منحهم اياها الله في حينه . لقد تأثّر زوارهم لدرجة أنهم صمموا بدورهم على السير وراء المخلّص يسوع المسيح . كتبت پرپيتوا تقول : «غادر جميع الزوار وهم مندهشون ، ونتيجة لذلك آمن معظمهم .» و يبدو بوضوح أنّ الحارس المدعو پودنز قرر أن يكون مسيحيًا هو أيضًا .» شاهدت پرپيتوا أباها مرة أخرى قبل يومها الأخير ، و لكنها لم ترَ ابنها لأنّ جده رفض أن يحضره .

كانت العادة تقتضي أن يُقام احتفال عام ليلة الاعدام لتسلية السجناء المحكوم عليهم بالموت ؛ فانتهز هؤلاء الفرصة ليتناولوا وجبة طعام مشتركة ، بعضهم مع بعض ، و ذلك تذكاراً لمخلّصهم يسوع المسيح الذي عانى و تألم و مات من أجلهم . تجمهر سكان المدينة ليشاهدوهم ، وقد كان بعض هؤلاء السكان متّحدين معهم في الايمان ، أمّا بعضهم الآخر فلم يكونوا كذلك . لكن الجميع تركوهم مستغربين ايمانهم الثابت وعزيمتهم التي لا تلين .

و في اليوم التالي ، و هو الموافق اليوم السابع من شهر مارس سنة 203 م ، اقتيد كل من پرپيتوا و فيليستاس والشبّان الثلاثة ، ساتوروس و سَاتُورْنِينُوس (Saturninus) وريفُوكَاتُوس (Révocatus) الى ميدان الوحوش - و هو المدرّج الشعبي الَعام حيث كانت تُجرى المباريات والالعاب و سباق المركبات . شعرت پرپيتوا و زملاؤها بالارتياح والاسترخاء ، لأن الفرج قد اقترب ، ولأنّ العذابات التي يقاسونها ستنتهي . كذلك انتابهم شعور من الفرح العظيم عندما تأملوا في ذلك الترحيب الذي سيلقونه في بيتهم السماوي . و في أثناء مرورهم بين صفّي الجند كانوا يتلقّون ضربات مبرحة . و قد حاول الحرس أن يضعوا عليهم أردية وثنية احتفالية - حيث الزي لباس قرمزي و أصفر ، و كأن الرجال كهنة للإله زُحل

(Saturne) ، و النساء و كأنهنّ مكرّسات للإلاهة كيريْس (Cérès) . فاعترضوا على ذلك بشدة مصرّحين جهاراً بأنهم مسيحيون لا عبدة أوثان . وَهكذا ، سُمح لهم في النهاية بأن يخرجوا بثيابهم الاعتيادية . شرع المحتشدون المتحمّسون ، مجتمعين وجالسين فوق مصطباتهم ، يصخبون و يصرخون بأعلى أصواتهم ، بينما كان المحكومون يسيرون بشجاعة نحو الفسحة المفتوحة في منتصف المدرج . و أخيراً غضبت الوحوش الكاسرة و صرخت من شدة الجوع ، واستثارة الحراس لها ، فَفُتحت الأبواب بسحب المهماز الذي كان يفصل الوحوش بعيداً عن المدرج . فهُرعت النمور والدببة الوحشية باتجاه هؤلاء المؤمنين الخمسة ، وشرعت تمزّق اجساد الرجال الثلاثة بوحشية قاسية . أمّا پرپيتوا و فيليستاس فرُبطتا بشبكتين و كانتا تترنمان بمزامير الفرح والايمان بالرب . و هنا ، وعلى حين غرّة أُلقيت الشبكتان اللتان كانتا مأسورتين بداخلهما امام بقرة وحشية غاضبة ، و سرعان ما أغمدت البقرة قرنيها في الاسيرتين بوحشية و حملتهما في حال تشنّج وهياج ، و رفعتهما برأسها الى الوراء و قذفتهما بعيداً بعنف كبير .

سقطت پرپيتوا ارضًا ، و قد تمزّق رداؤها من جانبه . فأعادت سحبه ، و لفّته حولها لانها «اهتمت ببقاء جسدها محتشمًا اكثر من اهتمامها بالأذى و الهوان اللذين لحقا بها .» رَبَطَتْ پرپيتوا شعرها السائب ودارت بنظراتها حول المكان بحثًا عن رفيقتها فيليستاس ، فوجدتها مطروحة أرضًا ، فاقتربت منها و أعانتها على النهوض و الوقوف على قدميها . ثم التفتت إلى زملائها الذين كانوا لا يزالون يصارعون الوحوش في الساحة ، و صرخت إليهم تحثهم و تشجعهم و تقوّي معنوياتهم .

اقتيدت پرپيتوا وفيليستاس إلى غرفة خارج الميدان و جراحهما ثخينة دامية . و على الرغم من جراحات پرپيتوا البليغة ، فقد كانت في نشوة ما بعدها نشوة ، و لم تكن لتشعر بآلامها المبرحة . سألت پرپيتوا عن موعد عودة الوحوش الى الميدان من جديد . و في هذه الفترة القصيرة من الراحة ، وبعد أن استطاعت پرپيتوا أن تلتقط بعض أنفاسها ، جاءها أخوها و واحد من الأصدقاء يدعى روستيكوس (Rusticus) ليفتقداها . فشجّعتهما پرپيتوا قائلة لهما : « أثبتوا في ايمانكم ، أحبوا بعضكم بعضًا ، لعلّ استشهادنا لا يكون سببًا للخجل لكم جميعًا . » ثم نهضت پرپيتوا و توجهت الى الميدان من جديد . في الوقت عينه و في الجانب الثاني من الميدان ، كان ساتوروس يتحدث الى الحارس پودنز و هو يحثّه قائلاً : « و الآن يا أخي ، آمن من كل قلبك . . . الوداع ، تذكّر إيماني ، ولا تجعل اموراً كهذه تقلقك ، بل لتكنْ حافزاً لتزيد ايمانك وتقويه . »

عندما شبع المحتشدون من مشاهدة ما قامت به الوحوش الكاسرة في الميدان ، وادركوا انه ما زال هناك بعض الضحايا الاحياء المجروحين ، صرخوا مطالبين التعجيل بقتلهم والتخلّص منهم . امّا پرپيتوا وزملاؤها المؤمنون ، فهرعوا يعانقون بعضهم بعضًا ، لانه العناق الاخير قبل انتقالهم الى أحضان المسيح . مشوا متعبين الى منتصف الميدان مسيرة الشرف و الكرامة وهم هادئون فرحون . وفيما هم سائرون ، انهالت عليهم طعنات السيوف من رجال

عُيّنوا لهذا الغرض . أمّا الجلاّد الذي أُوكل عليه قتل پرپيتوا فقد كان فتىً يافعًا ، غير ذي خبرة في اعمال الإعدام . كان ينفّذ مهمته من دون اتقان ، إذ طعن پرپيتوا طعنة غير فعّالة . عندئذ أمسكت پرپيتوا بسيفه و غرزته في صدرها بكلتا يديها . و بهذا تحررت پرپيتوا من الوضع الذيّ كانت تعانيه و انطلقت الى احضان المخلّص .

* * * * * * * * * * * * * * *

كانت قرطاجة تحمل صفات غريبة تلفت الانظار . فهي عاصمة إفريقيا ، أو على الأقل ، تلك المقاطعة الرومانية التي كانت تحمل ذلك الاسم ؛ و في الواقع كانت إفريقيا أرضًا ضيقة تحاذي الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط . و تُذكّرنا قرطاجة و إبّان القرن الثالث للميلاد ، من بعض وجوهها ، بمدينة كورنثوس . فكلتا المدينتين كانتا ميناءين يقطنهما شعب بلا جذور ، يمتهنون التجارة . و لم يكن هناك فوارق اجتماعية تُذكر في كلتا المدينتين ، ما عدا ما يتعلّق بالغنى . كانت كلٌّ منهما تعاني ظاهرة الانحلال الخُلُقي التي تبرز في المدن الواقعة عند شبكة طرقات رئيسة تربط الدول بعضها ببعض . هذا لأن روّادها هم من المغامرين الذين يشعرون بأنهم بعيدون عن قيود الأصدقاء و الأهل ، ينغمسون في الملّذات الدنيوية التي تتيحها أمامهم الديانة الوثنية . و نحن نجد في كلتا المقاطعتين أعراقًا و أجناسًا خليطة من جميع أنحاء العالم - الافارقة ، و الإيطاليين ، و اليهود ، و المصريين والغاليين . كذلك نجد طاقات عقلية او عاطفية تظهر من خلال المشاحنات المستمرة التي تطالعنا سواء في الشوارع أو الأسواق ، أو على المدرّجات . و ممّا زاد الوضع تفاقمًا حرارة المناخ و الذباب والحشرات و القذارة والأمراض المستشرية في الأزقّة النتنة المزدحمة . تعتزّ مدينة قرطاجة بنفسها وتزهو بكيانها و تفتخر ، مع انها فقدت عظمتها السابقة . فهي تحت حكم روما قسراً ؛ و من جهة أخرى ، قد يبدو أنها تسيطر على المناطق المحيطة بها بالاضافة الى القبائل الداخلية ، لكنها في الواقع تفقد تلك السيطرة . و قد يبدو أيضًا أن مواطنيها متّحدون في تعبّدهم للآلهة القديمة ، ولكنهم كانوا ممزّقين داخليًا يشككون في مصداقية تلك الآلهة .

إن شعب قرطاجة ، وجدوا في وسطهم رجالاً و نساءً يتميّزون بطابع الغرابة : تخالهم عائلة ، لكنهم لا يرتبطون بروابط الدم . و تظن أنهم دين ، انما في الواقع بلا آلهة منظورة . كذلك يبدو أنهم من عرق واحد ، و لكن بالحقيقة متحدّرون من دول متعددة . الغني و الفقير ، الكهل والشاب ، المتعلّم و الأمّي ، و هم من الافارقة او الايطاليين او اليهود ، من دون تمييز . لهم جميعًا دماثة خلق مؤثّرة ، و لهم ايضًا جاذبية أخّاذة عجيبة . لا تجدهم يتشاحنون ، أو يغشّون ، و لا يسكرون ، و لا يشاركون في طقوس العربدة ، او الاحتفالات الفاسدة التي كان جيرانهم يحتفلون بها . و لم يرهم أحد يشاركون في المسرحيات العامة ، ولم يُعرف عنهم قط انهم دخلوا يومًا الى معابد المدينة التي كان يرودها كلّ السكان . ففي الواقع ، كانت هذه الجماعة الغامضة لغزاً من الالغاز و سراً من الاسرار . كانوا يعيشون في قرطاجة ، و لكنهم لم يشاءوا يومًا ، أن يكونوا جزءاً من هذه المدينة او من شعبها .

بل على العكس ، كانوا يجتمعون سرًا ، و في الخفاء - جماعات صغيرة هنا وهناك - لا يعرف أحد ماذا يجري وراء ابوابهم المقفلة ، من أمور و أمور .

و مع ذلك ، فقد كان اولئك القوم من افضل الناس و أحسنهم . فاذا اتفق أن تعرّفت بواحد من هذه الجماعة ترى انك تنساق انسياقًا لتثق به و تطمئن اليه . و اذا طلبت اليهم أن يحدّثوك عمّا يؤمنون به ، يجيبونك بلطف ، أنهم يؤمنون بشخص أتى الى هذه الدنيا ، ليس منذ وقت طويل ، وذلك ليُعين البشرية ، فرفضه هؤلاء الذين جاء لكي يعينهم ؛ وأخيرًا ، نُفّذ فيه حكم الموت ، و لكن موته لم يكن نهاية المطاف . لأنك ان صدّقت روايتهم و ما يقولونه لك ، فهذا الرجل الذي مات ، قام من القبر في اليوم الثالث . قام بطريقة عجيبة و هو لا يزال حيًا بصحبة اتباعه ، و معهم حيثما ذهبوا واينما وطأت أقدامهم .

وبالتأكيد ، فإن هذه الرواية هي رواية جميلة ، و الإيمان بها لا يؤذي احدًا ، و قد تكون صحيحة . و لكن لم تكن الامبراطورية الرومانية تُعنى كثيرًا بالجمال أو بالحق . لقد كان الدين عند اولئك الرومان مفيدًا ، لكنه مفيد اذا ما استعمل كأداة للتسلّط على الناس و استغلالهم . فحتى ذلك الوقت ، كان استغلال الدين قد أعطى نتائج حسنة ، و كان مفعوله جيدًا ، شريطة ان يُخلص الناس لدين واحد ، و يقدموا له الولاء المطلوب فيشارك جميع الناس بعبادة واحدة عامة موحّدة . ازعج السلطات الرومانية أن تجد في قلب العاصمة الافريقية أناسًا يزدادون باطّراد ، و يرفضون قبول العبادة الشعبية العامة ، و يمتنعون عن تقريب التقدمات التي تُكرم الامبراطور . كما شعرت السلطات أن من شأن هذه الظاهرة أن تهدد بنية المجتمع و الحضارة التي يسهر عليها الامبراطور . لذا ارتأوا ان تُخمد هذه الحركة و تُقمع وهي بعد في مهدها قبل أن يستفحل أمرها و تنتشر . و في هذا الوقت أصبحت الحكومة الرومانية قلقة و متوترّة بسبب الأزمة الاقتصادية و الاجتماعية المتفاقمة و التي جعلت الناس يتذمّرون في جميع أنحاء الامبراطورية . بدأ التململ يتنامى بين سكان قرطاجة ، و بدأ صبرهم ينفد بسبب حكّامهم الرومان . لقد أصبح الشعب في حاجة الى مزيد من مهرجانات اللهو و التسلية . وصلت السلطات الرومانية الى الحل المنشود ، حين طلب مروّضو الوحوش الكاسرة مزيدًا من الضحايا لإطعام وحوشهم الجائعة ، على المدرّجات . فإنّ هؤلاء المسيحيين سيفون بالغرض .

بعد مصرع پرپيتوا و أصحابها بقي جمهور المؤمنين بمشاعر متضاربة - يسرّهم ان معاناة أحبائهم قد انتهت ، لكنهم يحزنون لفراقهم ؛ اطمئنان الى انهم من الشهداء الذين رحّبت بهم السماء ، وهم الآن في مكان أفضل حيث استقبلهم الراعي الصالح الذي تراءى لپرپيتوا ، و قلق على مصير المؤمنين الباقين . رفع الإخوة الجثث الخمس المطروحة على ارض الملعب ، و دفنوها بكل محبة . كذلك نصبوا لوحة تذكارية لإحياء ذكرى هؤلاء الشهداء الشجعان ، الذين وقفوا وقفة مشرّفة . و كان المؤمنون يحتفلون سنويًا بذكرى استشهاد هؤلاء الابطال ، فيستمدّون من ذلك القوة ؛ لا سيما ان هؤلاء كانوا نماذج حية للشجاعة و الاستشهاد . قامت احدى النسوة المؤمنات من الجماعة المسيحية بتبنّي طفلة فيليستاس و تربيتها مع اطفالها . و عندما شبّت هذه

الطفلة تعرّفت بحقيقة والدتها و بإيمانها بالمسيح الذي لم تنكره حتى الاستشهاد . كذلك عرفت هذه الابنة الشابة انها تستطيع ان ترى والدتها يومًا ما وستتعرف بها ، مع انها لم تعرفها في الحياة الدنيا . هناك في السماء ستبقى معها ، حيث لن يكون دموع أو احزان ، أو أي فراق بين الأحبّة . امّا ابن پرپيتوا ، فلا نعلم ماذا حصل له ، لكن ربما عاش مع جده كوثني ، و ربما بقي مع خاله و اعتنق المسيحية .

كذلك لا نعرف شيئًا مؤكدًا عن زوج پرپيتوا . فمن الممكن الاّ يكون له مكان في هذه القصة ، لأنه قد تكون پرپيتوا قد تزوجته رغمًا عن ارادتها و هو لا يأبه إلاّ قليلاً لزوجته ولايمانها . و هكذا قد يكون تخلّى عنها في ساعة محنتها و حاجتها اليه . ثمة احتمال آخر ، و هو أن يكون هذا الزوج من الذين سُجنوا ايضًا معها . فعند سماع ساتوروس بإلقاء القبض على پرپيتوا ، نرى أنه قد اسلم نفسه طوعًا الى السلطات الحاكمة . و في الرؤيا ، رأت پرپيتوا ساتوروس ينتظرها في رأس السلّم ليدخلا معًا الى الجنة و هي بصحبته و الى جانبه . ولم يكن هذان المؤمنان ليفترقا ابدًا . لذلك ، فالاحتمال هو ان يكون ساتوروس زوجها . فالمسيحي الذي يمكنه أن يحظى بحب امرأة عظيمة كپرپيتوا ، لا يمكن أن يكون من الذين يخافون الخطر و يهربون منه . فلا بد لمثل هذا الانسان من أن يعلن ايمانه و يعيش هذا الايمان ، و أن يموت في سبيله شهيدًا اذا ما اقتضت الحاجة الى ذلك . فمثل هذا البطل لا بدّ من ان يقف بجانب زوجته ، في المدرّج الروماني ، او في الجبال ، او في الصحاريَ ، او بعيدًا داخل الوطن ، و في كل الظروف و الاحوال . كان هناك الكثير من مثل هؤلاء الرجال الاشداء في افريقيا الشمالية إبّان تلك الحقبة من الزمن .

أما فيما يتعلّق بالامبراطورية الرومانية فقد أدّت سياستها العقيمة المشهورة الى نتائج عكسية ظهرت واضحة امام الملإ جميعًا : قَبلَ المسيحي المؤمن هذا التحدي الكبير ، و هكذا ربح المعركة . والآن عرف اهالي قرطاجة أنّ المسيحيين لا يهابون الموت و أن استعمال القوة معهم لا يجدي نفعًا . لقد ثبت ستة ابطال من الرجال و النساء بايمان راسخ بقوة مسيحهم ومخلّصهم ، و لم يرضخوا في يوم من الأيام للتهديد و القسوة و لا خضعوا للطغيان الروماني . وهكذا نجد الناس يتحدثون في كل مكان عمّا رأوه و سمعوه متسائلين : ماذا تعني هذه الظاهرة؟ ما هو هذا التعليم الذي يستحق ان يموت الناس لأجله ؟ لقد ظهر بوضوح لأولئك المتسائلين ، أنّ هذا التعليم الجديد يمنح قوة غير مألوفة تستطيع أن تنزع من قلب المؤمن كل خوف من الموت . كما انه يملأ معتنقيه فرحًا – فرحًا يصعب التعبير عنه و يقينًا غير محدود يصعب تفسيره . لكن ماذا يلي ذلك ؟ كانت المدينة الافريقية العظيمة تنتظر بترقّب ، متسائلة ما هو جوهر هذا الإيمان المسيحي الذي لا نظير له .

ملاحظة : هذه قصة واقعية أخذت تفاصيلها من وثائق كُتبت في زمن وقوع الأحداث .

من الممكن الحصول على ترجمة انكليزية للقصة المعاصرة في :

ed. Roberts & Donaldson *The Ante-Nicene Fathers Series* Vol. III pp. 697 - 706 .

الفصل الثاني

الانفتاح على العالم المتحضّر

كانت قرطاجة موجودة قبل واقعة پرپيتوا بألف سنة ، واستمرت ناشطة خلال هذه الحقبة من الزمن . ويشكّل اولئك الناس الذين اقاموا في المدينة العظيمة ، مجموعة اقوام مختلفة متنوعة ، وجدوا طريقهم اليها من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب . بعضهم جاء من البحر وتزوّج من فتيات القوم الذين كانوا يقطنون في تلك الديار منذ آلاف السنين ، ويرعون قطعانهم ومواشيهم في السهول الساحلية . ونزل بعضهم الآخر تدريجيًا من جبال الأطلس والريف ، مدفوعين بنزاعاتهم أوطموحهم الى الأفضل . آخرون منهم سافروا شمالاً على طول طريق القوافل الصحراوية التجارية . وحينما بلغوا مدينة قرطاجة لم يستطيعوا أن يذهبوا أكثر من ذلك ، لأنّ هذه المدينة هي الحد الأقصى والتخم الأبعد على امتداد البحر الأبيض المتوسط ، حيث لا يمكن تعدّيه ، اوالسفر لأبعد منه . لقد تزامل البحّار مع المزارع ، وترافق أحد أعيان المدينة مع العبد ، والافريقي مع الاوروبي ، فاختلط هؤلاء الاقوام ، بعضهم ببعض الى حد كبير ، في الشوارع الضيّقة ، من المدينة القديمة ، ومزجوا لهجاتهم المحلية وبضائعهم في أسواقها . وقد ارتفع سكان هذه المدينة في القرن الثالث الميلادي الى 000 100 نسمة .

وعندما أسّس الفينيقيون الاشداء قرطاجة ، استخدموها كمركز تجاري صغير لهم ، وقد وصلوا الى هذه البقعة من شرقي البحر الابيض المتوسط نحوسنة ألف قبل الميلاد . ولكن الفينيقيين لم يكونوا أوّل من سكن بمحاذاة هذه المنطقة الساحلية ، فقد وصف الكُتّاب الاوائل الافارقة بأنّهم من الأمازيغيين (Imazighen) أو البرابر ، الذين قابلهم الفينيقيون عندما اندفعوا بمراكبهم الغريبة الى السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط . وكان معظمهم من البدوالرحّل الذين امتهنوا تربية المواشي والاغنام والماعز ، وهم يعيشون في خيم ينتقلون من مكان الى آخر حسب المواسم ، ويقيم بعضهم الآخر إقامة ثابتة دائمة في الوديان النجدية وهم يعيشون في أكواخ عبارة عن جدران وأسوار من الطين او الحجارة . ويعتنون بشجر الزيتون ويستغلونه ، ويربّون الدواجن ، ويبذرون حبوب الحنطة والشعير في حقول صغيرة . أمّا نساؤهن ، فكنّ يَحكنَ الثياب ، ويصنعنَ الخزف ، بينما يعمل الرجال بأعمال الحجارة والأخشاب ، صانعين منها أنواعًا

عديدة من الأدوات التي قد يحتاجون إليها في حياتهم اليومية . كانت المعادن نادرة الوجود ولم يكونوا يعرفون النقود بعد .

كان الغذاء الرئيس المتوافر لديهم ، وهوعبارة عن سميد مصنوع من الحنطة والشعير المجروش ، يُعرف باسم كسكسو(Couscous) . وكانوا يلبسون رداءً طويلاً مزيّنًا بشريط أحمر وفي الصقيع ، كانوا يلبسون برانس مُقَلْنَسَة من الصوف . وكانوا يحبّون المجوهرات ويهندمون لحاهم وشعورهم ببراعة واتقان . وكانوا يشتهرون ببنيتهم الجسدية القوية ، وبطول أعمارهم .

تعيش المجموعات العشائرية مع بعضها تحت مراقبة الجد الأكبر او العم الأرشد وعنايته . وتشترك في امتلاك الأراضي . وكانوا يبنون قراهم بجانب الوديان ، حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم بسهولة من الاعداء وقت الحاجة . وقد شكّلوا اتحاداً من العشائر والقبائل للحماية المشتركة المتبادلة ، وفي بعض الاحيان للمشاركة في العدوان . وتقود مثل هذه الاتحادات الكونفدرالية عادة ، جمعية تتألف من رؤساء العشائر . ويمكن لرجل مشهور بشجاعته العسكرية ان يوحّد العشائر ، ويكون شيخًا لها اوحتى ملكًا لبعض الوقت ، وذلك في اوقات الاضطرابات اوالقلاقل .

لم يتهجّم الفينيقيون على أراضي هؤلاء الأفارقة الأصليين ، وانما اقتنعوا ، ببساطة ، بأن ينشئوا مستعمراتهم اومستوطناتهم الصغيرة بمحاذاة ساحل البحر الابيض المتوسط وكان الفينيقيون قد أنشأوا لهم قاعدة رئيسة في قرطاجة بين الاعوام 800 - 700 قبل الميلاد ، واستمروا في بناء المستوطنات باتجاه الغرب ، وأقاموا لهم مستودعات ومخازن ومراكز تجارية بمحاذاة الساحل عبر جبل طارق مروراً بالساحل الأطلسي المغربي ، وامتدوا الى ما ندعوه الآن العرائش والصويرة . كان الفينيقيون رحّالة ومسافرين عظماء ، وقد احتفظوا لهم بخطوط اتصال بحرية من والى كل مكان معروف في العالم آنذاك ، من الاطلسي وحتى البحر الأسود امتداداً الى القنال الانكليزي .

إلاّ أنّ هذه الشبكة التجارية الواسعة المديدة لم يُكتب لها البقاء . فقد كان الفينيقيون يلاحظون ، سنة بعد أخرى ، كيف أنّ بلادهم الأصلية ، في الطرف الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، تتعرض لقوى عسكرية ساحقة معادية تهددهم ، وبخاصة من الامبراطورية الاشورية . ولقد أجهز أخيراً ، القائد اليوناني العظيم « الاسكندر » على العاصمة الفينيقية « صور » التي سقطت في القرن الرابع قبل الميلاد . وعندما وجدوا أنّ جذورهم الشرقية قد انتُزعت بالقوة ، اختار المغامرون المستوطنون بمحاذاة الساحل الافريقي البقاء هناك ، وبناء مستقبل جديد لهم في وطنهم المتبنّى ، وعُرفوا عندها باسم « القرطاجيين » .

والفينيقيون ، أوالقرطاجيون ، كما دُعوا في ما بعد ، يبدوأنّ قطعهم لعلاقاتهم بوطنهم ، أعطاهم زخمًا جديداً ، وذلك على مدى الثمانية قرون اللاحقة . وهكذا تطوّر القرطاجيون الدؤوبون على العمل وأنشأوا امبراطورية كبيرة هيمنت على جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط ، وسببت قلقًا شديداً لا يستهان به لمنافسيها عبر البحار المتمثّلين بروما . كان القائد القرطاجي الموهوب هنّيبَعَلْ على أهبة احتلال مدينة روما ، عاصمة الامبراطوية الرومانية . ففي العام 219 قبل الميلاد ، بدأ هنيبعل بعبوره جبال الألب باسبانيا ، في حملة عسكرية نقل خلالها 37 فيلاً قتاليًا . ولكن الفيَلة ماتت ، وكذلك مات الكثير من رجاله ، وبقي هنيبعل ينتظر وصول الامدادات العسكرية التي لم تصله . لذا فقد باءت حملته هذه بالفشل . وكان سقوط هذا القائد ، كسقوط قرطاجة نفسها التي احتلها الرومان بعدئذٍ .

والحقيقة أنّ القرطاجيين لم يحاولوا قط مهاجمة افريقيا الشمالية ، أوحكمها بالقوة . وببساطة ، فقد نظروا الى القارة الجنوبية الكبيرة وكأنّها مصدر من مصادر الموادّ الخام ، وحيثما وجدوا رجالاً ، يستخدمونهم للقتال في حملاتهم العسكرية في أماكن أخرى . وقد أنشأوا مراكز خارجية ، إلاّ انها لم تكن أكثر من أسواق تجارية محاطة بضياع واسعة لانتاج زيت الزيتون والحنطة والعنب . ولكنّ هذا الاستيطان الذي أسّسه القرطاجيون ، لم يكن كافيًا لحمايتهم من أيّ هجوم عسكري حقيقي قد يتعرضون له ، لذا اعتمدوا على بناء علاقات أخوية وثيقة بالأمازيغيين ، واوجدوا لهم علاقات تجارية تربطهم وجيرانهم . كانت هذه العلاقات ، لمصلحة كل من القرطاجيين والامازيغيين على حد سواء . ولتقوية هذه الروابط ، فقد تزاوج سكان الجاران بعضهم من بعض ، وقام القرطاجيون بتعليم الأمازيغيين لغة فينيقية خاصة بهم تدعى البونية (Punique) ، وقدّموا لهم شعارهم الديني الوثني ، وجرت بمقايضة بين الفينيقيين من جهة الرعاة والمزارعين المحليين من جهة أخرى : جلبوا لهؤلاء الأفارقة البضائع المعدنية المشغولة يدويًا ، والزجاجيات ، والثياب الملوّنة المصبوغة ، من أطراف العالم المحيط بحوض البحر الأبيض المتوسط ، وقايضوا بضائعهم هذه بالصوف والاحصنة وزيوت الزيتون والعاج الافريقي ، فضلاً عن العبيد ، وريش النعام الذي مصدره تجّار الصحراء . قدّم القرطاجيون للأمازيغيين اشجاراً جديدة لم يكن هؤلاء يعرفونها من قبل ، كالتين والكروم والرمّان ، وعلّموهم كيفية غرسها والاعتناء بها . إنّ الزراعة الواسعة النطاق التي ادخلها القرطاجيون الى افريقيا ، كانت ابتكاراً جديداً بالنسبة إلى الافارقة الذين كان عملهم حتى ذلك الحين ، محصوراً في تربية الأغنام والأبقار ، وتوفير حاجيات عائلاتهم من الحقول والبساتين الصغيرة . وافق الامازيغيون فرحين مسرورين على أن تُستعمل أراضيهم بتلك الطرائق . وبالطبع فقد استفادوا كثيراً من الاسواق

الجديدة التي فُتحت امام انتاجاتهم الغذائية والحيوانية . وليس من شك في أنّ التغيير الكبير الذي طرأ على غذائهم وأطعمتهم والعدد المعدنية والبضائع المشغولة يدويًا التي زوّدهم بها القرطاجيون ، زادت من سرورهم وبهجتهم ايضًا ، حيث كانت هذه جميعها تدل على ذوق رفيع وثقافة عالية . لقد شرع الامازيغيون يلبسون الأزياء الارجوانية ، والمجوهرات الثقيلة التي يستعملها القرطاجيون عادة ، كما تعلّموا استخدام لغتهم ايضًا .

ولكنّ هذا لم يدم إلى الأبد ، لأنه ، على الرغم من أنّه كان للقرطاجيين اصدقاء في افريقيا ، فقد كان لهم اعداء اقوياء ايضًا في مناطق اخرى من العالم . فالرومان صُعقوا بالنجاحات السريعة الموقتة التي حققها هنيبعل ، جنرال قرطاجة . لذلك ، ففي القرن الثاني قبل الميلاد ، زحفت الجيوش الرومانية ، وشارفت ابواب قرطاجة ، ولم تمضِ فترة قصيرة حتى سقطت مدينة قرطاجة ، واستسلمت لمهاجميها في العام 146 قبل الميلاد .

كان الهدف الأهم من دخول الرومان الى افريقيا الشمالية هوتدمير قوة منافسهم الاول في البحر الابيض المتوسط ، والعودة الى ديارهم بعد تحقيق هذا الحدث الهام . ولكن لسبب لم يتمكنوا من تجنبه ، وجدوا أنفسهم وقد تورطوا في نوع من الاتحاد الجديد مع القادة الامازيغيين ، الذين اسرعوا بدورهم الى تشكيل صلات وروابط مع الوافدين الجدد ، كتلك الروابط التي كانت تربطهم بأسلافهم من القرطاجيين . وهكذا بدأ الرومان يعون أهمية الطاقات الكامنة في افريقيا ، فراحوا يطوّعون مرتزقتها لدعم القوى العسكرية المرابطة آنذاك على الحدود الاخرى للامبراطورية ، والتي كانت في حاجة الى إمدادات . فمنذ فترة ، استُعيض عن الجنود الرومانيين بالإداريين ، لوضع المخططات المطلوبة لاستعمار افريقيا الشمالية ، فبدأ المستعمرون يأتون من الأجزاء الأخرى للامبراطورية ، ولم يكن معظم الوافدين من ايطاليا نفسها ، بل كانوا من الغاليين والاسبانيين والدلماطيين والسوريين واليهود الذين أضافوا دماءهم وعاداتهم الى الخليط الموجود قبلاً في مدينة قرطاجة . وتكلم هذا الخليط من الناس اللغة اللاتينية واليونانية من دون أن يتكلموا البونية .

كان الرومان من أعظم الإداريين في عصرهم وأبرعهم . فإذا قرروا يومًا أن يقيموا في بلد ما ، كانوا يشرعون بنشر تنظيمات ادارية مناسبة . وعليه ، فقد بدأوا بتنظيم مقاطعة افريقيا الشمالية ، بكل نشاط . وقد نظروا الى افريقيا اولاً على انها مصدر جيد للطعام والغذاء ، وساورهم القلق ، كما هي عادتهم دائمًا ، على كيفية تغطية احتياجاتهم للخبز ، وذلك طبعًا بسبب اتساع الامبراطورية وازدياد احتياجاتها . لذلك ، قامت السلطات الرومانية باقتلاع اعداد كبيرة من اشجار الزيتون ، وزرعت مكانها الحنطة والشعير . وكذلك قطعت من اشجار الغابات الموجود بمحاذاة الأنهار أوالبحار التي تمكّنهم من شحنها . وخلال فترة

وجيـزة ، نظّـم الرومـان اعمـال ريّ واسعة ، وبنوا القنوات لمدن متعددة كقرطاجة وقيصرية (شرشال) ، وشرعوا بتعبيد الطرقات بأسلوبهم المميّز وهواستعمال البلاطات الضخمة التي كانوا قد استخرجوها من المقالع حديثًا .

في البادية ، سمـح الرومان للقـادة والشيوخ المحليين الأمازيغيـين أن يحكـمـوا على ما كان تحت سيطرتهم من البلاد والناس . و القادة من الأمازيغيين والقرطاجيين الذين قدّموا الطاعة والولاء للامبراطور الروماني ، فقد مُنحوا ، وبسـرعـة ، منزلة خاصة ، باعتبارهم مواطنين رومانيين : فاستفاد هؤلاء من وضعهم الجديـد هـذا . وهكـذا ، وبسـرور لا يوصـف ، وجـد هـؤلاء القـادة والرؤساء الامازيغيون والقرطاجيون انهم قادرون على أن يتبوّأوا مناصب عليا رفيعة في السياسة وفي الهيئات اوالسلطات الاجتماعية الاخرى في المدن التي جرى تطويرها وإنماؤها حديثًا . وقد أصبح العديد من الأفارقة قادة في الجيش الامبراطوري . وفي سنة 190 ق .م صار ما يقارب ثلث المجلس الذي يحكم الامبراطورية من روما ، مشكّلاًمن أعضاء افريقيي الأصل . وهكذا انتُخب احد الأمازيغيين المدعوسِبْتِيمْيُوس سفيرُوسْ (Septime Sévère) إمبراطورًا لروما في وقت مبكر من عام 193 بعد الميلاد . هذا لأن التعيينـات الإداريـة فـي رومـا كانت تُبنى على أساس الاستحقاق والكفاءة . كان بإمكان أحد الأمازيغيين الذي أصبح حاكمًا في رومـا ان يكتـب باعتـزاز واضـح : « فـي رأيـي ، إن عنصـرنـا البشري مميـز ، وكأنما قُدر له أن يكون كذلك . لأنه أنتج أناساً كثيرين ذوي قدرات عالية ، وهويرى أن الأطفال الذين أنجبهم وربّاهم يتبوّأون أعلى المراكز وأرفعها . » [1]

أما اولئـك الذين لم ينجحوا في مواكبة الركب الامبراطوري ، فقد كانوا غير متحمّسين للإمبراطورية . وبما أنّ المسؤولين الامبراطوريين ، كان همّهم الأساسي السعي وراء تنسيق ما يختص بتنظيمات الاراضي الزراعية ، وفَرضَ الضرائب عليها ، الأمر الذي لم يُفلح القرطاجيون في إنجازه ، فقد اعترض عليهم عموم الشعب الذين كانوا يأملون ، ربما ، بالحصول على ارباح اكبر بعد أن تغيّر شركاؤهم التجاريون . لكن ذلك لم يحصل ، بل اكتشف الشعب أنّ الرومان كانوا أكثر رغبة في السيطرة على الأراضي ممّا كان عليه اسلافهم القرطاجيون . فالقرطاجيون مثـلاً ، كـانوا يدفعون الايجارات المستحقة عمومًا على الأراضي التي يستغلونها . امّا الآن ، ومع استمرار تقدّم زراعة الحنطة وتقلّص المراعي ، فقد خسرت بعض القبائل اراضي الكلإ التقليدية التي كانوا يستغلونها لرعي قطعانهم ، واستـولـى عليهـا الرومان لتحويلها الى مزارع الحنطة والشعير وغيرها . وهنا ، فضّل الكثير من الرجـال الأمـازيغيين إختـيار العـمـل كأجسراء ؛ أمـّا بعـضهم الآخـر ، فقـد انتقـل مـع قطعـانه الـى اراضٍ داخلـية بعيدة ومرتفعة ، وهي بالطبع اقل خصوبة وكلإ . وبذلك فقد اصبح مستقبل الشعب مشكوك في أمره وغامض النتائج ، لا اعتماد عليه .

وما إن حل القرن الاول للميلاد ، حتى شرع الرومان بتقسيم الحزام الساحلي الى خمس مقاطعات ، وبطريقة سائبة وعشوائية . وكان هذا التقسيم العشوائي السائب يتلاءم ، في الواقع ، كثيراً مع تنظيمات إدارتهم الحكومية . فمثلاً ، امتدّت مقاطعة كورينيكيا باتجاه الغرب وبمحاذاة الساحل من مصر الى ليبيا الحديثة . واذا ما توغّلنا الى أبعد من ذلك لجهة الغرب ، نجد أنّ المقاطعة افريقيا البروقنصلية التي دُعيت في ما بعد تْريبُوليتَانيَا ، تطوّق الساحل الذي يدعى الآن خليج سِرْتْ . كان هذا مقرّ الادارة الرومانية في شمالي إفريقيا والمتمركزة في عاصمتها ، قرطاجة ، بالقرب من مدينة تونس حاليًا . واذا ما استمررنا بالتوغل غربًا ، فإننا نجد نوميديا وبعدها موريتانيا قَيْصَرِيَانْسيسْ (اي الجزائر حاليًا) ، ومن ثم موريتانيا تِنْجِيْتَانَا والتي تستمر نزولاً حتى الساحل الاطلسي الى ان نصل الى سلا (بالقرب من الرباط) . إنّ المدينة الداخلية فولوبيليس (وليلي) في شمال المغرب ، ليست بعيدة عن مكناس في الوقت الحاضر . وقد تطورت بالتدريج حتى أصبحت عاصمة المنطقة الغربية لحين حلول القرن الرابع للميلاد . وعندها أدّت فوضى الاضطرابات الى اضطرار الإدارة الرومانية الى سحب مراكزها القيادية والإدارية الى سواحل طنجة .

عُرفت السهول والجبال الداخلية التي كانت سائبة تقريبًا ، ولا حكومة فيها ، باسم اراضي الجيتوليين او الموريين (Gétules, Maures) وكان يحكمها شيوخ القبائل . وقد حكم الشيخ الأمازيغي المدعو يُوغُرتَا (أو يُوكُرْتَنْ) (Jugurtha) (عام 154 - 104 قبل الميلاد) المنطقة حُكمًا صارمًا لا رحمة فيه ولا شفقة ، وذلك حتى يتمكن من بسط نفوذه ، ومدّ سيطرته على كل المنطقة التي توجد تحت نفوذ قرطاجة . وفي حدود العام 25 ق م ، كانت المنطقة الممتدة الى الغرب تُحكم من المدعو يُوبَا الثاني ، وهورجل أمازيغي متزوج من امرأة مصرية تدعى سِيْلِينَا (Célène) ، وهي ابنة أنطونيووكليوباترا . وقد شبّ جوبا في روما ، وتفوّق في دراسته . وَقدّم خلال ملكه الذي دام 48 سنة ، مظاهر عديدة للحضارتين الرومانية واليونانية في افريقيا الشمالية . ذاق الأمازيغيون حلاوة التجارة وتقنية الصناعات اليدوية لحضارات البحر الابيض المتوسط ، وسرّوا كثيراً بحراثة الأراضي وجني المحاصيل والحصادات المتنوعة التي مارسوها . وقد أدّى الاستقرار الذي فرضته الامبراطورية الرومانية في المنطقة الى تمكّن مزارعي افريقيا الشمالية وصُنّاعها اليدويين من ان يوردّوا الى الاسواق البعيدة الواقعة في أقصى اجزاء الامبراطورية . وهكذا نعمت بلادهم بالسلام ، وحالفهم النجاح والرخاء الاقتصادي بسبب المعاهدات التي عقدوها ، والارتباطات الدولية القويّة التي حصلوا عليها . لكنهم ، في الوقت نفسه ، أعطوا صورة غير مشرّفة عن المجتمع الروماني المتهرّىء آنذاك ، حيث أنّ هذا المجتمع كان يمارس الاعمال الوحشية والفظة في الملاعب والميادين ، وقد ترسّخت جذور العبودية المُذلّة ، فضلاً

عن الوثنية الفاسدة الفاسقة . وبالإضافة الى هذا ، فإن الرومان قد حكموا البلاد بشكل فعال ومشدّد ، ولكنهم لم يهتموا ، إلا قليلاً ، بحاجيات أفراد الشعب ومشاعرهم .

وهكذا نرى ، أنّ افريقيا الشمالية ، كانت في السنوات الاولى للميلاد ، مزيجًا مختلفًا من الناس ، لهم لغات وثقافات متنوعة . وقد اجتذب هذا الواقع مستوطني الارض الذين توافدوا عن رضى ، ليندمجوا في هذا الاتجاه السائد لحضارة البحر الابيض المتوسط . فتبنّوا بسهولة وحماسة الافكار الجديدة للتقنية التي صادفتهم هناك . وهكذا صارت الحقول جاهزة ، بانتظار حلول الحدث الجديد والأهمّ ، حيث تبشر السنوات القليلة القادمة بالدخول في عصر جديد وهام ، وهوقدوم اشياء لم تعهدها إفريقيا الشمالية من قبل .

جاء الفينيقيون والرومان في السنوات السالفة الى المنطقة ، طمعًا في التجارة والاستيطان ، وحبًا بالنجاح والثراء . . . ولكن ، من خلف الافق الشرقي تحديداً ، بدأ بعض المسافرين الأفذاذ يُبحرون الى كوريني وقرطاجة . كانت حوافز هؤلاء المسافرين تختلف تمامًا عن غيرهم من الوافدين ؛ لم يكونوا يرغبون في الاستغلال الزراعي اواستثمار الموارد المعدنية للارض ، لم يأتوا ليتاجروا مع المستوطنين ، وبالتأكيد ، لم يأتوا ليستأثروا بالسلطة . لم يحملوا معهم السلاح او العتاد ، ولا الغنى . لم يأتوا بشيء مما تقدّم ، جاءوا برسالة الأخوّة والامل والطمأنينة . وهؤلاء القوم اختارت پريتوا ان تسير معهم وأن تنضمّ اليهم . ومعهم فقط ، استعدّت لتلقي رحالها ، وتسلّم حياتها .

ملاحظات

Ayache p. 54 -1

من المصادر الثانوية عمّا قبل تاريخ افريقيا الشمالية وعن تاريخها القديم نذكر :

Camps pp. 86 - 119, 145 - 177; Frend pp. 25 - 47 ; Guernier pp. 51 - 82 .

الفصل الثالث

البحث عن الله

منذ العصور الغابرة ، أظهر أهالي إفريقيا الشمالية اهتمامًا في الأمور الدينية العميقة والصعبة الإدراك . وبالطبع ، فإنّ هناك شيئًا عالميًا عامًا ، تشترك فيه الطبائع البشرية ، ألا وهوالرغبة في الوصول الى حل ألغاز هذا الكون ، وأسراره غير المرئية ، والتي تتشارك فيها جميع قارات العالم ، وتؤمن بها كل الاجيال . وكلما اقترب الناس بعيشهم من العالم الطبيعي ، اشتدّت رغبتهم في التواصل مع هذه القوى الخارقة الموجودة في الخليقة . والواقع أنّ الإلحاد استطاع أن ينمو ويزدهر في القرن العشرين فقط ، حيث المدن الكبيرة التي أوجدها الانسان بنفسه . فقد أحاط انسان هذا القرن نفسه بأعمال يديه ، ولم يعد لديه متسع من الوقت ليتأمل في ما هوأعظم من منجزاته من أمور مدهشة يحاول فهمها .

وكسائر الناس الذين يقضون اوقاتهم في الحقول اوالغابات ، فإن الأمازيغيين القدامى ، في العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي ، لا بدّ من أن تكون قد روّعتهم القوى الظاهرة المدركة في الطبيعة . لا شك في أنهم شعروا في قلوبهم بالمشاعر نفسها التي نُحسّها نحن ونشعر بها عندما نستيقظ في الصباح ونلقي نظرة على قمم الجبال المكلّلة بالثلوج تحت أشعة الشمس المشرقة الصافية . لقد امتلأ الامازيغيون رعبًا ، كما نحن ، بسبب القوى العنيفة الهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تجرف الاشياء بقوة بعد كل عاصفة ، إذ تكتسح الاشجار والصخور أمامها ، وتلقيها ارضًا وكأنها عصافة في مهبّها . لقد افتُتن هؤلاء وسُحروا ايضًا ، بهياج البحار ، وبأمواجها الصاخبة على السواحل الصخرية ، وكذلك باندفاع طيور البحر وهي تنساق بسرعة فائقة خلال هبوب الرياح الغربية . لقد أدهشهم غروب الشمس وهي تصقل لونها الذهبي المتحوّل تدريجيًا الى اللون الأحمر ، لكي يختفي بعيدًا وراء التلال الرمادية ، في آخر النهار .

والطبيعة ايضًا مليئة بالخوف والرعب ، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت . فإذا لم يتساقط المطر ، يفسد الحصاد وتموت الغلّة ، وهذا يعني المجاعة . وإذا ما تفشّت الامراض في قطعان الماشية ، فسيترصّد الموت الناس أنفسهم ، إذ إنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم ، فلا ينجو إلا القليل من أطفالهم إبّان طفولتهم . فإن قُدّر أن يعيش واحد من اطفالهم ، ويموت الآخر ، فيكون قدراً مبهمًا ومخيفًا . فهل هناك طريقة ما يمكن من خلالها أن نؤثّر في حوادث المستقبل ؟ هل يمكننا أن نتجنب الكوارث والنكبات ، أوأن نؤكد استمرار الحياة ؟ هل هناك قوى خفية غير منظورة تتحكم في ماجريات الأمور ؟ وهل يمكن استرضاء هذه القوى ومناصرتها ؟ هل يمكن لهذه القوى أن تساعدنا في صراعاتنا مع الحياة ؟

ليس من السهل أن نعود القهقرى لأربعة آلاف سنة غابرة ، لندرك ما كان يفكر فيه اسلافنا ، وما اعتقدوه في الحياة والموت ؛ اولنستطيع ان نتصور كيف حاولوا تفسير اسرار هذه الدنيا والطبيعة في ما يتعلق بهم ، وما تزخر به من اشياء محيّرة مربكة ، خصوصًا اذا ما علمنا انه لم يكن لهم سبب واحد يحملهم على تدوين ما يختص باقتناعاتهم العميقة ، وتأملاتهم الخفية الغامضة . ولكنْ بإمكاننا أن نُمسك بالمفتاح الذي يزوّدنا ببعض المعلومات في ما يتعلق بمعتقداتهم ، وذلك من صناعاتهم ومنتجاتهم التي يكتشفها علماء الآثار هنا وهناك ، كالأصنام والمذابح والحجارة المنقوشة والملوّنة ، أوأيّ شيء آخر يعطينا مغزًى حقيقيًا لدين معيّن . هذا ، وإن لم يكتب الاقدمون شيئًا ، فبإمكاننا أن نجد المراجع بخصوصهم ، من خلال كتابات غيرهم ، ومَن عَرَفهم من الناس ، ولا سيما اولئك الذين كانوا يبادلونهم في التجارة ، أويحاربونهم . أحيانًا يمكننا أن نميّز أشياء كثيرة عن معتقداتهم ، من خلال العادات والتقاليد التي لا تزال حتى اليوم . وإذا تأمّلنا في ديانة الأمازيغيين القديمة نجد ، ولحسن الحظ ، بعض المفاتيح لفكّ لغزها بواسطة الأساليب الثلاث السالفة الذكر .

هناك شواهد واثباتات تدلّ على انهم تطلعوا بشكل خاص الى السماء ، مسكن الشمس بنورها ودفئها ، ومصدر المطر المحيي - والسماء بطبيعتها مليئة بالعجائب والروائع - والى النجوم المشرقة بلمعانها ليلاً ، والقمر الذي يُضيء بنعومة ورقّة ، والالوان السحرية لقوس القزح الذي ينشقّ متلألئًا من بين الغيوم بعد سكون العاصفة ، وكتل الثلج البيضاء الصامتة التي تنساق بغموض الى الارض ، والوميض المروّع الذي يبعثه البرق ، والتهديد المدمدم في قصف الرعد المزمجر . فليس عجيبًا أن تنشر السماء الرعب والخوف والعبادة في نفوسهم . وكثيرًا ما نجد نقوشًا تمثّل الشمس في حجرات الموتى واقبيتهم ، وحتى على الصخور القائمة . وفي بعض الاحيان ، يُعبّر القدماء عن إله الشمس بشكل أسد ، شعر عنقه ملتهب ومتّقد اتقادًا . وكان هذا الحيوان معروفًا عند الأفارقة الشماليين قبل أزمنة الرومان وبعدها ، وهو لا يزال يظهر مرارًا وتكرارًا في حكاياتهم الشعبية . وتشير نقوشهم المحفورة ، وكلماتهم المنقوشة ، الى الإله « أيُّور » (Ayyur) أي القمر ، بلغة الأمازيغيين .

استمرت عبادة الاجرام السماوية خلال أزمنة التاريخ . فقد كتب لنا هيرُودُوتُس (Hérodote) في القرن الخامس قبل الميلاد ، أنّ الأمازيغيين ، قرّبوا في أيامه التَقدمات لكل من الشمس والقمر . امّا بليني الكبير (Pline l'Ancien) ، فقد أكّد لنا تقديم مثل هذه الذبائح في القرن الأول للميلاد . قال شيشرون (Cicéron) إنه عندما قابل الملك الأمازيغي ماسينيسا (أو ماسْنيسّنْ) الجنرال الروماني سْكيبْيُو(Scipion) في القرن الثاني قبل الميلاد ، صلّى الى الشمس قائلاً لها : «إني اقدّم شكري العميَق لك ايتها الشمس المرتفعة ولسائر الآلهة ايضًا في السماء ، بسبب إتاحة الفرصة لي ، وقبل انتقالي من هذه الحياة ، أن أرى في مملكتي وتحت سقف بيتي كرنيليوس سْكيبْيُو .» [1] امّا ابن خلدون فقد ذكر أنّ الكثير من الأمازيغين في القرن الرابع عشر بعد الميلاد ، كانَوا لا يزالون يتعبّدون للشمس والقمر والنجوم .

وتتحدث السماء عن اسرار لا يمكن الوصول اليها . وكما فعل الانسان ، بتوجهه نحوالسماء ، هكذا ايضًا فعلت قمم جبال الأطلس التي نحتتها الرياح . ومن الممكن أن يكون هذا هوالسبب الذي جعل قمم الجبال تدفع الأفارقة الشماليين الى العبادة . ويخبرنا بليني الكبير «أنّ الليبيين يعتبرون الأطلس إلهًا ومعبدًا » . ولقد وجد علماء الآثار في الامكنة العالية بقايا المعابد الرومانية ، وهي مكرّسة لخدمة ساتورن (زحل) وعبادته . فقد بُنيت هذه المعابد ، في الواقع ، على انقاض مزارات الفينيقيين ، والتي كانت قد شُيّدت هي أيضًا من حجارة معابد وثنية قديمة . ولكن حتى قبل هذا التاريخ ، وفي فترة العصر الحجري الحديث ، كان الامازيغيون ينقشون الرموز والصور على أعالي قمم جبال الأطلس والريف ، وفي الكهوف والمغاور ، وعلى الصخور التي تنذر مواقعها ومناظرها المشرئبة بالخوف ؛ وكأنها تراقبهم ، إمّا لمعاقبتهم وإمّا للتراؤف عليهم .

هل كانت هذه المناطق الصخرية مهبطًا « لأرواح الارض » التي كانت تدعى «جنون» (Jnun)؟ يظهر أنّ الأمر هوكذلك . ولا تزال ، حتى يومنا هذا ، تُقدّم تقدمات النذور والقرابين في أوان خزفية تُشابه الى حد كبير الأواني الفخارية لما قبل التاريخ ، اكتشفتها مؤخرًا علماء الآثار ؛ ولّا تزال الشرائط تُربط على الشجيرات الشائكة التي تستظل بها ارواح حرس الصخور التي كانت تُعتبر مقدسة ، وعلى الكهوف التي تأوي الاشباح ، وعلى الينابيع ، وعلى الاشجار القديمة الملتوية الكثيرة العقد والنتوءات والتحدّبات . إن أعمال العبادة هذه هي الشهادة لإيمان ثابت بالارواح المحلية ، ويتضح تمامًا أنّ هذا الايمان مستمر ودائم منذ ما لا يقل عن اربعة آلاف سنة . كان ينبغي استعطاف الأرواح المحلية قبل الحراثة ، اوقبل جني الاثمار ، اوقبل قضاء ليلة في المنطقة التي تحرسها هذه الأرواح . فإن أُزعجت اوأُغضبت ، فلا بد من أن يحدث لك المصاب ويأتيك البلاء ، لأنك بهذا الازعاج اوالمضايقة اوالإغضاب ، تكون قد خاطرت بالتعرّض للعقاب المباشر ، كالعقم اوالعمى اوالجنون اوحتى الموت .

ونحن نعرف 52 اسمًا من اسماء هذه الآلهة المحلية . ولقد تعرّفنا بها بشكل واسع من النقوش والكتابات المحفورة ، أوالوقف الذي اوقف لهم ، اوالتكريسات التي كُرّست لهم في عهد الفينيقيين والرومان . ومعظم تلك الآلهة تحمل اسماء أمازيغية تُظهر انها كانت أرواحًا قادرة على ان تأتي بالامطار وتمنح الاخصاب ؛ ولكنّ نفوذ كل من هذه الآلهة مقتصر على منطقته الصغيرة الخاصة به . فمثلاً نفوذ هذا الإله اوذاك ، يقتصر على تلته الخاصة ، اوينبوعه الخاص ، اوحتى قريته الخاصة . كانت هذه الديانة هي الديانة النموذجية العملية للأمازيغيين القدماء ، وهي شكل من أشكال مذهب حيوية المادة (animisme) اوصيغة من صيغها ، تتشابه الى حد بعيد مع مذاهب حيوية المادة الاخرى التي وُجدت في اجزاء كثيرة من العالم .

كان على المسافر الذي ينتقل من مكان الى آخر ، وعلى التاجر اوالموسيقي اوالجندي ، أن يرضي اي روح يراقب أيّ موضع يؤمّه هؤلاء الرجال . فعلى المسافرين ، وبالاخص اولئك الجنود الأمازيغيين المسجلين في الجيش الروماني ، أن يعتنوا بطائفة من الآلهة المحلية بشكل جماعي ،

واسم هـذه الآلهـة دَايْ مُووري (Dei Mauri) أي الآلهة الموريين ، وبعد ذلك يجب أن يتوسل اليها ويبجّلها مجتمعة ، لأنه بَذلك يضمن لنفسه انه لم ينسَ أيًا منها . إنّ احدى اكثر التكريسات التعبدية المعروفة والمتكررة ، هي للإلاهة وَارسيْسْم أوفارْسيسْما (Varsissma) ، واسم هـذه الإلاهـة يـعني فـي الحقيـقة « إله بلا اسم» . والظَاهر انهم كانوا يتلهفون كثيراً في استرضاء هذا الإله ، وجعله مسروراً ، تمامًا كما كان تلهّف اهل اثينا لعبادة مثل هذا الإله في أيام الرسول بولس[2] .

ومن الصعب أن نعرف تمامًا كيف كان يجري استرضاء هذه الآلهة المعبودة . ولكنّ رسوم الكهوف في العصر الحجري الحديث ، تشير الى أنّهم كانوا يسترضونها بذبائح الكباش والثيران التي يقدمونها كفدية عنهم . ولكن ، من المستحيل أن نعلم ما اذا كانت هذه الاضاحي اوالذبائح تقدّم لآلهة معيّنة لا نعلم شيئًا عن أوصافها . ولا يزال تقديم القرابين والذبائح الحيوانية موجوداً بين الأمازيغيين ، وهذه الذبائح تختلف عن تلك التي يقدمها العرب في الشرق الأوسط ، مع أنّها تتشابه كثيراً مع قرابين الفينيقيين وأضاحيهم .

هذا ما كان يختص بالاحياء ، ولكنّ الأمازيغيين لم يكن اهتمامهم بموتاهم يقلّ عن اهتمامهم بأحيائهم . كانوا يشيّدون القبور من قطع الصخور ، جاعلين هذه القبور تواجه الشمس . وكانوا يزوّدون موتاهم بالمجوهرات والاوعية الخزفية ، كما لوكان موتاهم سيحتاجون الى استعمال هذه الاشياء في الحياة الآخرة . أمّا القبور الأخرى ، فقد كانت تُطمر وواجهاتها الى الجرف ، وتُزيّن بالرسوم الملونة بصلصال أحمر . وتعود بداية تاريخ هذه القبور الى العصور الحجرية ، وقد استمرت حتى عهد الفينيقيين .

ويظهر أنّ الديانة العملية للأمازيغيين لا تختلف إلاّ قليلاً عن ديانة المتحدرين من أصلهم الذين يقطنون القرى في أيامنا . فمن ذلك الوقت ، وإلى اليوم ايضًا ، هناك اعتقاد قوي وفي كل مكان ، بوجود قوى فوق طبيعية حاقدة ، ولا تزال الرغبة مستمرة في إيجاد الحماية والوقاية من هذه القوى . ولم يجد الكثير من معتقدات الأفارقة الشماليين وعاداتهم مكانًا لها في الديانة المسيحية الصحيحة أوفي الاسلام . امّا بقايا هذه المعتقدات التي ما زالت موجودة ، فهي قائمة منذ العصور القديمة .

ويتضمّن استعمال « السحر الأسود » الكثير من الممارسات ، وهي ترتكز على افتراض أنّ الانسان قادر على كسب النفوذ على غيره ، سواء أكان ذلك على الانسان ، أم على الحيوان ، أم الاشياء ، وذلك بصنع نموذج للضحيّة التي يُراد انجاز طقس ما اوأي من الشعائر ضدها . وبهذا تُلزم الضحية على أن تتصرف بطرق خاصة معيّنة حسب ما تخطط لها ، أوتكابد قدراً اوقضاء معيّنًا . فمثلاً يمكن للمرء أن يربط عقدة في شريط او في خصلة شعر لربط مخططات الخصم وإحباطها ، أولإغلاق رحم امرأة عدوة . كما يمكن أن يؤدي إقفال نصل سكين الجيب الى عجز جنسي عند الشخص الذي يُكتب اسمه على هذا النصل .

كذلك كان الاعتقاد أنّه بالامكان التأثير في مسار الاحداث في العالم الخارجي وذلك من خلال ممارسة طقس محدّد ، كأن يُصار الى ارتداء الثياب بالمقلوب بقصد تغيير ظرف معيّن . إنّ شعائر الإخصاب الموسمي تضمن انتاجية مبدعة من المحاصيل والحصاد والقطعان . لقد تميّزت السنة الزراعية بإحياء احتفالات يُحرث فيها الشقّ الاول وتُجمع الحزمة الأولى من المحصول . كتب اغسطينوس وغيره من المؤرخين المعاصرين عن إحياء طقوس جنسية عربيدة متطرّفة ، « ليالي الخطايا » ، لحثّ آلهة أوأرواح الإخصاب ، آملين منها أن تنفح نشاطًا مشابهًا بين القطعان والمواشي .

ظهرت العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الامطار تقريبًا في كل الأراضي شبه القاحلة بما في ذلك شمال افريقيا ، حيث يقوم النسوة بصنع دمى تمثّل « عروس المطر » ، تمامًا كما يفعل بعض الناس في بعض مناطق اليوم . وثم تُحمل هذه الدمى في موكب طقسي مصحوب بأغانيّ ودعاءات والتماسات مرفوعة الى السماء[3] . ومن عادات أهالي جزر الخالدات أن يضربوا مياه المحيط بالعصي ، وذلك محاولة منهم لإطلاق مياه السماء . وقد دان اغسطينوس هذه الممارسة الوثنية القديمة ، كما وبّخ اولئك الذين يستحمّون وهم عراة في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي ، مؤججين بذلك شهوات مشاهديهم . وقد يبدوأنّ مثل هذه العادات قد ماتت ، إلاّ أنّ الأرضيات وعتبات الأبواب ما زالت تُرشّ بالماء في مواسم معيّنة ، وغالبًا ما لا تُرش اكثر من رشة رمزية ، إذ يبقى معظم الغبار غير ممسوس . هل المراد من هذه الرشة ان تبرّد الارض وتنعشها ، اوهل لهذه العملية دلائل اكثر عمقًا ؟

اعتقد الكثيرون ، منذ زمن الرومان الى يومنا هذا ، أنّ اقدارهم مسجّلة في النجوم . فهم يرجعون الى المنجّمين والعرّافين ليقرأوا لهم مستقبلهم في السماوات ، اوفي احشاء الحيوانات ، اوفي علبة ورق اللعب . فهم يريدون أن يعرفوا ، ويريدون أن يسألوا أيامًا ميمونة لأعراسهم اولرحلاتهم . كما يريدون أن يعرفوا هل بإمكانهم التعامل مع أناس معيّنين اوتجنبهم ، اوهل بإمكانهم الذهاب الى أمكنة معيّنة أم لا . إنهم يتساءلون ، وفي قلوبهم أمل لا يستند الى أي منطق ، عما اذا كان بإمكانهم الهروب من اقدارهم المحتومة اذا كانت سيئة ، أوانجاز عمل ما ، اذا كانت هذه الاقدار حسنة . فالخوف من « العين الشريرة » - اللعنة التي يطلقها عدوحسود - تعود الى ما قبل العهد الروماني . والشيء عينه ، ينطبق على الاعتقاد أن الافراد ، اوحتى الاشياء التي لا حياة فيها ، يمكن أن تكون مستودعات للقوى الروحية أو «للبركة» . لقد استُعملت المياسم الحديدية الملتهبة ، كما اليوم ، لشفاء اوجاع الرأس ، ولمعالجة سوء التصرّف كالإدمان على السكر والسرقة مثلاً .

وقد كان للرقم خمسة ، ولرمز العين المفتوحة ، وللرمّانة المرسومة ، معان معيّنة ومغزى سحري ، ونحن لا نزال الى اليوم نلمسها ونراها في افريقيا الشمالية . هذه المعتّقدات والرموز كلها كانت تتزامل مع الإلاهة الفينيقية تَانيْت ، التي تترافق بدورها مع القصد من وراء رسم اليد المفتوحة التي نشاهدها ، بشكل كثيف ، علَى الابواب الخلفية للشاحنات . وهي تُرسم ايضًا على

عضادتي الباب (جانبي الباب) ، كما تُصنع ببراعة من المجوهرات ، وهي تُعرف عمومًا باسم «يد فاطمة الزهراء » (ابنة محمد) أو« الخميسة » . ورمز اليد المفتوحة غالبًا ما يُعتقد أنه مستورد من العرب ، والحقيقة أنها أقدم من ذلك بكثير ، إذ وُجدت أيضًا في البقايا الفينيقية في قرطاجة ، وفي أماكن أخرى [4] . كانت الضرائح والمواضع المقدسة في أزمنة الرومان تُبيّض بالكلس ، وما زلنا حتى هذا اليوم نرى قبور رجالات المسلمين ، من أولياء وأئمّة ، وهي مطلية بالكلس المطفأ ، وكذلك على الصخور المفردة والمعزولة ، والاشجار ، وعلى عضادات الابواب وأُطُر الشبابيك والبيوت . إن هذا التجصيص لايعدوكونه بعض اللطخات على الجدران الخارجية للبيت . فهل المقصود أن يكون التجصيص لغرض التزيين فقط ، اوان لهذا العمل معنى آخر اوغرضًا آخر ؟ ان الذين يمارسون مثل هذه العادات في أيامنا ، غالبًا ما يجهلون أية معاني كانت لها في الأصل .

لا يزال الناس ، وبخاصة النساء ، يلبسون التعاويذ ، كالعظام والصَدَف الأصفر ، حيث يعتقدون أنّ مثل هذه التعاويذ تمنحهم الأمانة والضمانة ضد العفاريت او الجن والعيون الشريرة ، وتبعد عنهم الحظ السّيء . لقد كتبت الرقيّات السحرية على الأوراق وعلى العظام ، وفي عدّة أحيان كانوا يغسلون الحبر الذي استُعمل في كتابة الرقية والتعويذة ويشربون الماء الممزوج بالحبر . وكذلك ، ففي احيان اخرى كانوا يدفنون الورقة اويحرقونها في المكان الذي يتأكدون فيه من أنّ الضحية المقصودة ستستنشق دخان هذه الاوراق المحروقة . وغالبًا ما يصنعون أكياسًا صغيرة من الجلد فيضعون فيها التعاويذ والحجاب اوأيّ شيء صغير فيه قوّة سحرية ، ثم يعلّقون هذه الأكياس في رقابهم ، اومشكولة في صدورهم اوأيّ مكان آخر في اجسامهم . ثم راحوا لاحقًا يستعملون الآيات القرآنية ويكتبونها على تعاويذهم ، اويصفّون رموزًا وكتابات عربية منظّمة بعيّنات واشكال سحرية ،كما أنها ما زالت تُكتب بالحروف التيفيناغية (tifinagh) القديمة ، بصيغتها المحرّفة تمامًا ، مما يوحي لنا بأنّ اصل هذه الكتابات والتعاويذ يعود الى ما قبل التاريخ الإسلامي[5] . وكان للنباتات الطبية آنذاك شعبية واسعة ، لم تضعف حتى في ايامنا هذه . إنّه ليس من السهل اطلاقًا ، في بعض الاحيان ، أن نرسم خطًا فاصلاً اومتميزًا بين العلاجات الشعبية وممارسات السحر الأسود في استعمال الاعشاب والمواد المعدنية والحيوانية[6] .

هذه هي معتقدات الأمازيغيين القدماء والتي تتجذّر في الماضي حسب ما نعلم ، وصولاً ربما الى العصر الحجري . وهي من بعض جوانبها مستمرة حتى وقتنا الحاضر . الى ذلك ، فإنّ بعض الممارسات الأخرى قد فرضت نفسها خلال القرون التالية . لقد جلب الفينيقيون معهم ، منذ العام 1000 قبل الميلاد والى ما بعده ، بضائعهم التجارية ومحاصيلهم ، ومجموعة من الآلهة الجديدة الى افريقيا الشمالية . وقد تبنّى اهالي افريقيا شكل ديانتهم ، الى جانب التقاليد والاعراف المتعلقة بمذهب حيوية المادة . فتمّ نقش الاصنام والصور والايقونات الخاصة بآلهة الفينيقيين بنحت نافر خفيف على سطوح الصخور ، اونُصبت على أعلى الصخور لعبادتها . وقد ترافق مع هذه الاصنام والايقونات المحفورة في بعض الاحيان ، كلام منقوش بالحروف التيفيناغية ، لكنّ النماذج المتأخّرة استعملت الابجدية الفينيقية واللاتينية . كان

لبعض هذه الاصنام اشكال بشعة . ونحن نجد ان ترتوليانوس يؤنّب معاصريه في القرن الثاني بعد الميلاد بسبب عبادتهم التافهة العقيمة للخشب والحجر . وفي القرن الرابع للميلاد ، بقي شعب تيْباسَا (Tipasa) يتعبد بحماسة شديدة للحية البرونزية العظيمة ذات الرأس المطلي بالذهب .

امّا بَعْلْ آمُونْ ، فهوإله الشمس ورئيس الآلهة عند الفينيقيين . كان إلهًا هامًا في مناطق البحر الأبيض المتوسط كلّها ، وبخاصة المدن . وبالرغم من الطقوس القاسية والفظّة لعبادة هذا الإله السامي ، قَبل الأمازيغيون عبادته بسرور وعن طيب خاطر . ويبدوأن عبادة رئيس الآلهة هذا قد مسّت وترًا حَساسًا في قلوب الأمازيغيين ، إذ توافقت مع شعور كان عندهم بوجود مثل هذا الكائن العظيم الذي يقف على رأس كل الآلهة المحلية والأرواح الأخرى . كما يظهر أنه قد تكوَّن عند الأمازيغيين مَيْلٌ الى الاعتقاد بوجود إله سامٍ يتصدّر كل الآلهة في الوقت نفسه الذي كانوا يتفاعلون فيه مع قوى أقل منه شأنًا وفي متناولهم . وقد اكتشف علماء الآثار أوقافًا كثيرة كُرِّست للبعل ، وفي ما بعد ، لنظيره الروماني ساتورن (زُحَل) ، والتي تعود الى ما قبل دخول المسيحية الى شمال افريقيا 7 .

وفي ما بعد ، وجد اليهود والمسيحيون أنّ الأمازيغيين يتجاوبون بشكل خاص مع إيمانهم بالإله الواحد ، كما أن هذا الأمر يصحّ أيضًا على المسلمين لاحقًا . ولربما كان اليهود ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد وما بعده ، اول من قدّم فكرة وجود الإله الواحد الكلّي القدرة ، ولكن يبدوأنّ اليهود لم يضيفوا بذلك سوى أبعاد جديدة الى مفهوم كان موجودًا ، ولكن بشكل مبهم8 . وفي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد ؛ أشار بعض شيوخ الاسلام ، الى وجود الإله الأوحد باسم «ياكُوشْ » أو« يُوشْ »9 . فهل لا يزال هذا الاسم حيًا بين ذوي الأصل الأمازيغي منذ ماضيهم الغابر ؟ اوانه لم يُعرف عندهم الا حديثًا ؟ نحن لا نتمكن من الاجابة عن هذا السؤال ولكن يبقى من الحقائق المحيّرة وجود آثار تدل على الإيمان بالإله الواحد ، ليس هنا فقط ، بل في أماكن معزولة في جميع أنحاء المعمورة ، وعند شعوب وأجناس لم يكن لها احتكاك بأية حضارة ، ويظهر أن هذا اعتقاد عفوي بوجود إله سامٍ قصي غَطّت معالمه الممارسات الطقسية وعبادة الأرواح المحليّة وأرواح الأسلاف .

فهل يمكن القول إنّ هذا الإدراك للّه الأسمى ، الكوني والشامل هوعلامة من علامات الأصل المشترك الأوحد للبشرية جمعاء ، ومشابهة الأقدمين في صفاتهم ، والذاكرة المنتقلة من جيل الى جيل والتي ترجع الى أقدم أسلافنا ، الى نوح وحتى الى آدم قبله ؟ فبعض الأساتذة العلماء يلمّح بجدية الى ان هذا هوواقع الانسان10 . أوهل يتجدّد ببساطة ، عند كل جيل ، الشعور بأن الطبيعة بجمالها وبتعقيداتها المذهلة ، لا بد من ان تكون قد صُممت بعقل جبار عظيم؟ ناهيك بالانسان بحد ذاته - فهناك الكثير الكثير من الامور المدهشة حقًا فيه - النظر ، السمع ، التفكير ، الكلام - اليست هذه كلها أموراً مدهشة محيّرة ؟ اوهل يمكن القول إنّ البشرية انبثقت من طريق الصدفة ، وجاءت من اللاشيء ؟ ولكن الحقيقة الواضحة هي انه لا يمكن أن

يخلُقَ الانسانَ الاّ كائنٌ اعظم منه وأكبر ؛ كما أن الكائن العظيم الذي هوأطهر من بني البشر ، وحده يقدر أن يُلهمهم بهذه الأشواق المجيدة المقدسة التي يختبرونها في أفضل لحظات حياتهم وأحسنها .

وبالطبع فاذا ما وعى الامازيغيون هذه الامور ، سيجدون في هذه الحال ، أنّ عبادة بعل آمون لا يمكن ان تكون الاّ عبادة مخيّبة للآمال وفاشلة ، اذا ما قورنت بجمال العالم الطبيعي ، وبنبل أقدس المُثُل الإنسانية . إنّ عبادة البعل ورفيقته تانيت هي عبادة موسومة بقساوة ممرضة ووحشية تقزز النفس . كتب جيمس فرايزر (James Frazer) في كتابه «الغصن الذهبي» (Le Rameau d'or) ، وهويصف التضحيات البشرية في معبد تانيت بتفصيل مؤلم بغيض ، حيث ذكر عن الاولاد الصغار كيف كانوا يوضعون على يدي الصنم المنحدرتين ، فينزلق الاولاد المساكين من هناك ليسقطوا على فرن ساخن ملتهب . وفي هذه الاثناء « يرقص الناس على أنغام الموسيقي والنفخ على المزمار ، وهم يقرعون على الدفوف الصغيرة ، ليحجبوا صرخات الضحايا المحترقة وعويلهم » . وكانوا يمنعون الابوين من إظهار الحزن والأسى خلال عملية التضحية بهؤلاء الاطفال . وقد وجد علماء الآثار بقايا هؤلاء الاطفال المتفحمة في قرطاجة ، وهي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد ؛ وتتراوح اعمار هؤلاء الاطفال بين حديثي الولادة الى 3 سنوات ، فضلاً عن انهم وجدوا براهين اخرى تثبت هذه العبادة البشعة . وقد ظهر انه بحلول القرن الثالث قبل الميلاد ، استُبدل كبش أوثور بالأطفال ، وكان يتمّ ذلك ، على الاقل ، بالنسبة الى العائلات الغنية الموسرة .

اندثرت عبادة الآلهة الفينيقية وماتت ، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك منطبقًا على ممارسات مذهب حيوية المادة التي سبقت هذه العبادات زمنيًا . ويشهد ما تبقّى من هذه المعتقدات القديمة والخزعبلات ، على الأهمية والمعنى العميقين اللذين حملتهما ممارسة مذهب حيوية المادة هذه الى تلك الارض . وقد تلاقت ممارسات هذا المذهب مع حاجات عميقة عند مشاعر الانسان في تلك البقعة من العالم . كما كانت محاولة ذكية من أناس مرهفي الاحساس ليسيطروا على عالم معقّد ومخيف .

في القرن الاول للميلاد ، كان هناك عدد وافر من الأمازيغيين يعيشون في المدن الساحلية المتنامية للبحر الابيض المتوسط . فتزاوجت عائلات أمازيغية كثيرة مع المسؤولين والاداريين الحكوميين الرومانيين والتجار ، كما كانت لهم معاملات يومية معهم في اعمال السوق وعلى المرافىء . كذلك استمعوا الى الانباء والاخبار المتداولة بين الناس ، واقتنعوا بمعظم الافكار الحديثة التي انتشرت في الامبراطورية . كما أن ابناءهم الطموحين تعلموا اللغة وحوافز الثقافة والحضارة الرومانية واليونانية . وقد ناقشوا مع المعلمين المثقفين ، الافكار الفلسفية العميقة لليونانيين ، وتأملوا الشروح والتفسيرات الرياضية للألغاز التي كانت حتى ذلك الوقت غير مفهومة . لقد دخل الأمازيغيون الى العالم الأوسع لبلدان البحر الابيض المتوسط ، وبحثوا بحوثًا فكرية عقلانية كانت معروفة سابقًا ، وبدأوا هم أنفسهم في البحث والتنقيب في

المفاهيم الاكثر عمقًا لمعرفة ما هومتراكم من علوم ومعارف حتى ذلك الحين . فماذا كانت يا تُرى الافكار التي بحثوها بعضهم مع بعض ، وفي مدارسهم الادبية وفي فناءاتهم وساحات دورهم المظلّلة لداراتهم المصقولة بالقرميد الاحمر ؟

لم يكن الناس الذين يعيشون في السهول والتلال ، والذين يدينون بمذهب حيوية المادة ، هم الوحيدون الذين كانوا يرون انه لا بدّ من وجود إله أسمى يزداد شموخًا وسموًا عن تلك الآلهة ذات القوة الادنى ، إذ إنه كان هناك في الوقت نفسه مثقّفون رومان قد توصّلوا الى مثل هذا الاتجاه ايضًا . كما كانت هناك في الواقع رغبة ملحة ، خلال العصور الأخيرة للوثنية الرومانية واليونانية ، في التواصل مع الإله الواحد الموجود قبل كل الاشياء والمخلوقات . هذا ، وقد أصبحت الآلهة الاسطورية الخرافية القديمة تُهمَل باطّراد . وعلى الرغم من ذلك ، فإنّ المجتمع الانساني كان وما زال لديه احترام لما هو فوق الطبيعة . فالفلاسفة تمكّنوا في الواقع من ممارسة نفوذ على الناس يفوق نفوذ كهنة روما الوثنية . ويعود الفضل لهم في إيقاظ الرغبة والاشتياق الى المناقبية والكمال الاخلاقي ، وهم الذين ألمحوا الى وجود «المحرِّك الاول » و « العلة الاولى لكل الاشياء » . لقد آمن الناس ان هناك إلهًا في مكان ما أوفي الأعالي وهوإله غير منظور ، والذي لا بد من ان يكون هومن خلق العالم . ولم تكن مشكلة هؤلاء الناس الا معرفة طريقة الاتصال بهذا الإله .

في هذه الاثناء كان سكان المدن الذين كانوا ما زالوا يعبدون الآلهة القديمة على مضض ، يقرّبون التقدمات للإله زحل (Saturne) اولأحد الآلهة الاخرى ، كعطارد (Mercure) ، إله الفصاحة والمهارة ، والمريخ (Mars) وهوإله الحرب ، والزهرة (Vénus) وهي إلاهة الحب والجمال ، ونبتون (Neptune) وهوإله البحر ، وهلمّ جرا . وهناك آخرون عبدوا آلهة «الديانات السرية » . وقد سُمّيت بالديانات السرية لأن شعائرها لم تُكشف إلاّ لأعضائها . وقد تضمّنت هذه العبادات والمذاهب آلهة غريبة ، نصف بشرية ونصف حيوانية ، فضلاً عن قصص اسطورية خرافية عن أعمال هذه الآلهة كانت تترافق مع هذه العبادات ، ولربما كانت عبادة الإله مثْرا (Mithra) هي الاكثر شعبية ، حيث كان اتباعها المتعبّدون يستحمون بالدم الذي يهب الحياة ، مَن ثور يُذبح بأسلوب شعائري . وكان موت احد الآلهة وقيامته امرًا شائعًا بين معظم هذه العبادات والمذاهب ، وأحيانًا تكون هذه الآلهة ازواجًا : ذكرًا وأنثى ، يموت الاول ويساعده الآخر في عملية قيامته . ويتزامن الموت والحياة عادة مع الاعتداليين الخريفي والربيعي ، ويرمز ذلك الى موت السنة الفائتة وولادة السنة الجديدة . ويحاول المتعبّدون ، من طريق الاحتفال بالعيد والمسكرات وطقوسهم الجنسية ، أن يؤكدوا خلودهم الخاص وخصوبة ارضهم وانتاجهم الزراعي . إلاّ أن الكثيرين لم يكونوا مقتنعين بكل هذا . وبدأوا يشعرون بأنّ هذه الفظاظة والخشونة لم تكن متوافقة مع ظواهر العجائب المهيبة والجليلة التي يشعرون بوجودها في الطبيعة المليئة بالقداسة وفي الكون بأسره ، كما رأوا أنّ قصص الآلهة تحمل علاقات صغيرة تافهة عند مقارنتها

بقوى الخير والشر التي تبيّنوها في قلب الانسان والعالم من حولهم ، حيث أنّ تصرفات الآلهة لم تكن أقل قسوة وظلمًا وإباحية من قسوة الذين يعبدونها وظلمهم وفسادهم .

إن أكثر ما أربك الناس في العصر الروماني هوأنّ الفناء يحيق بكل شيء ، وقد تملّك الناس شوق غامر الى الحياة الابدية والخلود . وظهر لهم آنذاك أنّ جميع الاشياء من حولهم محكومة بحتمية الاضمحلال والانقراض . لم تكن الاشياء الجميلة تدوم مطوّلاً ، فالدمار كان قدرًا لا مناص منه لجميع البشر . كما كان هناك اشتياق عظيم في قلب كل رجل وامرأة الى الانتصار على العدوالقديم ، الموت . وكان الجميع يتوقون الى حياة تستمر ما بعد القبر ، والى حفظ كل ما هونبيل وصادق . ولم يستطع الفلاسفة كأفلاطون وغيره أن يعطوا سوى جواب غامض للأسئلة التي كانت تقض مضجع الناس . فقد اعطت الديانات السرية املاً اكبر ، لكنها كانت متنوعة وكثيرة العدد . ومن الواضح أنّ هذه التعددية تُظهر للعقلاء والاذكياء ، أنّ الديانات ما زالت تتحرك في غسق من التخيلات الاسطورية الخرافية ، ولا تسير اوتتحرك في نور النهار الواسع المتوكيء على الحقائق الوطيدة . كانت قلوب الناس جائعة ، وهي تصرخ مستغيثة تطلب رسالةً لأمل متجدد وأكيد . لذلك ، فعندما وصلت هذه الرسالة ، التي تعطي الامل والرجاء ، اوصلت الى الناس انفراجًا عظيمًا واطمئنانًا كبيرًا ، ولا سيما لأولئك الرجال والنساء المخلصين ذوي التفكير العميق ، سواء أفي مدارس المدن ودورها أوفي القرى الريفية المسكونة بالأرواح [11] .

ها قد وصل بعض المسافرين وهم يجوبون الشوارع والطرقات والاسواق يتحدثون بثقة شهود العيان ، أوثقة أناس كانوا قد تقابلوا حديثًا مع شهود عيان واستفهموا منهم . لم يكونوا يتحدثون عن نظريات غامضة مبهمة أوعن آلهة اسطورية خرافية ، بل عن حقائق ثابتة . كانوا يتكلمون عن احداث وقعت حديثًا ، وفي مواقع وأمكنة مميزة معروفة ، وفي اوقات محددة يعرفها الكثير من الناس . لقد جاء هؤلاء بأخبار عن فيلسوف عظيم جديد برهنت حكمته العجيبة ومبادئه الأخلاقية الرفيعة على قوّته المدهشة في تطهير الضعفاء والأشرار عن تفوّقه على كل معلّمي العصور القديمة . وكان يتحدّث عن الإله الواحد الحقيقي ، خالق كل شيء ، وكأنه يعرفه معرفة شخصية . وقضى أيّامه في وسط الزحمة الصاخبة والمزعجة لأناس كثيري الطلب . وقدّم العون والراحة بكل لطف وحنان لكل من جاء إليه . وقد جعلتهم شخصيته وحياته ينظرون إليه كفيلسوف كامل . وتحمل حسد الأشرار ومكرهم بكل صبر . وبعد ذلك أدهشهم إذ أنجز أمام أعينهم القصة القديمة التي تحكي عن الإله الذي مات وقام ، تلك القصة التي لم تعد الآن مجرد حكاية خرافية ، بل حقيقة معترف بها . وإذ حقد الناس عليه جورًا ، وحُكم عليه بالموت على يد القادة اليهود ، قام هذا الرجل البار الصالح من القبر . لقد أنجز في الواقع كل ما كان الآباء يتصوّرونه في مخيلتهم . كما كانوا متيقنين بأن التضحية بحياته البريئة لم تكن مجرد حركة تقوى لا جدوى منها ، إذ بموته حمل في جسده الحكم الإلهي على خطية العالم ، وحرر سكانه من عقوبة الموت وجهنم التي كانت تتهدّدهم . وبعد ذلك سبقهم إلى مملكة السماء حيث الحياة الأبدية . وكان

اسم هذا الشخص الفريد الجليل : «الرب يسوع المسيح» . لقد كانوا يدعون سامعيهم قائلين : «آمنوا به تتغيروا جذريًا وتجدوا حكمته العجيبة ونقاوته الروحية في قلوبكم ، وستشتركون في نصرته على الموت وتدخلون خلوده الأمجد .

كان لهذه الأحداث الهامة صدى عميق في إيقاظ الاهتمام الواسع لسكان المدن الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط وساحل افريقيا الشمالية . ولكن ، ماذا عن اولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية ، والذين لا يعرفون شيئًا عن هذا البحث الفلسفي المتعلق بالخلود وبالحياة الأبدية ، ولا عن المُثُل الاخلاقية للمفكرين الإغريق ، اولئك الناس البسطاء الذين ظلّوا تحت عبودية الارواح التي كانت تحتل الصخور والينابيع الموجودة حولهم ؟ فماذا تعني أخبار الانجيل لمثل هؤلاء الذين يعيشون في القرى والأرياف ؟

إنّ الرسالة التي حملها إليهم المسيحيون الاوائل ، كانت حسب اعتقادنا ، الأكثر تأثيراً وتشويقًا . لقد اعلن الزوار الذين جاءوا الى المنطقة انهم قابلوا المنقذ الكامل القدرة ، الذي ارسله الله الواحد السامي ، صانع الارض والسماوات وكل الاشياء التي تُرى والتي لا ترى . وقد بيّن هذا الشخص السماوي قدرته الكاملة التي تتحكّم في الرياح العاتية والأمواج الصاخبة ، والأمراض والأسقام والموت . لقد كانت تفرّ من أمامه أكثر الأرواح النجسة جنونًا ، كما كانت سلطته على قوى الظلمة مطلقة . كانت تلتف حوله الجماعات وتصرخ فرحةً كلما حرّرها من قيود الجسد والنفس . ولكن بعد ذلك بدا وكأنّ قوى الشيطان قد قامت أمامه وأخذته وضربت جسده وعلّقته على خشبة تحت أشعة الشمس ليموت . فوُضع في قبر يشبه دهليزاً داخل تل صخري ، ودُحرج حجر كبير على المدخل لإغلاقه . إلاّ أنّ القوى الشريرة لم تستطع أن تُسكت هذا الشخص . فبعد ثلاثة أيام ، قام من الموت ، وخرج من الكهف ، ورآه مئات من الناس حيًا قبل صعوده بجلال ملوكي إلى السماء الزرقاء فوق مدينتهم .

ماذا يعني كل هذا ؟ انه يعني تحرراً مجيداً رائعًا من عبودية قوى الظلام ، ويعني ايضًا ان السلام أصبح الآن متوافراً للتوّاقين اليه . ففي حياته ، حرر المسيح الناس من الامراض والخوف وتأثير الأرواح الشريرة ؛ وفي موته ، حمل المسيح آلام العالم الفاسد والمنهار ؛ وبقيامته سحق قوى الشر وهزمها الى الابد . والآن ، راح هؤلاء المسافرون الشجعان يصرّحون بأن هذا المنقذ العظيم هوحي ، وروحه النقية القوية لا تسكن الصخور ، اوالكهوف ، ولكنها تسكن فينا نحن المؤمنين به . وأضافوا أنه إذا ما دعوتموه طالبين إنقاذه وخلاصه ، وواضعين ثقتكم الكاملة به ، تستطيعون أن تجدوا ملاذاً أكيداً لكم ، وتضمنوا حماية كاملة في اهتمامه ورعايته المُحبّة لكم جميعًا . وفوق كل هذا وذاك ، لا داعي للخوف في ما بعد من الأرواح الشريرة ، ذلك لأن الروح الأكبر هو صالح صلاحًا كاملاً وقدّوس قداسة كاملة . وكل من يؤمن به ، يجد أمامه حياة جديدة مفعمة بالرجاء والسلام والحرية . كانت هذه هي الرسالة التي جاءوا بها .

ملاحظات

1- اقتبسها Camps p. 200

2- أعمال 23:17

3- Laoust pp. 202 - 255

4- Moscati pp. 179 - 180

5- (Akhmisse pp. 43 - 44)

6- يقدّم لنا Hart, Camps و Coon بحثًا أشمل في الديانات الشعبية الحديثة في إفريقيا الشمالية . كذلك يعالج Camps ايضًا بشيء من التفصيل عدة أوجه من الوثنية القديمة في إفريقيا الشمالية .

أمّا Servier (pp. 465 - 468) فيذكر معتقدات تقليدية مماثلة في أوروبا الجنوبية مؤكدًا بذلك أن نظامًا دينيًا متجانسًا هوالذي كان سائدًا في القديم في بلدان البحر الأبيض المتوسط . راجع ايضًا :

Rachik; Akhmisse; Laoust;

ed. Camps, *Encyclopédie Berbère* (amulettes, animisme, arbres sacrés etc.)

7- Frend pp. 77 - 79 ; Camps p. 215

8- درجت العادة أن يخاطب الأمازيغيون الله اذ يدعونه « رَبِّي » (Rebbi) ، لكن أصل هذه التسمية يبقى غير واضح . وبما أن المسلمين العرب يشيرون عادةً الى الله بالعبارة « الله » ، قد يقود ذلك أحدنا الى الاعتقاد ان التسمية « رَبِّي » تعود الى ما قبل الإسلام . كما أنه من الممكن جدًا أن تكون قد نتجت من تأثير يهودي قديم . بالمقابل ، إن الكلمة العبرانية « رابّي » تفيد معنى « سيّدي » ؛ إلاّ أن الكتاب المقدس يستخدم هذه الكلمة دائمًا بالإشارة الى الناس ، لا الى الله . وعليه ، قد نحتاج أن نبحث عن أصل « رَبِّي » في تلك اللغة السامية الأخرى البونية (Punique) ، أوالى عوامل لغوية سامية أقدم ، أثرت في تطوير اللغة الأمازيغية نفسها . وهكذا فإن التسمية « ربّ » بمعنى سيّد ، المستخدمة من وقت الى آخر في القرآن ، قد تعني بالنسبة الى الأمازيغيين أكثر من الكلمة المستحدثة « الله » ، الأمر الذي دفعهم الى تسمية الله بشكل عام « رَبِّي » .

9- Norris p. 6 . « يقترح G. Marcy أن « ياكوش » قد يكون مشتقًا من اسم يسوع . » (*Encyclopédie Berbère* p. 431 f) . لكن هذا الأمر يبدو قليل الاحتمال الى حدّ ما . ومن الممكن ايضًا أن يكون «ياكوش» مشتقًا من فعل في اللغة الأمازيغية بمعنى « يعطي » . وعلى هذا الأساس ، يُعرف الله بأنه « المعطي » . ومن الصيغ الأخرى لهذا الاسم نذكر : « يوش » ، « أيوش » ، أو « أغُّوش » (Aggouch) .

. (Ouahmi Ould Brahim; Aherdan p. 63)

في القرن التاسع عشر ، كان التُوارَك (Touareg) ساكني الصحراء ، يدعون الله «أمَانَايْ» أو «أمَنَاي مَقَارْنْ» ، وأحيانًا «مَسيْ» (Norris p. 228) . إلاّ ان هذه الكلمات كانت مشتقة على الأرجح من جذور لاتينية وعبرانية (مَسِي = المسيّا = المسيح) .

10- Custance, DP. 34; Richardson pp. 50, 51

« وبالعودة الى أقدم الشعوب - البِغْمِيُون في إفريقيا ، أوهنود كاليفورنيا الوسطى - لقد كان عندهم جميعهم إله واحد ، "إله السماء الأسمى " ، كانوا يأتون بتقدماتهم أمامه . » (Schmidt ، اقتبسها Custance p. 21) « كلّما كان من الممكن تعقّب المراحل الأولى للإعتقاد بتعدّد الالهة ، نجد أنه ينتج من ضمّ عدة معتقدات توحيدية بعضها الى بعض . ففي مصر ، حتى أُوزِيرِيس (Osiris) ، وإيزيس (Isis) ، وهُورُس (Horus) ، التي طالما اشتهرت كمجموعة ثلاثية ، كان لها في البداية وجود كوحدات منفصلة في أماكن مختلفة : إيزيس كالإلاهة عذراء ، وهورس كإله موجود بحدّ ذاته . » (Petrie ، اقتبسها Custance p. 10) .

11- Frend pp. 94 - 111 « لا يمكن قهر الأرواح الشريرة إلاّ بواسطة معرفة سرية يحصل عليها الناس من منقذ برهن أنه أقوى من الموت . إن مفتاح الخلود كما هومعروض . . . في المسيحية ، تمسّك به بثبات العديدون من الذين كانوا يشعرون بأن مخاطر شيطانية ، لا سلطة لهم عليها ، كانت تُقلق حياتهم . » (Frend pp. 94 - 95)
إن موضوع عبادة الأوثان في عهد الرومان ، يتناوله كل من : Bainton pp. 71 - 112 ؛

Foakes - Jackson pp. 180 - 197 ; Green pp. 134 - 199 .

الفصل الرابع

الأخبار السارة

كان التجّار القادمون من الشرق ، يمرّون عمومًا على موانىء شمالي افريقيا خلال مراحل أسفارهم البحرية الطويلة ، وهم متوجّهون الى الغرب نزولاً ، بمحاذاة حوض البحر الابيض المتوسط . وغالبًا ما تكون مراكب الشحن محمّلةً بالبضائع التجارية المستوردة من قبرص واورشليم ودمشق والاسكندرية ، فضلاً عن نقل عدد كبير من الركاب المسافرين . وقد حدّثنا سفر اعمال الرسل ، أحد أسفار الكتاب المقدس ، عن ذلك لدى ذكره رحلات بولس الرسول التبشيرية . ولم يكن المسافرون من التجار فحسب ، بل من المسؤولين الرومان الرسميين وإداريهم أيضًا . والسبب في وجود هؤلاء الرسميين في سفن الشحن هوأن المرور عبر هذه المعابر الضيّقة ، من عاصمة الامبراطورية الى مدينة قرطاجة ، لا يستغرق أكثر من ثلاثة ايام .

ويعود تاريخ هذه الطرق التجارية البحرية الى زمن الفينيقيين . وخلال القرنين الاول والثاني للميلاد ، كانت هذه الطرق معروفة وكثيرة الاستعمال . كان ساحل افريقيا الشمالية المأهول بأجناس متعددة من البشر واسعًا ، وكان في مقدور المسافرين ان ينتقلوا بسهولة ويُسر . وهذا ما شجّع مسيحيي فلسطين وجنوب اوروبا على أن يطلبوا الارشاد الإلهي ، وهم متحمسون لإيمانهم الجديد ، ومتحرّقون شوقًا لمشاركته مع هؤلاء الأجناس .

والواقع أنّ عددًا من الأفارقة الشماليين كانوا هم ايضًا قد وجدوا هذا الطريق المبهج السعيد . فبعض الليبيين الذين تهوّدوا ، وكذلك بعض المستوطنين اليهود في ليبيا ، كانوا حاضرين يوم الخمسين في بداية تأسيس الكنيسة المسيحية ، ووقفوا مع الحشد الذي كان يستمع الى بطرس الرسول وهويبشر الناس ببشارة الخلاص للمرة الاولى . ومما لا شك فيه أنّ بعض الأفارقة الشماليين كانوا في عداد الثلاثة الآلاف الذين آمنوا بالمسيح في تلك الأيام [1] .

وحتّى قبل هذا التاريخ ، كنّا نلتقي سمعان الذي قَدِمَ من كوريني ، وهومرفأ بليبيا ، قرب المدينة المعروفة اليوم ببنغازي ، وهوالذي حمل صليبَ المسيح . ومن المرجح انه صار من المؤمنين، إذ إنّ ولديه الكسندرس وروفس أصبحا في ما بعد معروفين بين الأصحاب الذين كتب لهم مرقس الإنجيل [2] .

لقد التقى بعض الكوريين من « مجمع الليبرتينيين » استفانوس ، وذلك بعد صلب المسيح

ببضعة أسابيع ، فكان هذا اللقاء من اللقاءات البارزة ، ذلك لأنهم « لم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به . » [3] وبعد أيام قليلة سمعوا استفانوس يشرح بقوة كتابات العهد القديم ، كما عاينوا استشهاده . هذا مع العلم أنه كان من بينهم شاب يُدعى شاول الطرسوسي . وبعد فترة وجيزة ، نقرأ مرة أخرى ، عن أناس من كوريني وقبرص آمنوا بالمسيح . وهم لم يكتفوا بصيرورتهم مسيحيين مؤمنين ، بل انطلقوا للتبشير بإنجيل المسيح بين الأمم ، لا بين اليهود فقط . كما ذهبوا الى « مدينة انطاكية وتحدثوا هناك مع اليونانيين وبشّروهم بالرب يسوع المسيح .» [4] كانت كوريني مدينة هؤلاء القوم ، مرفأ نشطًا ومزدهرًا ، يلتقي فيه اليهود والفينيقيون والأمازيغيون في بوتقة واحدة ، الى جانب العديد من زوار منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . بما أنّ بواكير المؤمنين الأفارقة كانوا يختلطون مع أناس من خلفيات مختلفة ، فإن هذا ساعدهم كثيرًا ، ولا شك ، في تعاطفهم مع كل من كان يُقيم بيّن ظهرانيهم . وكانوا أول من أوصل رسالة الخلاص الى أممٍ تختلف عن أمّتهم . وقد وُجدت مقابر المسيحيين الاولين في كوريني بين مقابر الجماعات اليهوّدية ؛ وهذه شهادة أكيدة على أن هؤلاء المؤمنين الليبيين ، عادوا الى إفريقيا الشمالية من أورشليم ، حاملين معهم إيمانهم الجديد [5] .

في هذه الأثناء ، كانت رسالة الخلاص في المسيح تنتشر في كل الاتجاهات . وقد ذكر ترتوليانوس ، وهوأحد الكتّاب المسيحيين ، عن اتصالات قديمة كانت بين الأفارقة ومسيحيي روما[6] . وعليه ، فمن المرجح أنّ الأخبار السارة قد سافرت الى كل من الاتجاه الغربي ، من فلسطين والاسكندرية ، والاتجاه الجنوبي ، من ايطاليا ، ولربما وصلت الى كل الموانىء الرئيسية في افريقيا ، والتي تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وذلك في مدة الخمسين سنة بعد موت المسيح وقيامته .

فالليبيون الذين جاءوا بهذه الأخبار السارة عن يوم الخمسين ، لحقت بهم في ما بعد جماعات من المؤمنين ، كانوا قد تخلفوا في اورشليم لبعض الوقت ، مستفيدين من ملازمة الرسل وغيرهم من المسيحيين . « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات . . . وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة . » [7] وبسبب الضيق الذي حصل بُعَيد استشهاد استفانوس ، فقد تشتّتت معظم هؤلاء المؤمنين من رجال ونساء ، وعادوا بالطبع الى وطنهم في افريقيا . وبوصولهم ، وصلت معهم أخبار مذهلة عن اختبارات الايمان المسيحي في اورشليم : فمن إيمان العديد بيسوع المسيح ، الى حادثة إطلاق بطرس الرسول من سجنه بواسطة الملاك ، الى حادثة حنانيا وامرأته سفيرة اللذين لقيا حتفهما بسبب ما صدر عنهما من افتراء ، الى حوادث شفاء المرضى الرائعة على أيدي الرسل ، ثم شهادة استفانوس البطولية ، واهتداء شاول الى المسيحية ، ذاك الذي كان ألدّ اعداء الايمان المسيحي .

وبعد فترة وجيزة ، وصلت أخبار الى الساحل الليبي عن زيارة بطرس لقائد المئة الروماني ، وكيف آمن جميع أهل الأمم الذين كانوا في بيته ، وقبلوا خلاص الرب وعطية الروح

القدس ، تماماً كما أُعطيت لليهود . وقد استمع أهل الأمم ، من رومان وأمازيغيين ، الى هذه الاخبار بشوق واهتمام كبيرين . كما ارتاحوا كثيراً للترحيب الكبير الذي ابداه الرسل وشيوخ الكنيسة في اورشليم بالرجال والنساء امثالهم في كنيسة المسيح .

كانت حيوية وحماسة هؤلاء المؤمنين الاوائل مؤثرة الى أقصى الحدود . فقد ذكر لنا المؤرخ الشهير يُوسَابْيُوس ، الذي من قيصرية - فلسطين (Eusèbe de Césarée) (263-339 م) ، ذكر عن القرن الثاني للميلاد يقول : « التهبت قلوب المؤمنين المسيحيين بكلمة الله المقدسة ، وزاد اشتياقهم ليكونوا اكثر نضجاً وكمالاً في الايمان . وكانت اولى نشاطاتهم في طاعة تعاليم الرب المخلّص ، أنهم باعوا كل ما يملكون ووزّعوا على الفقراء والمساكين . وبعد ذلك تركوا بيوتهم لينفرزوا لأعمال التبشير ، وكان همهم نشر كلمة الخلاص بين اولئك الذين لم تصلهم هذه الكلمة بعد ، وأن يودعوهم ايضاً كتب الإنجيل المقدس . وقد اكتفوا ببساطة بأن أن يرسوا أسس الايمان بين سكّان تلك الدول المتباعدة ؛ من ثمّ قاموا بتعيين رعاة آخرين وأوكلوا اليهم مسؤولية تعزيز الذين قبلوا الإيمان حديثًا . هذا ، وقد مرّوا بالبلدان والشعوب الاخرى سائرين بنعمة الرب وعونه . » [8]

وباستطاعتنا ان نتصوّر اولئك الرجال والنساء الشجعان الذين كانت قلوبهم مملوءة بالأمل والرجاء وهم يطأون بأقدامهم سواحل افريقيا . لقد وقف هؤلاء على الأراضي التي تحاذي أرصفة الساحل ، وراحوا يحدقون إلى مباني المدينة القليلة الارتفاع وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس الصباحية ، ثم تساءلوا حين رأوا الدور الواقعة فوقهم : تُرى ؟ أيّ من هذه البيوت ستثمر فيها الكلمة ويكون لنا فيها أخوة واخوات بالرب ؟ أوأيّ من هذه البيوت سيختاره الرب ليكون بيتًا مباركًا نستظل تحته ونستمتع بالشركة الروحية مع مؤمنين جدد ونصلّي معهم بين جدرانه ؟ ولقد أتى هؤلاء المسافرون المسيحيون الأوائل ، ليس فقط باختباراتهم الشخصية عن حياة الرسل وتعليمهم وعن المسيح يسوع نفسه ، بل أحضروا ايضاً نسخًا نادرة وثمينة لبعض أسفار الكتاب المقدس التي نقلوها بأنفسهم عن النسخ الأصلية التي كانت في أورشليم اومدن أخرى . و بات من المؤكد أنّ هذه المخطوطات التي جاءوا بها ، كان معظمها مكتوبًا باللغة اليونانية ، وهي اللغة المستخدمة لتدوين اولى الكتابات المسيحية في إفريقيا الشمالية . [9]

ولربّما اتّبعوا اسلوب الرسول بولس في توجههم الى المجموعات اليهودية أولاً . فاليهود الذين سكنوا شمالي إفريقيا كانوا يعرفون الله الذي خلق كل شيء ، كما كانوا ينتظرون « المسيّا » الحقيقي الذي وُعدوا به مخلّصًا . وكان أغلب ظنهم أنهم سيجدون بين هذه العائلات اليهودية قلوبًا مستعدة لقبول المسيح المخلّص الذي طال انتظارهم له . وكما علمنا ، فإنّ بعض اليهود آمن بالمسيح في وقت مبكر في شمال إفريقيا . إلا أنّ بعضهم الآخر لم يؤمنوا . وكما حصل لبولس الرسول ، فقد توجهوا عنهم الى الوثنيين ذوي المبادىء الأخلاقية الجوفاء ، وكذلك الى الذين يعبدون الاصنام الخشبية والحجرية . لقد اهتم كُتّاب القرن الأول بالرّدّ على أسئلة اليهود

واعتراضاتهم أكثر من اهتمام المدافعين عن الإيمان (apologistes) في القرنين الثاني والثالث ، عندما كان قد أصبح المهتدون الى المسيحية من الوثنيين أكثر من الذين جاؤوا من أصل يهودي .

لم يكن في نيّة مسيحيّ افريقيا الأوائل أن يتركوا سجلات عن نشاطاتهم ، ولا هم أسّسوا أبنية متميّزة . كما أنه لم يظهر بينهم الى ذلك الحين ، كُتّاب عظماء ، يدوّنون مآثرهم وأعمالهم وإيمانهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نلمس تأثير إيمانهم في الناس الآخرين بشكل فعّال ، كما تدل النتائج من خلال اتساع الجماعات المسيحية ونضجها العظيم ، ولا سيّما بعدما كُشف النقاب عن هذا الأمر بعد مئة سنة [10] . وفي الواقع فإن الشواهد التي بين أيدينا لا تدلّنا سوى على واحدة من الجماعات المسيحية التي كانت متواجدة في القرن الأول ، في إفريقيا ، وذلك غرب مصر ، وبالتحديد في مدينة كوريني . لكن ، بحلول العام 200 ميلادية وصلت تقارير تفيد عن إنشاء كنائس مزدهرة في اجزاء عديدة مما ندعوه اليوم تونس والجزائر [11] .

وكم كان الأمر سيبدورائعًا لوعرفنا تفاصيل أكثر عن المسيحيين الأوائل ، اين وصلت إليهم رسالة الإنجيل لأول مرة ، وكيف بدأوا ينظّمون اجتماعاتهم معًا ، وكيف كانوا يعلّمون ويشجعون بعضهم بعضًا . ولربّما كانوا يجتمعون يومًا فيومًا في بيوتهم ليبحثوا متضمنات هذا الطريق الجديد للحياة ، وليقرأوا كل ما يصلهم من الكتابات النادرة لكلام اللّه ، والتي كانت تلفّ منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط برمّتها . على أنّ وصول أي مسيحي من آسيا الصغرى أومن فلسطين كان يقابَل بالفرح العارم والبهجة . وكانت أخبار وصوله تنتشر من دار الى دار ، ومن عائلة الى اخرى ، وكان المؤمنون يُدعون الى الاجتماع بهذا القادم الجديد من الشرق ، فيسألونه عن مدى استيعابه لهذا الايمان ، واختباراته في الكنائس الموجودة في المناطق الأخرى . وغالبًا ما كان يُسأل : هل التقى بطرس ؟ أوماذا يقول بولس في هذا الأمر ؟ أوماذا يعني يعقوب بذلك ؟ أوهل أنّ يوحنا لا يزال سجينًا في بطمس ؟ ولربما جلب مثل هؤلاء الزوار اجزاء من الكتاب المقدس الذي كان يُقرأ على الإخوة المجتمعين ، أوكانوا يعلّمونهم ترانيم جديدة كانت تُرتّل في اورشليم أوانطاكية أومدن أخرى . وما لا شك فيه أنّ هؤلاء الضيوف كانوا يصغون بكل اهتمام وعطف إلى استفسارات اخوتهم ، ويقدمون لهم بالتالي النصح والإرشاد ولا سيما في الأمور التي تتعلق بالممارسات اليومية لهذا الايمان ، خصوصًا بين ذويهم .

انتشرت اخبار البشارة السارة عبر السهول الساحلية لشمال إفريقيا كانتشار النار في الهشيم ، وبالشكل الذي انتشرت في فلسطين . كان عدد الذين يسمعون الانجيل يزداد أكثر فأكثر ؛ وكانوا يقبلون الكلمة « بابتهاج وبساطة قلب مسبّحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب . »[12] لقد انتقلت رسالة الخلاص من شخص إلى آخر ، ومن جار الى جار . وبالطبع فقد كانت أخباراً

سارة مفادها : إعلان محبة الله للإنسان ، بإثباتات وبراهين مقنعة ، ومن دون التزامات سياسية أوتجارية . لقد جعلَت الناس احراراً . وجلبت لهم في الواقع حرية لم يعرفوها من قبل أبداً : الانعتاق من الأساطير الكاذبة ، والخلاص من الاخلاق المتفسخة المنحلة ، والتحرر من الأرواح المحلية النزوية الدنيئة . ولقد تمكنوا من رفع رؤوسهم عاليًا بشجاعة واعتداد بالنفس وإيمان ، وهم يفخرون بانتمائهم الى عضوية المجموعة الجديدة المتنامية التي تبني كيانها على مفاهيم رائعة من مبادىء المحبة والثقة والنزاهة . « لقد فُتحت الابواب المغلقة ، وانبعث النور مشرقًا في الظلمة . »[13] هذا ما كتبه كُبْرِيَانُوس (Cyprien) الذي كان قد وُلد في بيت وثني في قرطاجة في حدود سنة 200 بعد الميلاد ، ومات بعد مرور نصف قرن . وهوأحد أشهر المسيحيين في كل العصور والأوقات .

تميل تعاليم المسيح الى توحيد الناس على أساس مبادىء المساواة التي لا تعرف المحاباة . فليس هناك من هوأفضل أوأكثر قدراً من الآخر . فالجميع قد خلقوا من اله واحد ، وجميعهم سيُحاسبون على أساس المعايير نفسها . فكل من أصبح على طريق الحياة الأبدية هومحبوب في عيني الرب ، ومُرحّب به في شعبه . ولا بدّ من ان تكون المساواة التي جاءت بها المسيحية قد صدمت الكثير من الرجال والنساء وجذبتهم اليها . فمهما كانت خلفيات المؤمن متواضعة ، ومهما كان محتقراً منبوذًا ، سواء أفي السوق اوالمدرسة ، فله الحق في أن يأخذ مكانه اللائق كابن من أبناء الله في اجتماعات الكنيسة المحلية ، فيقف هناك جنبًا الى جنب مع أغنى الناس وأرفعهم قدراً على هذه الارض . كما يستطيع هذا الانسان ان يتخطى هؤلاء جميعًا ، ويربح تقدير الكنيسة واحترامها بنوعية حياته المقدسة وثبات شهادته في ساعة التجربة ، وهوأمر لا يمكن الحصول عليه في حياة المجتمع . المؤمنون كسيدهم ، لا ينظرون الى المظهر كما يفعل الانسان ، « لأن الانسان ينظر الى العينين ، وأمّا الرب فإنه ينظر الى القلب . »[14] فالمسيحية بحق ، جلبت الشرف والكرامة والثقة في النفس ، الى الكثيرين الذين من دونها ، كانوا سيتخبّطون ، متشوّقين لعيش حياة آمنة في هذا العالم . كان هذا الإيمان الفعّال والجذّاب ، هوالذي اكتسح شمال افريقيا بفرح عظيم .

لقد كان عمل هذه الجماعات المسيحية فعّالاً حتى إن بشارة الانجيل قد عُرفت وقُبلت في كل المدن الساحلية بشمال إفريقيا ، بعد جيلين اوثلاثة تقريبًا من وصولها للمرة الأولى . لقد انتشر عمل التبشير بالانجيل وتوسّع بنشاط وإقدام ، وبفترة لا تزيد على مئة وخمسين عامًا ، أصبحت كنيسة قرطاجة وكنيسة كوريني وكنائس أخرى في شمال إفريقيا ، كأنطاكية وأفسس وفيلبي ذات مكانة مرموقة ، تسير جنبًا الى جنب ، مع اعظم المراكز المسيحية الاولى التي يتحدث عنها سفر اعمال الرسل .

وفي العام 198 بعد الميلاد ،عندما خاطب ترتوليانوس حكّام روما دفاعًا عن المسيحية ، ذكر أن الكنائس المحلية كانت تجتمع بانتظام من اجل العبادة والتعليم . فقد أقرّت هذه الكنائس تعيين قادة لها ، وقدّمت الدعم والمساعدة للأرامل والايتام . وكانت لهم مدافنهم الخاصة ، وأماكن عبادة خاصة كذلك . ولم يكن المسيحيون ، بأي شكل من الأشكال ، مغمورين ، ولا كانوا اقلية تافهة مهملة . قال ترتوليانوس : « بدأنا بالأمس فقط ، ومع ذلك فقد ملأنا كل الأماكن الخاصة بكم : المدن والجزر والقلاع والقرى والأسواق وحتى مخيماتكم العسكرية وكذلك قصر الامبراطور والمجلس الأعلى والساحات العامة . »[15] ولم تمض إلاّ خمس عشرة سنة من هذا الوقت بالذات ، حتى كان نموالكنيسة العمومية قد ازداد أكثر ، الأمر الذي دفع ترتوليانوس الى التصريح بالقول : « نحن جماهير كبيرة ، ونشكل الأكثرية تقريبًا في كل مدينة .»[16]

دخلت البشارة خلال وقت قصير كل طبقات المجتمع ، وشمل تأثيرها كل مجالات الحياة . وقد عُقد مؤتمر في العام 256 ميلادية في قرطاجة ، حضره ممثلون عن خمسين كنيسة محلية من مقاطعة افريقيا البروقنصلية ، هذا فضلاً عن عشرين ممثلاً من مقاطعة نوميديا . ولم تمض سوى خمسين سنة أخرى حتى كبر هذا العدد وازداد كثيراً . وقد بيّنت التقارير ان المسيحيين كانواَ يشكّلون اغلبية السكّان في منطقة إفريقيا البروقنصلية ، ما عدا شبه جزيرة رأس بون بالقرب من تونس المدينة . وكانت المجموعات المسيحية تنموونزدهر كذلك في شمال المغرب بالقرب من طنجة ، وفي أماكن كثيرة على امتداد الساحل الليبي الى الشرق . وهذا النموالهائل والمتسارع ، يشهد على قوة الانجيل وعلى الطاقة الكبيرة التي كان يمتلكها حاملوالرسالة . فالحقول قد ابيضّت للحصاد ، والحصّادون اندفعوا إلى العمل من دون كلل أوملل .[17]

لقد تسلّقت الكرمة المسيحية بسرعة على خيمة الحضارة الرومانية . لقد انطلقت أغصانها واخترقت القبائل داخل إفريقيا الشمالية الأمازيغية . استفادت المسيحية ، ولا شك ، من السلام الذي ساد جميع الأجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية ، وقد عُرفت هذه الوضعية تاريخيًا بالپاكس رومانا (Pax Romana) . كانت تلك الفترة فترة سلام واستقرار سياسي ، ونمو وازدهار اقتصادي ناتج من الحكم الروماني . وكانت منطقة شمال افريقيا في ذلك الوقت مزدهرة . ونادرًا ما كان ينالها أيّ تخريب أوتدمير بسبب الحروب المحلية كتلك التي كانت مشتعلة في جنوبي اوروبا . و قد أصبح الآن بإمكان المسافرين الى جميع المناطق ، أن ينتقلوا بأمان وسلام نسبيين ، وكانوا يجدون الوسائل لدعم حياتهم وإعالة أنفسهم بسهولة ويسر . كان الاهالي المحليون منفتحين جداً على تقبّل الافكار الجديدة ، ولم يكونوا يرزحون تحت طائلة الفقر المدقع ، كما كانوا بعيدين عن الصراعات والمنازعات والحقد ، الأمر الذي وفّر عليهم هموم القلق المستمر وانشغال البال . وعلى الرغم من ان الحكومة الرومانية لم تكن قد وافقت بعدُ على

الدعوة الى المسيحية والتبشير بالانجيل ، إلا أنه كان يمكن لكل إنسان ان يخضع على الأقل ، لمحاكمة عادلة . وكانت تمنع تعرّض المسيحيين للعنف الجماعي والاضطراب الناشئَيْن بسبب دعوتهم هذه .

ولكن ، مع ان هذا السلام الذي كان يسود جميع الاجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية في حدود امبراطوريتها ، قد ساعد كثيراً في نشر تعاليم المسيح ، إلا أن المبشرين لم يتقيّدوا بهذه الحدود بأي شكل ، فانتشروا الى مسافات تبعد كثيراً عن حدود هذه الامبراطورية . فالأبطال من المسيحيين والمسيحيات ، لم يعتمدوا على حماية حكومة الامبراطورية ، بل اتّكلوا على الله الحي ، ولم يكونوا خدام الحضارة بل خدّام المسيح ، كما أنهم لم يكونوا يحملون السلاح ولا البضائع في ترحالهم وتجوالهم ، وإنما حملوا الأخبار السارّة والبشارة المفرحة التي تظهر حب الله للانسان . فتوغّلت عملية التبشير بالانجيل الى بلدان أبعد بكثير من حدود السيطرة الرومانية . وهكذا تحدّث ترتوليانوس بحماسة عن اهتداء عدد كبير من الناس « بين صفوف قبائل الجيتوليين الأمازيغية (Gétules) والمقاطعات الفسيحة الواسعة للموريين ، التي تعذّر على الرومان بلوغها ، ولكنها خضعت للمسيح » [18] . أمّا أطلال الكنائس فقد وُجدت في قرى صغيرة نائية حتى إنها لم تُسجّل في المستندات الرومانية [19] . وقد رُفعت النقوش على قبور الاموات من المزارعين المسيحيين والامراء المسيحيين ، وكتبت الكلمات القصيرة لإحياء ذكراهم وذلك في أماكن بعيدة عن حدود الادارة الرومانية . إنّ محبة الله لا تُقيّد بقيود بشرية ، فهؤلاء المؤمنون الممتلئون من حبه تعالى ، نقلوا هذا الحب الى أقصى المعمورة .

ملاحظات

1- اعمال 10:2

2- مرقس 21:15 ؛ رومية 13:16 . يجب التمييز بين كُوريني بليبيا حاليًا ، التي تسمّى في بعض الكتابات بالقيروان ، وبين القاعدة التي أسّسها المسلمون لاحقًا بالقرب من سُوسَة بتونس .

3- اعمال 9:6 و10

4- اعمال 20:11

5- Neill p. 37 ؛ Latourette Vol. II pp. 97 ff.

6- *De Praescriptione Haereticorum* 36

7- أعمال 42:2 ، 46

8- *Historia Eccles.* III, 37:2 - 3 (*NAPNF* Series 2, Vol. I)

9- Latourette Vol. I p. 92

ليس هناك أي احتمال يقيني حول ما قيل عن سمعان القانوني ، وهوأحد رسل المسيح الاثني عشر ، أنه قام بالتبشير في أماكن مختلفة من شمال إفريقيا .

ولا توجد وثائق تذكر هذه الزيارة إلاّ في القرن التاسع في اسطمبول . بالإضافة الى وثيقة أخرى مجهولة المصدر تُنسب الى ناظر كنيسة في فلسطين في القرن الرابع . إلاّ أن ما يفنّد عدم صحة هذه الرحلة ، هوأن هذه الكتابات أتت من خارج شمال افريقيا ، كما أنه لم يرد ذكرها إلاّ بعد سمعان بعدة قرون .

ولوأنه فعلاً قد بشّر في شمال افريقيا ، يكون من المستحيل ألاّ يأتي على ذكره الكتّاب المسيحيون الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث ، أمثال ترتوليانوس . هذا على اعتبار أنّ هؤلاء الكتّاب كانوا قد ناقشوا مصدر كنائسهم .

(Mc Birnie: The Search for the Twelve Apostles pp. 211 - 213)

10- بعد العصر الرسولي ، كان شهداء سكيليُومْ المذكورين في الفصل التاسع ، أول المسيحيين الأفارقة الذين تمّ تدوين اسمائهم في السجلاّت التاريخية . كذلك تذكر سجلات أخرى ايضًا اسم فيكتور الذي وُلد في افريقيا البروقنصلية وخدم كناظر لكنيسة روما على مدى ثلاث عشرة سنة (185 - 198م) . لقد اشتهر فيكتور هذا بشكل خاص في إصراره على أن يتمّ الاحتفال بذكرى القيامة في يوم أحد كل سنة ، وذلك بمعزل عن التاريخ الذي يصادف فيه وقوع هذا اليوم . وهكذا أصبح هذا الترتيب مألوفًا ومعمولاً به في الكنائس في كل أنحاء العالم . لكننا لا نعلم من أية مدينة كان فيكتور ، ولا كيف أصبح مسيحيًا ، ولا أية علاقات تربطه بكنائس وطنه .

11- كانت كنائس القرن الثاني موجودة في قرطاجة (تونس) ، وفي سيتيفيسْ (سطيف ، الجزائر) ، لامبايسيس (تَازُولْت ، الجزائر) ، مَادَاوْرَا (مداوروش ، الجزائر) ، أُثْـمَا ، تُبُرْبُومَيْنُس وثيسْدْرُوسْ (وجميعها في تونس) ولِبْتِيس مَاغْنَا (ليبيا) . (Cooley p. 29).

12- اعمال 46:2 و47

13- 4 *Ad Donatum*

14- 1 صموئيل 7:16

15- 37 *Apologeticus*

16- 2 *Ad Scapulam*

17- بالإشارة الى يوحنا 35:4

18- 7 *Adversus Judaeos*

19- Camps p. 175

للحصول على المزيد من المعلومات بخوص الكرازة في القرون الأولى ، في إفريقيا الشمالية ، يمكن الرجوع الى المصادر الثانوية التالية :

Neill pp. 37 - 42

Latourette Vol. I pp. 92 - 3, 112 ؛ Cooley pp. 28 - 30 ؛ Frend pp. 94 - 111 .

الجزء الثاني

عصر تَرتُولِيَانُوس

(أواخر القرن الثاني - أوائل القرن الثالث)

الفصل الخامس

أسلوب الحياة الفاضلة

« الكنيسة المسيحية فريدة في نوعها . فهي أقدم من أية منظّمة أو مجموعة منظّمات موجودة الآن على كوكبنا . و لم تتمكّن أية ديانة أخرى من تكوين مؤسسة نظيرها . فالديانة اليهودية التي لها فضل كبير على المسيحية طوّرت جماعة انتشرت كالكنيسة المسيحية ، في كل انحاء العالم . و مع ذلك فبُنيَةُ الديانة اليهودية هي بنيةٌ عنصرية بقدر ما هي دينية . أمّا الديانة المسيحية ، فتختلف عن اليهودية بكونها مزيجًا من أجناس مختلفة لا يربط بينها رابط الدم او العرق . » [1] هذا القول هو للمؤرخ لاتوريت .

لكن ، ما هو إذًا الرباط الذي يوحّد بين هؤلاء الناس المتعددي الاجناس ؟ هل هو خضوعهم لقوانين السلطة الكنسية و احكامها ؟ ام هل هو رباط غير منظور ؟ فما هي حقيقة الكنيسة في الواقع ؟ و هل هي اليوم كما كانت عليه في ما مضى ؟ أو هل حققت شيئًا ما بمرور الزمن ؟ هل خسرت شيئًا ؟ هل الكنيسة هي تنظيم معيّن ، أم هل هي ببساطة فكرة مثالية ؟

يتحدث المؤرّخ لاتوريت عن المبادىء العظيمة التي اوحتها الديانة المسيحية في أيامها الاولى : «من بدايتها ثبّتت هدفًا ، يبدو أنها أخذته مباشرة من مثالها الأعظم يسوع المسيح نفسه ، و هو مثال الراعي . » و قد انتدب أتباع المسيح أنفسهم « للاهتمام بالأفراد من طريق التضحية و المحبة في سبيل ربح النفوس لما تراه المسيحية انه الحياة الاسمى ، ومساعدتهم في النمو على هذا الاساس . » [2]

فالكنيسة الاولى في اورشليم ، كما يُعلّمنا سفر اعمال الرسل ، كانت جماعة تقوم بهذه الخدمة . و كعائلة كبيرة ، احتضنت أناسًا من مختلف الأعمار ، يعرفون و يحبّون ويساعدون بعضهم بعضًا في السرّاء و الضرّاء . و كانوا كل يوم يجتمعون في الهيكل ، ويأكلون سوية في بيوتهم ، بفرح و سرور ، و بقلوب كريمة معطاء ، و هم يعلّمون و يشجعون بعضهم بعضًا ، و يصلّون سوية ، و يشكرون الله على بركاته الواضحة التي منحها لهم . [3] و كانوا يرحبّون ترحيبًا حارًا بكل من اتّبع سيّدهم الرب يسوع المسيح . و لربما بسبب سموّ معاييرهم ، او ربما بسبب العجائب و المعجزات التي صُنعت في وسطهم ، وقع رعبهم على كل الذين في هذه المدينة ، حتى إن احداً لم يجرؤ على الاختلاط بهم : « أمّا الآخرون فلم يكن احد منهم يجسر ان يلتصق بهم . لكن كان الشعب يعظّمهم . وكان مؤمنون ينضمون للرب أكثر . جماهير من رجال و نساء . » [4]

و عليه ، فقد اضطر هؤلاء المسيحيون المؤمنون المتّحدون الى أن ينقلوا هذه الاخبار السارة الى اليهودية و السامرة ، و خلال بضع سنوات الى أقاصي الأرض .[5] وقد قَبِلَت معظم هذه الأصقاع البعيدة رسالتهم بفرح . و نتيجةً لذلك ، فقد تكوّنت جماعات مسيحية جديدة ، على طول شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، و في اوروبا و آسيا الصغرى وحتى الى المناطق الأبعد من ذلك . و كانوا يجتمعون معًا ، ليعلّموا بعضهم ، و ليشجّع احدهم الآخر ، كما فعلت الكنيسة الأولى في اورشليم .

لقد كانت كل جماعة من المؤمنين تتّسم بقدر عال من الوحدة . إلاّ أن وحدة هذه الجماعات ككل كانت مسألة نظرية أكثر من كونها أمرًا عمليًا ، ذلك لأنهم كانوا مبعثرين في مناطق بعيدة بعضها عن بعض بشكل لا يسمح بالاتصال الكثير بينهم . و لكن ، شيئًا فشيئًا أخذت روابط هذه الجماعات تتصل مّن مدينة الى مدينة ، حتى اشتدت اشتداداً وثيقًا وقويت . فهم عاشوا في البيئة نفسها ، و جابهوا المشاكل و الفرص عينها . و في الوقت الذي كانوا يلاحقون أعمالهم التجارية و المهنية من مكان الى آخر ، كان من الطبيعي ان يتطارحوا الكلام عن الامور ذات الاهتمام المشترك . و أكثر ما كان يواجههم من تحديات هو كيف يعيشون للمسيح بكل أمانة و إخلاص وسط عالم وثني فاسد ، و كيف يتجنبون مغريات و رذائل الحياة المدنية الوثنية ، و كيف يستطيعون ان يربحوا نفوس اصحابهم و جيرانهم لطريق الحق .

عاش المسيحيون مع الوثنيين ، و سكنوا معهم في افريقيا الشمالية جنبًا الى جنب ، و كان قربهم كما هو عليه الحال في آسيا و اوروبا . و كثيراً ما وُجدت أمكنة اجتماعات المسيحيين الحجرية في المدن الى جانب مزارات الاله مثْرا (Mithra) ، او قبالة المعابد الوثنية . و في الأرياف ، قد نجد القبور الحجرية المسيحية ، في الأماكن المخصصة للأرواح . كذلك فإن بيوت المسيحيين كانت موزّعة بين بيوت جيرانهم الوثنيين ، و لم يفكر هؤلاء قط في الانعزال ، و إقامة احياء خاصة بهم .

لم تتميز الجماعات المسيحية عن المجتمع الوثني بمواقعها الطبيعية او المادية ، و لكنها تميّزت عنها بطبيعة و اسلوب الحياة التي تحياها . كان جلّ همهم ان يكونوا المصباح المنير و الأمل الزاهي لكل اهل المدينة ، و الملح الجيد الذي يُملّح به . لقد شقّوا طريقهم مع جيرانهم الوثنيين بجهد و أناة ، و تعاملوا معهم بصدق و إخلاص ، و سعوا ليتجنبوا كل ما من شأنه ان يسبب المواجهة معهم . كما سعوا بكل جدّية لتطبيق الوصية القديمة : « تحب قريبك كنفسك . » و هذه هي المحبة التي كانت تحثّهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما سنحت لهم الفرصة .[6] لقد أظهر المسيحيون حقيقة ايمانهم بنوعية الحياة التي عاشوها ، فلم يكونوا يخجلون بمسيحيتهم ، بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي .

يتألف مجتمع شمال افريقيا من ثلاث فئات رئيسة ، و هذه جميعها كانت حاضرة في الكنائس المسيحية . و كان الأمازيغيون يشكّلون الاغلبية . أمّا الفينيقيون الذين تزاوج الأفارقة معهم ، فكانوا موجودين في المدن و الحواضر و كانوا يمثّلون الطبقة الحرفية و التجارية . على أنّ الطبقة الرومانية كانت الطبقة الارستقراطية الايطالية ، و كانت تمثّل اصحاب الممتلكات الزراعية الواسعة ، و قد شكّل هؤلاء نخبة اهل المدينة و صفوتهم . لكنّ الكنيسة جمعتهم إخوة وأخوات في عائلة تخطّت حدود العرقية و اللغة و التخوم الاجتماعية الاخرى . امّا علاقتهم باليهود ، فكانت علاقة صداقة و لطف . و قد استعيض عن المناظرات الحادة التي دوّنها العهد الجديد مع اليهود ، بالتسامح و الاحترام المتبادلين ، على الرغم من ان ذلك لم يجعلهم يستسلمون ، بأي شكل من الأشكال ، او يتخلّون عن آمالهم في كسب اليهود و استمالتهم الى الدخول في الايمان .

ومن البديهي أنّ علاقتهم الحميمة كانت بأولئك الذين يشبهونهم في الفكر و المعتقد . فالمسيحيون كانوا في دائرتهم الخاصة ، يعيشون حياتهم بموجب تعاليم المسيح ، إذ كانوا يخدمون بعضهم بعضًا ، كما خدم المسيح تلاميذه و غسل أرجلهم . و لم تضع الكنيسة برنامجًا لتغيير المجتمع ، بل كان كل همّها ان تأتي بالنفوس الى مجتمعها و تغيّر مواقفهم و مبادئهم . و قد شدّدت على أهمية خلاص الانسان كفرد . لقد كان المسيحيون يتوقون الى ان يصالحوا الرجال والنساء مع الله ، حتى يعيش هؤلاء الناس بعد المصالحة بانسجام و توافق يومي معه سبحانه وتعالى . إلاّ أنه كان لا بدّ لهم في معرض مساعدتهم الفرد على الإيمان ، من أن ينتقدوا الرذائل الاجتماعية التي قد تعيق الناس في هذا المجال . فالعهد الجديد في الواقع ، و بالاخص ما جاء من أقوال المسيح ، يقدّم لنا المثاليات التي لو نَفّذها جميع الناس فعلاً و بالكامل ، لتغيّر المجتمع تغييراً جذريًا . و قد رأى عدد من اصحاب السلطة الوثنية أن تعاليم المسيح هذه فيها ما يكفي لإجراء تغيير جذري اذا ما تبناها عدد كبير من الناس ، و بإمكانها ان تشق طريقها الى أعماق جذور المجتمع ، و تصل الى أساس بنيته .

لم تشجب الكنيسة رسميًا العرف القائم و المختص بالعبودية و الاسترقاق ، كما لم تتصدّ للصراع الوحشي الهمجي الذي كان يجري في الميادين لإمتاع الناس بقتال بين العبيد ، يستمر حتى الموت . و لكن الكنيسة كانت تحث المسيحيين الذين يمتلكون عبيداً ، على ضرورة معاملة هؤلاء العبيد بتهذيب و لباقة ، مثلما يرغب مالك العبد أن يُعامَل من سيده السماوي .[7] كما أنّ العبد المسيحي يجب بالمقابل أن يخدم سيده الارضي بأمانة و إخلاص كتقدمة مقبولة ترضي الله .[8] و في الحقيقة ، اختار الكثير من المسيحيين إعتاق عبيدهم ، على أنه في جميع الحالات كان العبيد مسرورين فرحين كونهم عبيداً لسيد مسيحي طيّب ، و هو بالمقابل ، كان فرحًا مسروراً لامتلاكه عبداً ، أمينًا صادقًا . « و كم رأينا عبيداً لم يكونوا يفتقرون الى شيء ، بينما هناك رجال احرار مُكرَهون على التسوّل . »[9] هذا ما قاله اغسطينوس بعد مضي مئتي عام .

لم تكن تجارة الرقيق واسعة الانتشار في شمال افريقيا في زمن الرومان ، بالمقارنة بحالة هذه التجارة في القرون التي تلت خروج الرومان من شمال إفريقيا . فالعبيد في الامبراطورية الرومانية كانوا في غالبيتهم من أصل يوناني أو من شمال اوروبا و ليس من إفريقيا . و لم يعان الأمازيغيون العبودية الا في الظروف الاستثنائية ، و لم تشجّع الكنيسةُ المؤمنين على شجب هذه الظاهرة ، او الوقوف ضد مثل هذا الوضع القانوني الرسمي الذي مارسه المجتمع الوثني آنذاك . لأن الاهتداء الى المسيحية لا يحل الانسان من تبعيته الشرعية و التقيّد بنظام المجتمع الذي يعيش فيه ، على الرغم من آماله في الحصول على حريته من هذه العبودية . و مع ذلك فعليه ان يتقبّل قدره هذا بصبر و تؤدة في الوقت الحاضر . « الدعوة التي دُعي فيها كل واحد فليلبث فيها . دُعيت و انت عبد فلا يهمك . بل و ان استطعت ان تصير حراً فاستعملها بالحري . لأن من دُعي في الرب و هو عبد فهو عتيق الرب . كذلك ايضًا الحر المدعو هو عبد للمسيح . » [10]

لم يكن عاراً كون الانسان عبداً . فكان لدى العديد من العبيد ، و بخاصة اليونانيين ، درجة من الثقافة و التعليم أعلى مما عند اسيادهم . و كان قد سُمح لهؤلاء العبيد بأن يتجوّلوا في املاك اسيادهم و في شوارع المدينة بحرية كاملة . و حقًا قال المعلم المسيحي الشهير أمْبُروزيُوس (Ambroise) إنه قد يكون العبد أعلى منزلة من سيده في صفاته و أخلاقه ، و حتى أكثر حَرية من هذا السيد لأن السيد ، قد يكون عبداً لإبليس و للخطيئة .

لم تسعَ المسيحية وراء الاضطرابات و المشاكل ، و لا أثارت استياء الناس . بل على نقيض ذلك ، علّمت الانسان كيف يبقى سعيداً في أي ظرف من الظروف او حال من الاحوال .[11] المسيحية لم تهاجم نمط الحياة الذي كان يمارس الرق و العبودية ، تماماً كما أنها لم تهاجم أيًا من مظاهر الحياة في المجتمع الوثني . ذهبت المسيحية الى ابعد من ذلك ، فقد قدّمت طرائق وأساليب جوهرية جديدة يُنظر من خلالها الى العلاقات الانسانية : فالأولون آخرون ، والأعظم يكون خادماً للجميع ، و هي تدعو ذاك الذي يجلس في المؤخرة ان يتقدم ليأخذ المقعد الاول ، وملكوت السماوات يخصّ الاولاد الصغار . لم ينظر المسيحي الى مصالحه الشخصية فقط ، و لكنه نظر الى مصالح الآخرين ايضًا . فقد ادار الخد الايسر للذي لطمه على الخد الايمن ، و ذهب ميلين مع الذي سخّره ميلاً واحداً ، و صلّى من اجل الذين أساءوا اليه . و نجد ان لدى الانسان المؤمن الكثير من الامور المشتركة مع عبده المسيحي ، ما لا يجده مع عائلته الوثنية : فهو يتمتّع مع عبده بإيمان مشترك ، و يتقاسمان المخاطر عينها التي قد تأتي نتيجة لهذا الايمان المشترك . و لم يكن هناك فوارق بين المسيحيين في نظر الله والكنيسة ، لأنه « ليس يهودي و لا يوناني . ليس عبد و لا حر . ليس ذكر و انثى لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع . » [12] لقد استُدعي المدعو يولْبِيسْتُوس (Euelpistus) و هو عبد من عبيد آل البيت الامبراطوري الى المحكمة في روما في القَرن الثاني للميلاد . و لدى سؤاله أجاب : « انا عبد الأمبراطور ، و لكنني مسيحي في الوقت ذاته ، حيث أنّ الرب يسوع المسيح قد حرّرني ، و بنعمته المعطاة لي ، اتمتّع بالرجاء نفسه الذي لإخوتي بالرب . » [13]

تبوّأ بعض العبيد مراكز هامة ، حتى وصل بعضهم الى مراكز قيادية بين الجماعات المسيحية : فبعضهم عُيّنوا نظّاراً على مجموعاتهم المحلية . و يعتبر المسيحيون أنه امتياز أن يخدموا عبداً مسجوناً او مُضطهداً بسبب إيمانه بالمسيح ، و كانوا جميعهم يرغبون في تكريم كلّ عبد حصل على تاج الشهادة المختوم بالدم . إنّ إظهار مثل هذا الحب نحو العبيد هو إبطالٌ غير مباشر لمفعول نظام الرق المذلّ ، و إيذان بأفول نجمه . فالكنيسة لم تحاول ان تقتلع شجرة العبودية - لأن ذلك سيكون عملاً طويلاً و خطراً - ولكنها بالمقابل ، قشرت لحاء هذه الشجرة و تركتها لتموت موتاً بطيئاً .

عندما كان المسيحيون أقلية ضئيلة ، لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا الكثير ضدّ العنف والقسوة و الانحراف الجنسي الذي استشرى بين المجتمعات الوثنية . على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم طرفًا في مثل هذه الاعمال ، و لا حضروا ذلك القتال الوحشي الذي كان العبيد يتبارون به في الساحات و الميادين العامة لإمتاع الناس ، كما أنهم لم يشاركوا في مشاهدة المسرحيات التي لا تخلو في مضمونها من الانحراف الخلقي . فإذا ما غرق الآخرون في مثل هذه الحمأة ، فالمسيحي لم يكن ليفعل ذلك ؛ كان المسيحيون في العالم و لكنهم « ليسوا من العالم » وكانوا يعلمون هذه الحقيقة . صلّوا بعضهم لأجل بعض ، كما فعل سيدهم المسيح لاتباعه عندما قال : « لست اسأل ان تأخذهم من العالم بل ان تحفظهم من الشرير . »[14] و هكذا ، فكلّما ازداد عدد المسيحيين سنة بعد أخرى ، كلّما نقص عدد المشاهدين لهذه المباريات ، الأمر الذي حمل الوثنيين على إلقاء اللوم على المسيحيين الذين اعتُبروا السبب في انخفاض عدد المتفرجين ، و فتور شوقهم الى الألعاب و المسرحيات ، وضعف ولعهم بها .

إلى ذلك ، فإن الكنيسة لم تحاول ان تزيل التفاوت المتأصل في بنية الطبقات الاجتماعية المدينية و الأصقاع الريفية . فقد آمن المسيحيون بأنّ الله هو الذي يمنح الارض و الأموال لبعضهم ، تمامًا كما يمنح المهارة و القدرات لبعضهم الآخر ، الى جانب المواهب الاخرى المتعددة ، من فن و قوة شخصية و طلاقة لسان و غيرها . و قد أصرّ المسيحيون على معاملة الناس أجمع باحترام متساو . فلم يهابوا الأقوياء و لا احتقروا الضعفاء . لقد خافوا الله وحده ، و احبوا جميع الناسّ . و كانوا يستقبلون الفقير و المتواضع بلطف و يكيلون له بالمعايير الصادقة و الأمينة عينها ، التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ . ففي اجتماعات الكنيسة ، كانوا يرحّبون بالجميع على حد سواء . قال يعقوب أخو المسيح في الجسد : « لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في ألمحاباة . فإنه إن دخل الى مجمعكم رجل بخواتم ذهب في لباس بهي و دخل ايضًا فقير بلباس وسخ . فنظرتم الى اللاّبس اللباس البهي و قلتم له اجلس انت هنا حسنًا و قلتم للفقير قف أنت هناك او اجلس هنا تحت موطىء قدمي . فهل لا ترتابون في أنفسكم و تصيرون قضاة أفكار شريرة ؟ »[15] إنّ اخلاق الانسان هي من حيث الأهمية أكثر بكثير من ثرائه و مركزه الاجتماعي . فقد كانت النقوش او

الكتابات على قبور المسيحيين ، و المُعرَّفة بهم ، لا تشير الاّ نادرًا الى المراكز الاجتماعية لأولئك الموتى . إلاّ أنهم كانوا ينحتون أحيانًا رموزًا تدلّ على حرفة الميت ، أو يرسمون بدقّة الأدوات التي يستعملها في مهنته بالإضافة الى كتابة عبارات تنمّ على المحبة العائلية .

كانت مثل هذه المواقف ثورية للغاية ؛ إذ كانت تلمس قلب أيّ انسان حساس . و لكنّ المسيحيين لم يكونوا دائمًا موضع استحسان في أعين اعضاء المجتمع الآخرين . فبعض اعضاء هذا المجتمع رأى فيهم عاملاً مفسداً يسبب الخلاف و الشقاق الحاصلين بين الناس ، لأنهم كانوا على استعداد دائم لأخذ خط فكري مستقل خاص بهم . الى هذا ، فقد كانت طاعة المثاليات الامبراطورية امراً ملزمًا يجب أن يُغرس بثبات في قلوب الناس ، فإذا ما نزع احد الى مناقشة مثل هذه العادات الوطيدة الراسخة في المجتمع آنذاك ، فإنه يعرّض نفسه ليس فقط لتهمة تعكير سلام الامبراطورية الرومانية ، بل كذلك لتقويض الحضارة العظيمة التي تمثّلها .

بعد مرور قرن و نصف على صلب المسيح ، كتب كلْسُوْس (Celse) انتقادات عنيفة يتهم فيها المسيحيين برفض خدمة الجيش . و قد قال كلسوس إنّ عملهم هذا يعرّض حياة الامبراطورية للخطر ، إذ ماذا يحدث مثلاً لو حذا جميع الشعوب حذوهم ؟ ألا يؤدّي ذلك الى اكتساح البرابرة هذه الامبراطورية؟ امّا أُوريجَانُوس (Origène) ، فقد دافع عن هذا الموقف اللاعنفي للمسيحيين ، مشيرًا الى أنّ المسيحيين لا يطمحون الى انقسام المجتمع ، و لا الى مساندة بلد آخر ضدّ بلدهم ، و انما الى رفع جميع الناس الى المستوى الاخلاقي الاسمى ، و حتى ، إن امكن ، الى انتزاع رغبة الناس في اضرام الحروب . و في هذه الفترة بالذات دافع ترتوليانوس عن المسيحيين قائلاً إنهم بعيدون كل البعد عن تهمة تمزيق الامبراطورية ، لأنّ الواقع يثبت أنّ المسيحيين هم أحسن رعايا الامبراطورية و أفضلهم على الإطلاق . و مبادئهم هذه ، لا تجيز لهم القيام بأيّ عصيان مسلّح او شغب مخلّ بالأمن ، و هم لم و لن يتآمروا ضد السلطة ؛ بل على نقيض ذلك ، يقدمون الصلوات الى الله تعالى ليحفظ الامبراطور و يطيل بعمره ويمتّعه بحُكم ملؤه السلام و الاستقرار . انهم لا يهتمون بالسياسة ، و ليس لديهم أية طموحات نحو قوّة أرضية ، و هم ببساطة يرغبون في أن يُتركوا بسلام . فقد قال سيدهم : « مملكتي ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون . » 16 كما اعلن ترتوليانوس من شمال إفريقيا بصريح العبارة ما يلي : «لقد بَرُدَ عندنا كل ما يعتبرها الناس طموحًا في سبيل المجد الارضي او المراكز ، و لسنا مضطرين الى تشكيل اتحادات لمثل هذا الغرض ، و ليس ما هو أزهد من العمل السياسي بالنسبة إلينا ، لأنه مغاير لمبادئنا ، و نحن لا نعترف إلاّ بدولة واحدة ، و هذه الدولة الواحدة هي العالم بأسره . »17

لم يكن المسيحيون من السذاجة بحيث يفترضون أنّ المجتمع الوثني بأسره يرغب في قبول المسيحية و اتّساع مقاييسها ، و لا أنّ شرور تلك الحضارة ، يمكن إلغاؤها بالوسائل

السياسية ، إذ كثيرون من ذوي النفوذ كانوا يستفيدون من الفساد و الجور المستشريَيْن فيها . كما لم يكن هدف المسيحيين انتقاد النظام الاجتماعي و الاقتصادي الوثني ، بل بالحري ارادوا أن يبيّنوا للأفراد الطريق المؤدي إلى حياة أفضل : تأسيس جماعة جديدة داخل المجتمع الموجود ، جماعة ذات معايير مسيحية يطبّقها شعبٌ مسيحيٌّ أصيل .

أثبتت المسيحية جدارتها بالامتداح من خلال نقاوة الحياة الواضحة لأعضائها . هذا ، و قد أرست لنفسها نمط حياة مغايراً تماماً لحضارة ذلك الزمان التي عُرفت بانحرافاتها الجنسية و فجورها ، و غطرستها المستفحلة ، و بمبارياتها و العابها الدموية ، و بمواقفها الوحشية القاسية في معاملة العبيد و العمال و الخدم الذين يخدمونها . و علينا الاّ نتصوّر أنّ المسيحيين القدامى كانوا مثاليين كاملين ، و لكنهم كانوا ، على الأقل ، يطمحون الى الكمال . لقد أقاموا وزناً كبيراً للصفات النبيلة من مثل الأمانة و الاستقامة و الحنو و الشفقة ، و قد عقدوا العزم على ان يحبوا جيرانهم كأنفسهم . لقد كان عندهم في بعض الأحيان ذنوب ونقائص ، لكنهم ، بخلاف باقي الناس ، كانوا مستعدين للاعتراف بأخطائهم و مواجهتها و محاولة معالجتها . إلاّ أن هؤلاء المؤمنين الأوائل ، في شمال إفريقيا ، كانوا يعرفون أنه بعد انزلاقهم يستطيعون القيام و اتّباع المسيح عن قربٍ أكثر من ذي قبل .

كلّما اشتدّ الظلام ، بانت النجوم وضّاءة لامعة . هكذا ضاءت محبة المسيحيين و أمانتهم وسط عالم معوّج و ملتو . لم يشتك المسيحيون يومًا و لا تأفّفوا . لقد رفضوا أن يتورّطوا في المنازاعات ، و كانوا مستعدين دائمًا لمساعدة كل محتاج . و عندما كنت تلتقيهم في الشوارع ، كنت تراهم يتحدثون بإخلاص عن أفراحهم و عن أحزانهم . كانوا يُعزّون بعضهم بعضًا ، و يصلّون بعضهم لأجل بعض . و عندما كانوا يسيرون الى أعمالهم ، كانوا يترنمون بترانيم روحية محبّبة الى قلوبهم المشتاقة . كانوا يشكرون الله في كل حين و على كل شيء ، وكانت حياتهم واضحة سامية فوق جيرانهم . كانوا يشعرون بأنهم شعب الله الخاص وكانوا يعيشون التوصية الكتابية القائلة : « فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين احشاء رأفات و لطفًا و تواضعًا و وداعة و طول أناة . محتملين بعضكم بعضًا و مسامحين بعضكم بعضًا إن كان لأحد على أحد شكوى . كما غفر لكم المسيح هكذا انتم ايضًا . و على جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال . »[18]

لقد اهتمّوا فعلاً أحدهم بالآخر . و كتب الرسول بولس الى أخ مؤمن بخصوص أحد عبيده اللصوص الهاربين قائلاً له إنّ هذا العبد قد اعتنق المسيحية لتوّه ، و حثّه على لزوم مسامحته و قبوله « لا كعبد في ما بعد بل أفضل من عبد أخًا محبوبًا . »[19] إنّ هذه النظرة التي كان المؤمنون ينظرون بها الى الحياة لم تمت ابداً بنهاية العصر الرسولي . فقد كانت كل من پرپتْوا السيّدة ، و فيليستاس خادمتها ، تتقاسمان الإيمان المشترك ، فعاشتا و ماتتا سَوِيةً ، وكانتا تشجّعان و تطمئنان واحدتهما الاخرى ، و ذلك على المدرج الروماني بمدينة

قرطاجة . هكذا كان اتحاد الجماعة المسيحية و التحامها ، إذ كان بإمكان الارامل واليتامى و المسافرين البعيدين عن بيوتهم و ذويهم أن يجدوا الدفء و الترحيب المملوئين محبة وعطفًا ، حين تستضيفهم العائلات المسيحية . و حتى الوثنيون و اليهود في الجوار ، كانوا يحصلون على المساعدة التي يقدمها لهم المسيحيون . و لم يكن احد يعرف شيئًا كهذا قبل بزوغ فجر المسيحية في العالم .

كان الزنى و الدعارة و غيرهما من الرذائل القبيحة تغرز القبح العفن في المجتمع الوثني الذي كان المسيحيون يعيشون فيه جنبًا الى جنب معهم ، و كان هذا يسبب للناس تعاسة لا توصف و شقاء لا يُحدّ . لقد جعل القانون عملية الطلاق امرًا سهلاً ، و كان يحصل لأتفه الأسباب ، الأمر الذي جعل الحياة العائلية حياة مستحيلة تقريبًا . كان الوالدان يعيشان في محيط يشوبه الشك و عدم الثقة ، و كان العديد من الاولاد لا يعرفون أين أبواهم ، و لا يعرفون حتى من هم أبواهم . أمّا حياة الجماعة المسيحية ، فكانت تختلف اختلافًا جذريًا . فالمسيحيون كانوا يحترمون الزواج . و كانوا يتحدثون مطوّلاً عن العلاقات الخاصة المميزة بين الزوج وزوجته ، و التي يشبّهها الكتاب المقدس بالعلاقة بين المسيح و الكنيسة : « ايها النساء اخضعنَ لرجالكنّ كما للرب . . . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح ايضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها . »[20]

لقد جاءت المسيحية بمبدإ جديد ألا و هو مبدأ الإخلاص و الولاء ، إلاّ أنّ إخلاص الزوجين أحدهما للآخر ، تجاوز جميعً الولاءات الانسانية الأخرى . لم يكن الطلاق اختياريًا عند المسيحيين ، فلقد قال المسيح : « و يكون الاثنان جسدًا واحدًا إذًا ليسا بعد إثنين بل جسد واحد . فالذي جمعه الله لا يفرّقه انسان . » [21] تعلّم القرينان أن يهتمّا و يقدّرا أحدهما الآخر ، و يبذلا قصارى جهدهما ليعيشا بتآلف و انسجام . و آمنا بأن المقصود من القران هو المساعدة المتبادلة بين القرينين ، و التشجيع في الامور الروحية و العملية . و وجدا أنّه حينما لا يألو أيّ منهما جهدًا في حب الآخر و مساعدته ، فإنّ علاقتهما الزوجية تتنامى باستمرار و تصبح نفيسة و غالية . قال ترتوليانوس : « يا لروعة الاتحاد الزوجي بين مؤمنَين ذوَي رجاء واحد ، و عهد واحد ، و تهذيب واحد ، و أسلوب حياة واحد . إنّهما أخ و أخت ، اثنان من خدم الرب ، روح واحدة و جسد واحد . . . يصلّيان سوية ، و يصومان معًا ، يعلّمان و ينصحان و يدعمان واحدهما الآخر . يذهب كلاهما الى كنيسة الله ، و لمائدة الرب . يتقاسمان المحن و الاضطهادات مع الآخرين ، و النمو الروحي . فلا يكتم واحدهما شيئًا عن الآخر ، و لا يتجنّبه و لا يُغضبه . يزوران المرضى بسرور ، و يقدمان الاحتياجات للمعوزين و يتصدّقان بسخاء ، و لم يكونا في حاجة الى إخفاء رمز الصليب و لا الى كبح الفرح في المسيح و لا الى إعاقة بركاته ، يرنمان بتسابيح و مزامير معًا ، و المسيح يُسرّ بما يراه و يسمعه منهما ، و يمنحهما سلامة . و عندما يجتمع اثنان او ثلاثة باسمه ، يكون الرب في وسطهم ، و حيثما يكون الرب لا يستطيع إبليس ان يأتي . » [22]

فحيثما يعني الارتباط الزوجي تشكيل وثاق جديد ، فهو يعني ضمنًا حلّ الروابط القديمة . فالزوجان كمسافرين يحزمان امتعتهما و يودّع كل منهما ابويه و البيت الذي نشأ فيه وترعرع . و بإتحادهما يتأسس بيت جديد ، و مهما كان هذا البيت متواضعًا ، فإنهما يغنيانه بمحبة المسيح . تقول كلمة الله عن الاتصال و الانفصال : « من اجل هذا يترك الرجل أباه و أمه و يلتصق بامرأته . و يكون الاثنان جسداً واحداً . » [23] إنّ العادة القديمة في انتقال الزوجة لتعيش مع زوجها في بيت أهله هي عادة محفوفة بالصعوبات و المخاطر ، ولكنّ كسر هذا التقليد ليس بالأمر اليسير ، إذ يجب القيام به بطريقة ودّية وعاطفية . فالأقارب المسنّون يتوجب احترامهم و تقديرهم ، و اذا دعت الحاجة إلى إعالتهم ، ينبغي عندها تقديم مثل هذه الإعالة . و لكن ، على الآباء الاّ يتوقّعوا من أولادهم الذين تزوّجوا طاعة عمياء و إذعانًا كاملاً بعد زواجهم . فقد أصبح الزوج الآن مسؤولاً عن بيته ، وعن زوجته ، و طبعًا ، عن أولاده في ما بعد . و لا يمكن للزوج في أيّ حال من الاحوال ، و لأي سبب من الاسباب ، أن يتهرّب من مسؤولياته و واجباته . و حال الاولاد كحال والديهم ، فبعد ان يكبروا يتركون هم بدورهم ذويهم و بيوت آبائهم ، و يتزوجون ليبنوا لأنفسهم عشهم الزوجي الخاص بهم . و هم يعلمون علم اليقين أنّ بإمكانهم الاتكال على إعانة والديهم وحبهم لهم ، وعلى الصلوات التي يرفعها هؤلاء المحبّون لأجلهم ، في وقت احتياجاتهم .

و النساء بشكل خاص ، سُررنَ بالتقدير الذي صار من نصيبهنّ في الجماعة المسيحية . كنّ قبلاً مبعدات تمامًا عن العديد من الديانات السرية ، كما أن دورهنّ في ديانات أخرى كان يُثير الشبهات . أمّا المرأة المسيحية ، فقد كان لها مقامها و امتيازاتها الجديرة بالاحترام ، و كانت لمواهبها و أحلامها متنفسات و مخارج مفيدة و نافعة ، خصوصًا في ما يتعلق بالتوجيهات و الارشادات التي كانت تقدّمها للشابات و الاطفال . فقد كان هناك دائمًا ارامل وايتام يحتاجون الى العناية ، فضلاً عما يُقدّم للمسافرين من حسن ضيافة و عناية . و كان الزوج يستطيع أن يترك كثيرًا من المهام و المسؤوليات في يدي زوجته المسيحية بثقة كاملة ، وكان يقدّر مساعدتها اللطيفة و نصائحها السديدة . و قد أشار أغسطينوس الى أن حواء لم تؤخذ من أقدام آدم لتكون بذلك أمة له ، و لا أُخذت من رأسه لتتحكم به و تستعبده ، و لكنها أُخذت من جنبه حتى تكون شريكة حياته الودودة المحبوبة [24] . فكم هو جميل أن يتمكن الزوجان من أن يصلّيا معًا لأجل كل ما يهمّهما أو يختص بحياتهما ، و يبتهجان معًا عندما يستجيب الله لهذه الصلوات . « امرأةٌ فاضلة من يجدها لأنّ ثمنها يفوق اللآلىء ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج الى غنيمة ، . . . تفتح فمها بالحكمة و في لسانها سُنّة المعروف . » [25] كانت بريسكلا نموذجًا لمثل تينك النسوة ، و هي و أمثالها مذكورات في صفحات الكتاب المقدس ، و كان هناك كثيرات مثلها في إفريقيا الشمالية .[26]

الأولاد أيضًا ، كانوا موضع ترحيب في الجماعة المسيحية . فقد قال الرب يسوع نفسه عنهم : « دعوا الأولاد يأتون إليّ و لا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . »[27] و غالبًا ما كان ايمان الاطفال العادي البريء دافعًا للأبوين ، و حافزًا لهما للعبادة . و عندما كان الأبوان يقرآن الكتاب المقدس ، كانا يجدان نصائح كثيرة عن كيفية تربية أبنائهم « بتأديب الرب وانذاره . »[28] كان تيموثاوس واحداً من اولئك المباركين بهذه التربية المسيحية منذ نعومة أظفارهم ، فكتب له بولس قائلاً : « إذ أتذكر الايمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن اولاً في جدّتك لوئيس و أمك أفنيكي و لكنني موقن انّه فيك ايضًا . » و يتابع بولس الرسول متحدثًا الى تيموثاوس : « و إنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة ان تحكّمك للخلاص بالايمان الذي في المسيح يسوع . »[29]

كان مثل هؤلاء الاولاد احراراً في تكريس شبابهم و بذل أفضل فترات عمرهم في سبيل ملكوت الله ، مع مباركة ذويهم و تشجيعهم . و بسبب قدرتهم على التمييز بين الصالح والطالح ، فقد التصقوا بالأول و رفضوا الثاني . لم تكن لهم ذكريات مخجلة عن ماض حافل بالممارسات الشهوانية ، و لا ندموا في يوم عن سنين ضائعة . و لم يكتسبوا في يوم من الأيّام تلك الأخلاق الإنسانية و النزقة التي كانت لهؤلاء الذين منذ نعومة أظفارهم لا يفكرون إلا في أنفسهم . لقد وفّروا على أنفسهم ذلك الصراع المرير الذي يعيشه كل انسان يأتي الى المسيح في كهولته راغبًا في ترك عاداته الشخصية الخاطئة الراسخة . أمّا أن يولد الانسان في عائلة مسيحية ، فهذا امتياز مدهش جميل ، و كذلك عودة الانسان الى البيت المسيحي الموحّد الذي تسوده المحبة و المودّة ، بعد يوم شاق في المدرسة او في السوق او في الشارع او في المدينة ، فإن ذلك لا بدّ من أن يملأ قلب المؤمن الشاب بالسرور و الغبطة .

كان المسيحيون يشجعون بعضهم بعضًا ، ليعملوا بجد و يبذلوا عرق الجبين في كسب أرزاقهم ، و هكذا يتمكنون من مساعدة الآخرين ممّن هم أقل منهم حظًا ، خصوصًا اولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في أعمالهم ، بسبب المرض او العجز .[30] و المسيحية تعتبر العمل واجبًا طبيعيًا على كل اتباعها . كان الرسول بولس يكسب قُوتَهُ من طريق عمله اليدوي ، و في صناعة الخيام . و يظهر ان الاعمال اليدوية لم تكن معتبرة من الاعمال المخزية .[31] وقد كتب بولس : « إذ انتم تعرفون كيف يجب ان يُتمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبزاً مجانًا من أحد بل كنا نشتغل بتعب و كدّ ليلاً و نهاراً لكي لا نثقّل على احد منكم . »[32]

في الواقع ، بدأ كثيرون ممن اعتنقوا المسيحية ، و لأول مرة في حياتهم ، بمزاولة عمل شريف و كما يقول الكتاب المقدس : « لا يسرق السارق في ما بعد بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه ليكون له ان يعطي من له احتياج . »[33] نظرت الكنيسة المسيحية بازدراء و استنكار الى اولئك الاصحّاء القادرين على ان يعملوا ، ولكنهم كسالى

مهملون . فكتب بولس الرسول بهذا الخصوص قائلاً : « فإننا أيضًا حين كنّا عندكم اوصيناكم بهذا أنه إن كان احد لا يريد ان يشتغل فلا يأكل .»[34] فالمسيحيون هم من يكونون « مستعدين لكل عمل صالح ، »[35] و بالاخص اذا كان عليهم إعالة من يعتمدون على ما يجنونه من معاش . « و إن كان احد لا يعتني بخاصته و لا سيما اهل بيته فقد أنكر الايمان و هو شر من غير المؤمن .»[36] لقد كانت هناك فرص كثيرة للذين يريدون أن يعملوا في المدن و القرى و الأرياف ، و لكل من لم تمنعه كبرياؤه من تلويث يديه بأية حرفة مهما كانت وضيعة . و لم تكن الأعمال الشاقة و الأوضاع الاجتماعية المتدنيّة تُعتبر وصمة عار ففي زمن الاضطهاد ، أُرسل الكثير من الناس الى المناجم ، و كان المؤمنون الذين يسخّرون للعمل في هذه المناجم يفتخرون بعملهم هناك ، و هم يمجدون الرب دائمًا ، ويسبحونه على الرغم من انهم في وضع لا يُحسدون عليه . و كانوا يؤمنون بأن الله هو الذي ارسلهم الى هذا المكان الوضيع ليكونوا نورًا يضيء في الظلمة كرسل المسيح ، وليس كسجناء للإنسان .

و مع هذا ، فقد كانت هناك أعمال لا يقبل بها المسيحيون . فهم لا يقبلون مثلاً ان يعملوا كمجالدين . و المجالد كما أسلفنا ، هو شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الجماهير في الامبراطورية الرومانية ، و بخاصة في ذلك العصر الذي تميّز بالترويع و الترهيب ، سواء أكان هذا الترويع و الترهيب ضد الانسان نفسه أو ضد الحيوان على حدّ سواء . كذلك لم يكن المؤمن يقبل ان يشارك او يتورط في أعمال الدراما على المسارح الوثنية ، بسبب ما يُعرض هناك من مشاهد بذيئة و لا أخلاقية - اساطير و خرافات الآلهة - تلك الأساطير التي كانت تُمثّل بقناع ديني على مرأى الجماهير الفاسقة الفاسدة . و المسيحي لا يشرك نفسه في أي شكل من أشكال الوثنية او علم التنجيم ، أو أية مهنة ترتبط بعبادة الأوثان ، كصناعة المصابيح و أكاليل الزهور و غيرها من الزخارف و الحلى التي تخص المعابد . و لم يكن ممكنًا للمسيحي ان يقبل العمل كمعلم في مدرسة لأن عليه ان يعطي دروسًا تتنافى مع مبادئه المسيحية . فجدول الضرب مثلاً لم يكن في ظاهره مؤذيًا ، غير ان حروف الهجاء كان يتم استظهارها و حفظها غيبًا من طريق انشودة تُرتّل فيها اسماء الآلهة الوثنية .[37] كذلك كان المسيحي يرفض ان يكون قاضيًا حيث انه قد يُطلب منه ان يحكم بسفك دم . و المسيحي لم يكن يرغب في أن يكون محاميًا حيث انه قد يُطلب منه ان يدافع عن رجل مذنب و الترافع لصالحه ، او قد يُطلب منه اتّهام رجل بريء يتم تجريمه . و لا يستطيع المسيحي ان يكون خطيبًا عامًا خصوصًا اذا كانت خطبته هذه تشتمل على التملّق و المداهنة و الاطراء و الأكاذيب ، و ذلك لتمجيد حاكم مجرّد من المبادىء الخلقية ، او للثناء على احد المتبرعين الوثنيين . و قد تخلّى رجال كثيرون عن اعمال كانوا قد باشروها ، لأنهم لا يستطيعون أن يوفّقوا بينها و بين ضمائرهم او مبادئهم المسيحية ، واكتفى هؤلاء بأشغال اكثر تواضعًا . فالغنى ، و الوسيلة التي تؤمن الحصول عليه ، ليسا نهاية

المطاف . فالمواعظ الكنسية التي حُفظت خلال القرون الأربعة الاولى للميلاد ، تُخبرنا بأنّ الكنيسة كانت تحثّ المؤمن ذا الإمكانات المتواضعة على أن يقتنع بدخله المحدود . أمّا ذوو الدخل الكبير ، فعليهم ان يكونوا كرماء يدفعون بسخاء لعدد وافر من المحتاجين . و قد طُلب من التجار ان يتأكدوا من تثبيت اسعار عادلة ، و ان لا يطلبوا اكثر من هذه الاسعار العادلة من المشترين ، و كذلك الاّ يقبلوا بأسعار ادنى منها .

وخلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد ، اعتقد المسيحيون ان خدمة الجيش تتناقض مع الايمان المسيحي . و بالطبع فإن هذه الخدمة تورّطهم في استعمال العنف و الاضطرار الى سفك الدماء ، الأمر الذي لا يتوافق مع تعاليم المسيح .[38] فهل بالامكان ان نتصوّر الرب يسوع المسيح يقتل انسانًا اذا ما صدرت إليه الأوامر بذلك من قائد فرقة عسكرية ؟ و لا حتى ، يمكن لأتباعه ان ينفّذوا أمرًا كهذا . قال ترتوليانوس : « ان تجريد الرب لبطرس من سلاحه ، جرّد الجنود من احزمة اسلحتهم منذ ذلك التاريخ فصاعدًا . »[39] قد أعطى ترتوليانوس أسبابًا أخرى لعدم التحاق المسيحيين بالجيش . فأولاً : ان مثل هذه الخدمة تضع المسيحي تحت أمرة سيّد غير سيّده المسيح ، و ثانيًا ، فإنها تمنعه من الوفاء بواجباته مع عائلته . و اكثر من ذلك ، فإنّ أصحاب الرتب العليا في الجيش ملزمون في ان يشاركوا في الدعاءات و الابتهالات الدينية المقدّمة للآلهة ، و ذلك مع كتائبهم . كذلك لم تطلب الكنيسة من الجنود الملتحقين بالجيش ان يتمرّدوا أو أن يتسرّعوا في معارضة ذوي السلطة . و لم تفرض الكنيسة على الجندي الذي اعتنق المسيحية أن يغادر الجيش بسرعة ، بل كانت تشجّعه على البحث عن عمل آخر حالما يتحرر من قيود عمله السابق . و هذا لم يكن يسبّب أية صعوبة ، إذ إن الدولة يمكنها أن تملأ مركزه و رتبته بشكل آخر . و عندما يتحرر الجندي المسيحي من التزاماته العسكرية ، فذلك لن يؤثر سلبًا في الدولة ، لأنه بإمكان الولاية ان تملأ مركزه و رتبته بشخص آخر من دون أيّة صعوبة تُذكر . هذا ، ولم يكن هناك نقص في عدد المتطوّعين من الوثنيين في القوات الامبراطورية . و من جهة أخرى ، لم يكن المسيحيون يُجنَّدون ضد إراداتهم ، لذلك فإن هذا الأمر لم يُثِر أية إشكالات او بلبلة في أوساط الكنائس المسيحية ، في شمال افريقيا .

و عليه ، نرى ان المسيحيين بدأوا يشكّلون جماعاتهم الخاصة بهم داخل البنية الرسمية للمجتمع الوثني ، مع كونهم آنذاك أقلية مضطهدة تكافح لتبقى ، و هي داخل غلاف هذه الامبراطورية الوثنية القوية . و ما كان المسيحيون أن يتصوّروا في تلك الأيام أنّ وقتًا سيأتي ، يتمكن فيه مسيحيّ من اعتلاء عرش هذه الامبراطورية ، و من ثم يَسُنّ قوانينًا تفرض مقاييس و مبادىء مسيحية على العالم المتحضّر بأسره .[40] و مع ذلك كانت الأجيال المسيحية الأولى ، في صلاحها الدؤوب و المستقيم ، سببًا في احترام جيرانهم و معارفهم ، وباعثًا على قبول الكثير من مثالياتهم في المجتمع العالمي ككل .

ملاحظات

1- Latourette Vol. I. p. 251

2- Latourette Vol. I p. 252

3- اعمال 42:2 - 47

4- اعمال 13:5 - 14

5- اعمال 8:1

6- مرقس 31:12 . راجع ايضاً أفسس 25:4 ؛ رومية 2:15 .

« كانت المسيحية اول ما تتأسس في مكان ما ، تقوم بنفسها بأفضل عمل إرسالي . كانت تنمو بشكل طبيعي من الداخل . و كان مجرّد حضورها يجذب الناس . كانت نوراً يشع في الظلام و ينير هذا الظلام . و مع غياب الجمعيات الإرسالية المتخصّصة لهذا العمل المحدّد ، كانت كل كنيسة محلية بمثابة جمعية إرسالية ، و كان كل مؤمن مسيحي مرسلاً و صاحب قلب مضرم بمحبة المسيح ، و يسعى جاهداً لربح الناس للطريق نفسه . »

(Schaff *HOTCC* Vol. II p. 20)

ان الامبراطور الوثني يوليان (Julien) (361 - 363 م) عزا شعبية المسيحية مع انتشارها السريع في بدايتها ، الى ثلاثة أسباب : اللطف ، الأمانة ، و الاهتمام بالموتى (تدبير دفن لائق بالنسبة الى الفقراء) .

(Schaff *HOTCC* Vol II p. 381)

7- أفسس 9:6

8- أفسس 5:6 - 8 ؛ تيطس 9:2 و 10

9- Hamman 134 (*Sermon* 356:7)

10- 1 كورنثوس 20:7 - 22

11- فيلبي 4:4 ، 11 - 13 ؛ تكوين 20:39 - 23

12- غلاطية 28:3

13- Schaff *HOTCC* (Vol. II p. 351); *Martyrium* 3 (*ANF* Vol. I p. 305)

14- يوحنا 15:17

15- يعقوب 1:2 - 4

16- يوحنا 36:18

17- *Apologeticus* 38

18- كولوسي 12:3 - 14

19- فليمون 16 و 17

20- أفسس 22:5 و 25

21- مرقس 8:10 و 9

22- *Ad Uxorem* 2:8 (راجع ترجمة Schaff في *HOTCC* Vol. II p. 364)

23- أفسس 31:5

24- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 363

25- أمثال 10:31 ، 11 ، 26

26- أعمال 26:18

27- مرقس 14:10
28- أفسس 4:6
29- 2 تيموثاوس 5:1 ؛ 15:3
30- اعمال 34:20 و 35
31- اعمال 3:18
32- 2 تسالونيكي 7:3 و 8
33- أفسس 28:4
34- 2 تسالونيكي 10:3
35- تيطس 1:3
36- 1 تيموثاوس 8:5
37- لقد اعتبر ترتوليانوس أنه كان من الضروري على الأولاد المسيحيين في المجتمع الوثني ان يلتحقوا بمدارس وثنية : و إلاّ سيشبّون أميّين . بالمقابل ، سيساعدهم ما حصلوا عليه من تعليم مسيحي في البيت على تقويم ما يدرسونه و التمييز بين الحق و الباطل . ففي المدرسة ، يكون الفتى المسيحي « في أمان ، كمن يقبل السمّ من دون أن يشربه . » (*De Idolatria* 10) . و هذا الأمر ، زاد بالطبع من مسؤولية الأهل لجهة تعليم أولادهم و مساعدتهم على التمييز .
38- مثلاً ، متى 39:5 ، 44
39- *De Idolatria* 19 ؛ بالإشارة الى متى 52:26
40- مثلاً ، لقد أصدر الامبراطور قسطنطين في العام 315 م قانوناً يحظر فيه وسم العبيد على الوجه . و في السنة التالية ، سهّل عملية الإعتاق اذ جعل لها شرطاً واحداً : ان يوقّع سيّد العبد على شهادة بهذا الخصوص ، و ذلك عوضاً عمّا كان يدور من قبل من احتفال بالإعتاق في حضور الحاكم و مساعده . كذلك شرّع الامبراطور لمنع الأهل من قتل الأولاد غير المرغوب فيهم .
(Schaff *HOTCC* Vol. II pp 350, 370)

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص حياة الكنائس المسيحية الأولى ، يمكن الرجوع الى المصادر الثانوية التالية :

Green pp. 134 - 199, 234 - 285; Bainton pp. 71 - 110
Neill pp. 43 - 44; Latourette Vol. I pp. 244, 261 - 265, 291
Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 334 - 386; Foakes - Jackson pp. 236 - 239.

الفصل السادس

الجماعة المسيحية

بعد أن سمع المسيحيون الجدد بعض الأمور التي تتعلق بحياة المسيح ، و اختبروا بأنفسهم قوة روح المسيح التي كانت تعمل في وسطهم ، انكبّوا بشوق و حماسة شديدين على دراسة ما كتبه اتباع المسيح الأوائل . اولئك الذين رأوا المسيح و سمعوه و عاشوا معه ، ماذا يقولون عنه ؟ و كيف وضع كل من بطرس و يوحنّا و يعقوب تعاليم ربهم موضع التنفيذ والممارسة ، و ذلك في المناطق و الأقسام الاخرى من عالم البحر الابيض المتوسط ، حيث كانوا يعيشون و يسكنون ؟ كان شكل الكتابات التي جاء بها المسافرون المسيحيون تختلف في الواقع ، عمّا كان عليه الدرج الملفوف حول المقبض او المسلّة الخشبية ، و الذي كان يستعمله اليهود ويعلّمه معلموهم منذ اجيال طويلة . فالمسيحيون في الحقيقة ، كانوا الروّاد في استعمال الكتب المكوّنة من صفحات مكتوبة باليد و مدمجة بواسطة الخياطة في مجلدات بشكل يسهل نقلها و استعمالها كمرجعية عند الضرورة .

انكبّت مجموعة من الرجال و النساء على قراءة ما كُتب عن سير المسيح و رسائل الرسل التي اعترضت سبيلهم . فالقادرون منهم على القراءة بشكل جيد نسخوا باعتناء شديد ، نسخة من هذه المخطوطات ، او طلبوا من آخرين ان يقوموا بذلك . و في بداية القرن الثالث ، لم تعد اللغة اليونانية اللغة العالمية المستعملة في حوض البحر الابيض المتوسط ، لذا طلب اولئك الذين لم يتمكّنوا من فهم لغة العهد الجديد الأصيلة تلك ، توضيح معانيه و مفاهيمه . إلاّ انه كانت هناك ترجمة باللاتينية ، و كانت معروفة بين الجماعات المسيحية المثقّفة .

كانت كلمة الله مصدراً مشجّعًا للاجتماعات . و قد شجّع بولس تيموثاوس في أفسس لكي يسير في الاتجاه عينه إذ قال له : « الى ان أجيء اعكف على القراءة و الوعظ و التعليم . »[1] وكتب يُوسْتينُوس الشهيد (Justin Martyre) تقريراً من روما في العام 150 ميلادية مفاده ان «اجتماعات الكنيسة في روما كانت تبدأ بقراءة ما سجّله الانبياء من كتابات و ما كتبه الرسل .»[2] ثم كان أحد قادة الكنيسة يقوم بتفسير الشواهد و الفقرات ، و بعد ذلك يصلّي الجميع و يعبدون معًا . و بعد خمسين سنة ، كتب ترتوليانوس : « كان يُطلب من كلّ عابد ان يقف ظاهراً امام الجماعة و بحسب قدرته يسبّح الله ، و ما يرتّله او يرنّمه يكون إمّا مأخوذًا من الكتاب المقدس ، و إمّا من تأليفه الخاص . »[3] و ما استطعنا ان نعرفه من العدد القليل المتوافر لدينا من الترانيم التي كانت تُرتّل في اثناء العبادة ، يُظهر أنّ الإنشاد كان مأخوذًا من المزامير المترجمة الى اليونانية او اللاتينية بشكل عام .

كان المسيحيون يقيمون احتفالين كبيرين رئيسين ، الأول و الأهم هو الاحتفال بعيد القيامة المجيد الذي يتذكّرون فيه موت مخلّصهم و قيامته . امّا الاحتفال الثاني فكان يجري في يوم الخمسين ، أي خمسين يومًا بعد قيامة المسيح . إن الصلوات التي كانت تقام خلال الفترة الواقعة بين عيدي القيامة و يوم الخمسين ، كانت تُرفع بينما يكون المؤمنون وقوفًا عوضًا عن ان يكونوا راكعين .[4] الى هذا ، كان هناك حدث آخر هام احتفلت به الكنيسة اسبوعيًا ، الا و هو يوم الرب . فاستنادًا الى ما كتبه ترتوليانوس ، جُعل اليوم الأول من الاسبوع - أي يوم الاحد - و في هذا اليوم يرتاح المؤمنون من اعمالهم و مشاغلهم الدنيوية . و أصبح هذا اليوم هو يوم العبادة المشتركة لكل المجموعات المسيحية ، حيث تقام صلوات جماعية و أحاديث للمؤمنين في أمور الله . قال ترتوليانوس في هذا الصدد : « لقد جعلنا يوم الأحد يوم احتفال ، وخصصناه لنفرح فيه . »[5]

وقد اردف ترتوليانوس قائلاً إن في هذا اليوم يجتمع المسيحيون للاحتفال بالعشاء الرباني . و هم يجتمعون دائمًا في مساء أول يوم في الأسبوع ، كما كان يفعل نظراؤهم في ترواس حيث وقعت تلك الحادثة المشهورة عندما بقي الرسول بولس يتحدث حتى الفجر .[6] ويبدأ الأحد ، بحسب العادة المتبعة آنذاك ، عند الغسق . و عليه ، فإنّ الاجتماع كان يُعقد في الوقت الذي ندعوه اليوم « ليلة الأحد» . فكانت القناديل تضاء ، و كانت تَستحضر الى أذهان الحاضرين ، تلك الصورة البهية الرائعة ، و هي صورة العشاء الاخير الذي شارك فيه الرب يسوع تلاميذه الاثني عشر ، « في الليلة التي أُسلم فيها . »[7] و في أيام الاضطهاد ، كان منَ الأسلم للمؤمنين أن يجتمعوا ليلاً ، بينما فضّل المؤمنون في مناطق أخرى أن يجتمعوا قُبيل الفجرَ أو في صباح اليوم التالي .

لم يكن العشاء الرباني اجتماعًا شعبيًا عامًا ، و نادرًا ما كان يؤتى على ذكره في الخطابات الموجّهة لغير المسيحيين . فالعشاء الرباني ، في الواقع ، لم يكن معدًا إلا لأولئك الذين نذروا أنفسهم للسلوك في طريق الرب ، ليذكروه خلال هذا الاجتماع بمحبة ، و يقتربوا أحدهم من الآخر بإيمان مشترك . الاغنياء و الفقراء و مالكو الاراضي و العمال ، السادة و الخدم ، كل هؤلاء كانوا يجتمعون في غرفة كبيرة واحدة ، في بيت من بيوت هؤلاء المجتمعين ، او في قاعة خاصّة فُرزت لهذا الغرض ، و هم يأخذون أماكنهم بشوق و ترقب ، لما سيمنحهم اياه الرب حين يرفعون اليه قلوبهم بالصلاة و الدعاء ، و البركات التي سيهبها لهم لينقلوها الى الآخرين .

كانوا الى هذا يتذكرون ايضًا ، كيف أنّ الرب بعد أن غسل أرجل التلاميذ ، جلس و أكل معهم العشاء الأخير . و كانوا يُعيدون الى ذاكرتهم كلمات الرب عندما أخذ خبزًا و بارك وكسّر و اعطاهم قائلاً : « هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم . اصنعوا هذا لذكري . »[8] لقد أعادوا إجراء المشهد بأنفسهم ، فكسروا الخبز و أخذ كل واحد منهم قطعة منه . ثم تذكّروا ايضًا كيف اخذ سيدهم الكأس و قال : « هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم .»[9] و عندها نقل المؤمنون الكأس من شخص الى آخر ، و هكذا ، حتى رشف الجميع

منه رشفة رشفة . و اخيراً فكّروا في ما قاله الرب لتلاميذه عندما اوشك ان ينهي عشاءه الاخير معهم : « وصية جديدة انا اعطيكم ان تحبوا بعضكم بعضًا . كما أحببتكم انا تحبون انتم ايضًا بعضكم بعضًا . بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضًا لبعض . »[10] فشعروا آنئذ في ما بينهم بشعور مفعم بالنشاط مليء بالحيوية ، إذ غمرهم حبهم المقدس للمسيح الذي جمعهم برباط قوي ثابت لا يتزعزع .

اخبرنا ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني ، و كذلك اغسطينوس في القرن الرابع ، ان الزوار الوثنيين و المؤمنين غير المعمّدين ، كانوا يتركون الاجتماع قبل الاحتفال بذكرى العشاء الرباني . و في جميع المناسبات التي يحضر فيها أولئك ، كانوا يدركون ضرورة المغادرة قبل البدء بالاحتفال بالشعائر الدينية المقدسة ، حيث ان هناك اسراراً في هذه الطقوس و الشعائر لا يمكن اعطاؤها إلاّ للذين كانوا في سلام مع الله .[11] كان المؤمنون يتناولون الخبز و الكأس باحترام و توقير عظيمين ، لأنهما يرمزان الى جسد المسيح و دمه . و يخبرنا ترتوليانوس ايضًا أنّ الذين كانوا يشاركون بذكرى العشاء الرباني ، اهتموا جداً بألاّ تسقط كسرة خبز إلى الأرض ، و ألاّ تراق قطرة واحدة من الشراب . و عند الانتهاء من اجتماعهم ، كانت تؤخذ بعض الكسر من الخبز الى دُور اولئك الذين بلغ بهم المرض او الضعف او كبر السن حداً منعهم من حضور الاجتماع .

بعد الانتهاء من كسر الخبز ، كان المؤمنون يُدعون الى عشاء مشترك يُسمّى « وليمة المحبة » (Agapé) . وصف ترتوليانوس هذه الوليمة هكذا : « عيدنا هذا ، تظهر طبيعته من اسمه الذي يعني المحبة في اللغة اليونانية . و في هذه الوليمة لا يُسمح بأيّ فساد أو خسّة في التصرف . نجلس لنتناول الطعام ، و لكن ليس قبل ان نتذوّق اولاً نكهةَ الصلوات الى الله ، فنأكل بما فيه كفايتنا ، و نتحدث بعضنا الى بعضنا الآخر ، و نحن نعلم أن الله يستمع الى كل ما نقوله . »[12]

كان المسيحيون يأتون بعطايا ما أنعم به الله عليهم من خبز و فاكهة و غير ذلك ، كلٌّ حسب استطاعته ، و كانت هذه الهبات تشكّل اساسًا للوليمة العامة . أمّا الزائد من الطعام ، إضافة الى النقود التي يُقدّمها الواهبون ، فقد كانت تُعطى للمحتاجين من اعضاء الكنيسة ، كالأيتام و الأرامل الذين ليس لهم من يعيلهم . و كذلك الحال بالنسبة الى الذين يعانون جروحًا أو أمراضًا بالغة الخطورة و لم يعودوا يقوون على العمل ، أو الذين فقدوا موارد الرزق و اسباب العيش و سبله ، بسبب إيمانهم بالمسيح ، و هم يجتازون أزمات اذ يبحثون عن عمل آخر . على أنّ قسمًا من المال كان يُدّخر لتجهيز متطلبات الضيافة التي تُقدّم للمسيحيين المسافرين ، أو يُعطى لأولئك الذين سُرقت أموالهم او نجوا من الموت في أسفارهم البحرية وأضاعوا كل شيء . أو لدفع نفقات جنازات الموتى الفقراء من اعضاء الكنيسة . و احيانًا نقرأ عن مال استُعمل لافتداء مسيحيين سُجنوا بسبب إيمانهم ، أو أُرسلوا في عقوبات تتراوح بين الاشغال الشاقة و العبودية . و في بعض الأحيان كانت تُرسل مساعدات الى كنائس في أماكن أخرى خلال ايام المجاعات او الضيق و الحرمان . و هذا ما أكّده ترتوليانوس بقوله : « هذا ، كما يبدو ،

هو مخزوننا و رصيدنا من اللطف . فنحن لا نصرف من رصيد هذا المال لإقامة احتفالات الأكل و الشرب ، و لا لإحياء حفلات اللهو المبتذل و الصاخب ، بل لإطعام الفقراء او دفنهم . كما نساعد الاولاد و البنات الايتام المحرومين . و كذلك العجزة المقعدين بسبب المرض ، أو أولئك الذين ضاع منهم كل شيء بعدما نجوا من الموت في رحلاتهم البحرية . او ندفعه فدية لأولئك الذين في المناجم (الذين حكم عليهم بهذا العمل لأنهم مسيحيون) ، او مَن أُبعدوا عن الوطن الى جزر نائية او اودعوا السجون . »[13]

كان من المستحب أن يساهم كل عضو من اعضاء الكنيسة في تقديم التبرعات التي يمكنه ان يتبرع بها ، و لم يكن هذا التبرع إلزاميًا ، كما أن هذه التبرعات لم تكن اجوراً او تعويضًا لما يُقدّم للمتبرع او المتبرعة من بركات روحية . قال ترتوليانوس : « ليس لأمور الله أي ثمن . مع ان لنا نوعًا من صندوق المال ، لكنه ليس لجمع أجور او اشتركات رسمية او دينية ثابتة . كان كلّ منّا يتبرع تبرعًا صغيراً في اليوم المحدد من كل شهر ، أو في أي يوم يختاره المتبرع بنفسه ، و يتم هذا التبرع حسب إمكانيته المالية ، كما أن هذا التبرع كان اختياريًا . »[14] و حيث عرفوا أنه « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ ، »[15] كان المتبرعون مسرورين للمساهمة قدر المستطاع ، و ذلك بموجب تدبير الله و إرشاده . كتب بولس الرسول : « كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن او اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله . »[16]

لقد علّم المسيحيون انّ الممتلكات و المقتنيات ليست سوى وديعة مقدسة يجب أن تدبّر بالصلاة ، و تُدار بحكمة و رويّة و تعقّل ، للحصول على هدايته تعالى و توجيهاته . وكلّ ما يحصل عليه الرجل او تحصل عليه المرأة من الرب ، يجب استعماله بشرف و أمانة و من دون تفاخر او تباه . إنّ الانسان ليس إلا وكيلاً مُشرفًا مسؤولاً ، و سيكون عرضة للمحاسبة امام كرسي الحكَم يوم الحساب . و عليه ، يجب ان يصرف الانسان عطايا الله بحذر و تؤدة ، ولمصلحة ملكوته جلّ جلاله .

و حتى الفقراء ، فإنّ حالهم كحال غيرهم من الأغنياء ، فهم عُرضة ليحاسبوا امام الله عن كل ما بحوذتهم ، مهما كان متواضعًا . فهناك دائمًا من هو بمسيس الحاجة الى المساعدة ، و لم يُحرم أحد من امتياز خدمة المحرومين و من بركة جمع كنوز لنفسه في السماء . فكل واحد يساهم « بما تيسّر » بحسب طاقته .[17] ألسنا نعتبر من الفلسين اللذين القتهما الأرملة الفقيرة حيث قال عنها يسوع : « الحق اقول لكم ان هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت اكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة . لأن الجميع من فضلتهم ألقوا . أمّا هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها . »[18] كان هناك الكثير من الارامل في كنائس شمال إفريقيا اللواتي حذَوْن حذو هذه الأرملة الفقيرة . لقد كان كنزهن قليلاً في هذه الدنيا ، و لكنه كان كبيراً في الجنة .

على أن مثاليات المسيحيين تخطّت حدود المادة الى ما هو أبعد من ذلك بكثير . فوصلت الى حد تكريس شخصية متفانية للغاية . لقد كرّس الأفراد أوقاتهم و قواهم الجسدية و قدراتهم الأخرى للعمل الإلهي . فهناك أساليب عديدة يستطيع المؤمن من طريقها ان يخدم الآخرين في

الكنيسة . أوضح العهد الجديد ذلك بالقول : « لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل حكمة معلمون و منذرون بعضكم بعضًا . »[19] و ليس مرة واحدة فقط في الأسبوع « بل عظوا أنفسكم كل يوم . »[20] كان هناك كثيرون في حاجة إلى هذا الوعظ والتشجيع ، و كان من بينهم أناس حديثو الإيمان ما زالوا يتخبّطون في شكوك و أسئلة تحتاج الى حل . كما كان بعض المؤمنين القدامى يُعانون آلامًا مبرحة : سيد قاس غَليظ ، زوجة وثنية تتذمر و تشكو باستمرار ، زوج وثني مستبد متغطرس ، و ربما مرضٌ مزمن او عمى او شيخوخة . لقد كان على المسيحيين « افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم . »[21] و مهما واجهوا من مشاكل و عقبات في البيت الذي يزورون أصحابه ، فهناك دائمًا مصدر لا ينضب و لا يكلّ يقف في وجه هذه الحاجات البشرية : إنه محبة الله نفسه . فالله قريبٌ دائمًا ممّن يحتاج إليه ، و قد أوصي الكتابُ المقدسُ المؤمنين قائلاً : « مصلّين بكل صلاة و طلبة كل وقت في الروح و ساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة و طلبة لأجل جميع القديسين .»[22] وكانوا يحصلون على استجابات كثيرة لصلواتهم .

كان بإمكان المرأة ، بشكل خاص ، أن تعمل أمورًا كثيرة ، عندما يكون زوجها مشغولاً في العمل ، و في متطلبات الحياة الأخرى . كانت صديقات النسوة و جاراتهن يرحّبن بهن في دورهن . و كُنّ دائمًا ، يتركن خلفهن انطباعًا طيبًا للغاية . فالمرأة المسيحية المؤمنة كان لها تقدير كبير بسبب ما أعطاها الله من زينة روحية عميقة في « زينة الروح الوديع الهادىء الذي هو قدام الله كثير الثمن . »[23] هي لطيفة عطوف ، تصغي جيدًا و بكل أدب ، وهي الى ذلك صديقة مخلصة . و مثل تينك النساء يكنّ بركة حيثما ذهبن . كانت «مشهودًا لها في أعمال صالحة . . . ربّت الاولاد ، أضافت الغرباء ، غسلت أرجل القديسين ، ساعدت المتضايقين ، اتّبعت كل عمل صالح . »[24] إنّ هذه الخدمة التي قدمتها النساء لأولاد الله ، قُبلَت و كأنها خدمة للرب يسوع المسيح نفسه . « يا رب متى رأيناك جائعًا فأطعمناك او عطشانًا فسقيناك . و متى رأيناك غريبًا فآويناك . او عريانًا فكسوناك . و متى رأيناك مريضًا او محبوسًا فأتينا اليك . » فيجيب الرب يسوع و يقول لهم : « الحق اقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم . »[25]

كان المسيحي قبل ان يسافر الى بلدة او مدينة أخرى ، يسأل اصدقاءه إن كانوا يعرفون أحدًا من تلاميذ المسيح او أتباعه في تلك الديار التي سيزورها . و بعد أنْ يُزوّده المؤمنون باسم أحد القادة او النظار في الكنيسة هناك ، أو بموقع او مكان عمله ، كان المسافر يقصده حالما يصل الى المكان . فإذا لم يتمكن الناظر شخصيًا من الاعتناء بالزائر ، فإنه كان يجد له مأوى مع عائلة مسيحية أخرى . فالنزل او الفندق الصغير في تلك الأيام ، كان مأوى معروفًا للرذيلة والدعارة ، يكثر التردد اليه . لذا لم يكن المؤمنون يُرسلون اليه . لقد كانت إضافة الغرباء واجبًا ضروريًا وعاملاً أساسيًا مطلوبًا من المسؤولين في الكنيسة . « لأنه يجب أن يكون الأسقف (الناظر) بلا لوم . . . بل مضيفًا للغرباء . »[26]

و لكنْ ، بنمو الكنيسة ، اعتاد بعض المحتالين ، ان يستغلّوا احيانًا ، المسيحيين ولطفهم . ولمنع ذلك ، فقد أصبح من الضروري على المسافرين الغرباء ان يتزوّدوا بكتاب تعريف موقّع من أحد شيوخ الكنيسة . و حتى بالنسبة الى النظّار الذين يسافرون لحضور المؤتمرات في قرطاجة أو غيرها من المدن ، كان لزامًا ان يعرّف بهم ناظر آخر و احد على الأقل قبل أن يؤذن لهم بالدخول . فقط كبار القادة المشهورين ، لا يحتاجون الى شهادة او تعريف ، لأن مثل هؤلاء تشهد ثمار حياتهم و سيرتهم عن الايمان . و الرسول بولس يسأل في هذا المجال ممازحًا : « أفنبتدئ نمدح أنفسنا ، أم لعلّنا نحتاج كقوم رسائل توصية اليكم او رسائل توصية منكم . أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة و مقروءة من جميع الناس . »[27]

كان مسيحيو شمال إفريقيا الأولون يعمّدون من يهتدي الى الإيمان ، كما فعل يوحنا المعمدان ، و ذلك بتغطيس المهتدي في الماء . و ترمز هذه المعمودية قبل كل شيء ، الى بداية نقيّة منتعشة حيّة ؛ أي انها رمز موت الإنسان القديم و قيامة الإنسان الجديد ، زوال الخاطىء و ظهور الانسان المبرّر . لأنه كما يغسّلُ الماء الجسم ، كذلك يعمل غفران الله على تنقية الضمير . و غالبًا ما كان المسيحيون يعتمدون في الجداول و الأنهار و في بعض الأحيان يعتمدون في البحر . لم تكن الأحواض الخاصة بالمعمودية قد استُنبطت بعد ، لأنها لم تُعرف إلا في بداية القرن الرابع للميلاد ، و قد شُيّدت خصيصًا لهذا الغرض ، و زُودت بدرجات تقود المرشّح الى داخل الماء . هذا ، و إنّ بعض تلك البرك شُيّد بشكل يمكن اضرام نار تحت ارضيتها لتسخينها .

كانت المعمودية مناسبة عظيمة تُوقع الرهبة في النفوس ، و كان المقبلون على المعمودية يستعدّون لها بالصوم و الصلاة . كما كان المؤمنون يعترفون بخطاياهم علانية أمام الجميع ، ويتبع ذلك ، الابتعاد عن توافه ابليس و إغراءته . بعد كل ذلك يقاد المرشحون للمعمودية الى الماء . وعندما يقف المرشح للمعمودية أمام الماء ، يُسأل عن مدى إيمانه . فيؤكّد ثقته بيسوع المسيح ويعلن عن رغبته في أن يتبعه بإخلاص و إصرار . ثم يغطّس في الماء ، باسم الآب ، و الابن ، و الروح القدس . وفي بعض الأحوال ، إذا كان المرشح طاعنًا في السن او عاجزًا واهن القوى ، أو إذا لم يكن هناك مكانٌ ملائم للغطس ، يمكن إجراء المعمودية بسكب الماء فوق رأس المؤمن باسم الآب و باسم الابن ثانيًا ، و أخيراً باسم الروح القدس .[28]

ففي زمن كتابة العهد الجديد ، كان اولئك الذين آمنوا يُعمّدون فور إعلان ايمانهم ومجاهرتهم به . ومثال على اولئك المؤمنين الوزير الإثيوبي و كرنيليوس قائد المئة ، وليديا والسجان الفيلبي . فجميع هؤلاء اعتمدوا في اليوم ذاته الذي سمعوا فيه البشارة ، و آمنوا بالرب يسوع المسيح . لقد قبل هؤلاء الرسالة بصدق و إخلاص و اعتمدوا فور قبولهم لها . كانت البشارة في عهد الرسل مثيرة ، و عملها سريع و فوري ، و زخمُ هذا التبشير لا يطيق التأخير أبدًا . لم ترفض الكنيسة ان تحقق أمنية أولئك الذين رغبوا في إعلان ايمانهم امام الملإ وبشكل مفتوح .[29] و لكن مع الوقت بات واضحًا ، و للأسف ، انه يمكن للانسان ان يطلب العماد من دون ان يكون لديه مثل هذه الحوافز النقية الخلوصة . و حتى في العهد الجديد نفسهَ ، نجد ان الساحر المشعوذ سيمون ، الذي كان ايمانه بكلمة الله ظاهريًا فقط ،

قد اعتمد كبقية المؤمنين . و لكنْ ، سرعان ما اتّضح أن أغراضه كانت غير نقية ، و فهمه للإيمان كان مضطربًا و باطلاً . و نفهم من كلام بطرس لسيمون انه اذا كان قد طلب المعمودية من دون أن يكون جديرًا بها ، فهو وحده يتحمّل الذنب و يستحقّ أن يعاقَب على تصرّفه .[30]

كان من المفضّل تجنّب مثل هذه الحالات الشاذة ، لذلك وجدت كنائس القرن الثاني للميلاد انه من الحكمة ان تؤجل المعمودية ، على الأقل ، حتى يناقش كل من يرغب في المعمودية مبادئ الإنجيل مع قادة الكنيسة ، و يفهمها بعمق . فبدأت الكنيسة تعطي دروسًا نموذجية لأولئك الذين يطلبون المعمودية ، متأكدة في الوقت عينه من أنهم قد بدأوا يدركون أهمية الخطوة التي يريدون ان يخطوها . و كان لهذا الأمر أهمية كبرى في تلك الأيام ، حيث كان الإيمان بالمسيح والاعتراف به جهرًا ، يكلّف صاحبه أحيانًا حريته أو حياته ؛ كما أن قبوله في جماعة المسيحيين قد يكلّف الآخرين حريتهم أو حياتهم في حال برهن هذا الشخص أنه خائن أو صانع شغب . قال ترتوليانوس : « يجب ان يعلم المسؤولون عن المعمودية انه لا يجوز ان يُجروا هذه المعموديات من دون تبصّر او رويّة ، لذا فإنه من المفيد تأخير المعمودية ، لدرس حالة و شخصية كل مرشّح للمعمودية بتمهّل . »[31] و قد نصح ترتوليانوس بعدم تعميد اولئك الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد ، خشية ان يتعرّض ايمانهم للتجربة اذا ما واجهوا تجارب المراهقة و إغراءاتها ، فيجلبوا العار على اسم المسيح . و أضاف ترتوليانوس يقول : « إنّ اولئك الذين يستمعون الى كلمة الله ، عليهم ان يكونوا مشتاقين الى الحصول على المعمودية ، لا أن يطلبوا المعمودية بسرعة ، و كأنها حق لهم ، فالمشتاقون للمعمودية يشرّفونها ، أمّا اولئك الذين يطالبون بها بسرعة فسيزدرون بها سريعًا . . . إذًا ، فالأول يشتاق أن يكون مستحقًا لها ، بينما الثاني يظن أنه مستحق لها و يعتبرها من حقه . »[32]

و بحلول القرن الثالث للميلاد ، أصبحت فترة تحضير الأشخاص و تعليمهم واختبارهم تمتدّ الى ستة أشهر ثم الى سنة ، و في بعض الأحيان وصلت مدة الاختبار الى ثلاث سنوات ؛ ان الوقت المفترض للمرشح يختلف من مكان الى آخر . فالكنائس الكبرى كانت تُعيّن معلمين مخصّصين لتعليم مرشحي المعمودية على أساس عقيدة الإيمان . و كل من كان يُقدّم طلبًا ليتعمّد كان يُسأل أولاً لماذا يريد ان يتعمّد . و بعدها يتمّ الاستفسار عن تجارته او مهنته ، فإذا كان عمله يُظهر تعارضًا مع الايمان المسيحي ، كان عليه اولاً ان يتخلّى عن ذلك العمل قبل أن تُجرى مراسيم معموديته . و بعد ان يتعمّد ، يمكنه ان يشارك في العشاء الرباني ، و أن يشارك مشاركة كاملة في حياة الكنيسة .

منذ البداية الأولى ، كان قادة الكنائس يواجهون ذلك السؤال الصعب عمّا يجب عمله بأولئك الذين يقعون في خطية خطرة بعد معموديتهم . و هذا الأمر لم يكن يهم قادة الكنائس وحدهم ، بل ايضًا جميع المهتمين بسعادة اخوتهم و أخواتهم بالمسيح . و قد كان هدف التهذيب الروحي هو أن يدلّ الأئمة الى طريق التوبة و الرجوع الى الرب . كتب الرسول قائلاً : «إن انسبق انسان فأُخذ في زلة ما فأصلحوا انتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ناظرًا الى نفسك لئلا تجرّب أنت أيضًا . »[33] فإذا ما وجد المسؤولون أية علامة من علامات التوبة الحقيقية و العزم

على ألاّ تتكرر المعصية ، عندها يُرحّبُ بعودة الآثم الى جماعة المؤمنين و الكنيسة . و يجب عندها ان يسامَح و يُقبل في الكنيسة من جديد . قال بولس الرسول : « تسامحونه بالحري وتعزّونه لئلا يُبتلع مثل هذا من الحزن المفرط . »[34] ولكنْ من ناحية أخرى ، إذا لم تظهر علامات تدل على الندم الحقيقي ، او رغبة حقيقية في إطاعة كلمة الله ، يجب استثناؤه من عضوية الكنيسة و اجتماعاتها . « أمّا الآن فكتبت اليكم إن كان احد مدعواً أخًا زانيًا او طماعًا او عابد وثن او شتامًا او سكيراً او خاطفًا ، ان لا تخالطوا و لا تؤاكلوا مثل هذا .»[35]

و الواضح من كل ذلك ، أنّ المؤمن المعمّد ، الذي وُجد متورطًا بخطية الزنا ، او عبادة الأوثان ، كانت الكنيسة تعامله بأكثر قسوة من المؤمن الجديد الذي أفلت حديثًا من هذه الأمور التي لا تزال تمارس تأثيرها فيه . أما الوثني الذي كان على حافة الجماعة المسيحية ، كهؤلاء الذين كانوا مرتبطين ببعض أعضاء الكنيسة قبل إيمانهم ، فقد كانت الكنيسة تعاملهم بلطف و صبر إذا ما وقعوا في الخطيئة والرذيلة . فلم يكن أمراً مفاجئًا أن يرتكب هؤلاء الوثنيون الزنى او ان يعبدوا الأصنام ، لأنهم لم يعرفوا بعد طريق الله و لا اختبروا قوة روحه في قلوبهم .

و قد كتب ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني للميلاد ، كيف ان المسيحيين كانوا جديين في التشديد على مسألة التهذيب و الانضباط ، و كذلك في دعوة بعضهم بعضًا الى المحافظة على نقاوتهم و قداستهم : « نحن جسد متّحد بمعتقداتنا الدينية ، و بتهذيبنا المقدس ، وبرباط الرجاء . اننا نقوم بالوعظ و التنبيه و التوبيخ الروحي لأننا نضطلع بمسؤوليات الحكم بجدية و رزانة كبيرة ، عالمين في المطلق أننا تحت نظر الله . و حينما يخطئ شخص بشكل كبير يجعلنا نُقصيه عن المشاركة في صلاتنا و اجتماعاتنا ، و من كل شركتنا المقدسة ، فإننا نكون بذلك قد أعطينا صورة عن يوم الحساب العظيم الآتي . »[36]

فإذا ما استُثني مسيحي ما من العبادة في الكنيسة و من العشاء الرباني ، فإن مثل هذا العقاب يبدو مرعبًا ، و في ذلك الوقت نقرأ عن أناس استمر حرمانهم مدة عشر سنوات او عشرين ، مع ما يشمل ذلك من الذل و الهوان من أجل إعلان توبة حقيقية صادقة ، و لاستعادة قبوله في شركة شعب الله . كتب لنا ترتوليانوس أنّه يجب على المؤمن الذي أخطأ الى الله عمداً ان يُظهر توبته باعتراف شامل بخطاياه ، و أن يمتنع عن كل الملذات ، و أن يصلّي بشكل دائم و يصوم ، و أن يناشد الإخوة ان يصلّوا من أجله و عندئذ فقط يتأكد انه لن يسقط في الخطية من جديد .[37] امّا أوريجانوس الذي كتب في الفترة نفسها ، فقد قال إنّ المسيحيين الذين سقطوا في خطيّة شنيعة ، لا يمكن إعادة قبولهم في جماعة المؤمنين إلا بعد فترة طويلة من الاختبار الذي يمكن من خلاله معرفة ما اذا كانت توبتهم توبة حقيقية ، على أنه لا يمكنهم في ما بعد أن يأخذوا مركزاً او رتبة قيادية في الكنيسة على الإطلاق . و قد أضاف ترتوليانوس الى ذلك قائلاً إن القائد الروحي يُجرّد من وظيفته و مسؤولياته نتيجة زلّة او هفوة واحدة ، و لا يمكن ان يعاد الى رتبته مرّة ثانية بعد ارتكاب مثل هذه الزلة او الهفوة ، و قال مضيفًا إنه لأمر حيويّ جداً ، أنْ يمارس كلّ المسيحيين ما يعظون به . و يجب بكل وضوح ، أن يُظهروا للناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، أنه لا يجوز النفاق و الرياء في الكنيسة و لا يسمحَ بهما . و لهذا السبب لا تُقبل داخل الجماعة المسيحية إلاّ المستويات العالية من الفضيلة .

أمّا في المدن الصغيرة و القرى ، فقد استمرت اجتماعات المؤمنين في البيوت او الحقول و الغابات . على أنه في أواخر القرن الثاني للميلاد ، و بالرغم من الاضطهادات و المضايقات التي ابتلت بها جماعات المؤمنين ، أُفرزت أبنية خاصة للعبادة في المدن الكبرى . إن أبنية الكنائس في إفريقيا الشمالية تشابه بيوت السكن العادية التي يعيش فيها عامة الناس ، في ما عدا وجود غرفة مركزية كبيرة . و غالبًا ما تكون هذه القاعة مقبّبة ، وفيها مقاعد أمامية مرتفعة ، و هي مخصصة لأولئك الذين يقودون الاجتماعات . ويُجهّز جزء من هذه الغرفة « لمائدة الرب » التي يوضع عليها الخبز و الشراب في أوقات العبادة . أمّا زينة القاعة ، فبسيطة كبيوت المؤمنين العادية ، و ليس هناك أكثر من رسم بسيط يُبيّن مشهدًا خاصًا بالكتاب المقدس او رمزًا للطريق المسيحية ، مثل لوحة جميلة من المرمر تمثّل الراعي الصالح ، و قد وُجدت هذه اللوحة في مقبرة تحت الأرض في مدينة سوسة بتونس .

و لكن يظهر أنّ الرمز المفضّل عند المسيحيين الأوائل كان « رمز السمكة » . فإن العبارة اليونانية « إختُوس » (ichthus) ، تشتمل على حروف استهلالية باللغة اليونانية للكلمات الخمس : يسوع المسيح ابن الله المخلّص . و يتحدّث ترتوليانوس عن هذا الرمز بشغف ، حيث أنّ الرمز بحدّ ذاته هو اعتراف ضمني بأن يسوع هو المخلّص المنتظر و ابن الله المتجسّد . و لذلك فالمؤمنون يحملون هذا الرمز بافتخار .

كان مسيحيو إفريقيا الشمالية يحبون ان يزيّنوا آنيتهم و أدواتهم وكذلك بيوتهم و مدافنهم بهذا الرمز ، او يرسمون عليها مرساة او يمامة . و لم يظهر الصليب في الفن المسيحي لشمال إفريقيا إلا في أواخر القرن الرابع للميلاد .[38] و الواقع ، أنّ في ذلك عجبًا ، لأنّ الصليب كان شيئًا معروفًا و شعبيًا في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية . ففي هرقولانيوم في جنوب ايطاليا (Herculaneum) ، وُجدت آثار نموذج لصليب مدفونة في الحمم اللابيّة لثورة البراكين التي وقعت في سنة 79 ميلادية . و لربما لم يُستعمل رمز الصليب في شمال إفريقيا إلا قليلاً ، لأنه يشابه كثيراً المثلث ، الذي يرمز الى الإلاهة الفينيقية تانيت .

لم يتبنَّ الوثنيون المهتدون الى المسيحية استعمال الأسماء المسيحية قبل حلول القرن الثالث او الرابع الميلادي . و قد استخدموا أحيانًا الأسماء المذكورة في الكتاب المقدس او غيرها من أسماء وثنية كان يحملها أناس استُشهدوا ببطولة في سبيل الدين المسيحي في الماضي أو أسماء بعض مشاهير المؤمنين المسيحيين . و من الواضح انهم كانوا يختارون أسماءَهم بعناية . و بعض هذه الأسماء تعبّر عن صفات شخصية كالاتضاع او الصبر ، و أخرى تتحدث عن السرور و النصر و الحياة الأبدية .[39] و لكن قبل هذا التاريخ ، و إبّان القرنين الأول والثاني ، أبقى المهتدون اسماءهم الوثنية بشكل عام ، حتى و إن كانت هذه الأسماء تشير الى آلهتهم الوثنية التي سبق أن عبدوها . فإذا غيّر المهتدي اسمه ، فإن ذلك سيكون برهانًا عمليًا عن تحوّله الى المسيحية و رفض الآلهة التي كانت تدعم المجتمع . و على أثر ذلك قد يغضب الأهل الوثنيون ، كما أنه قد تتاح بذلك الفرصة للعديدين لإحياء الضغائن ضد المسيحيين ، كل ذلك لا لأجل مبادئ روحية ، بل بسبب أسماء ليس إلا . بدل ذلك ، كان من الأفضل إظهار

حقيقة حب الله العملية ، و ذلك بحياة شريفة غير أنانية ، و اجتذاب الأصدقاء و الجيران الى الإيمان بالرب بهدوء و بملء إرادتهم . لقد تبنّى المسيحيون الأوائل نصيحة بطرس الحكيمة بجديّة : « قدّسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائمًا لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة و خوف . »[40] لكن ، و بمرور السنوات و بينما كانت جماعة المؤمنين تنمو و تزدهر باطّراد ، رفض أعضاؤها ان يخفوا ضوء الإيمان تحت المكيال ، و بشجاعة كانوا يشهدون ، بالأسماء التي كانوا يحملونها ، للرجاء الذي نذروا انفسهم لأجله .

ملاحظات

1- 1 تيموثاوس 13:4

2- *Apologia* I:67 (*ANF* Vol. I)

3- *Apologeticus* 39

4- إن عيد الميلاد ، أي يوم ذكرى ميلاد المسيح ، أُضيف ابتداء من القرن الرابع ، الى الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون .

5- *Apologeticus* 16 ؛ *Ad Nationes* 13

6- اعمال 7:20

7- 1 كورنثوس 23:11

8- لوقا 19:22

9- لوقا 20:22

10- يوحنا 34:13 و 35

11- Hamman p. 239 ؛ Foakes - Jackson p. 230, pp. 229 - 236

12- *Apologeticus* 39

13- *Apologeticus* 39

14- *Apologeticus* 39

15- اعمال 35:20

16- 2 كورنثوس 7:9

17- 1 كورنثوس 2:16 ؛ 2 كورنثوس 2:8

18- مرقس 43:12 و 44

19- كولوسي 16:3

20- عبرانيين 13:3

21- يعقوب 27:1

22- أفسس 18:6

23- 1 بطرس 4:3

24- 1 تيموثاوس 10:5

25- متى 37:25 - 40

26- تيطس 7:1 و 8

27- 2 كورنثوس 1:3 و 2

28- Foakes -Jackson p. 230 - 231

29- اعمال 38:2 ، 41 ؛ 12:8 ، 38 ؛ 48:10 ؛ 33:16

30- اعمال 9:8 - 24

31- *De Baptismo* 18

32- *De Poenitentia* 6

33- غلاطية 1:6

34- 2 كورنثوس 7:2

35- 1 كورنثوس 11:5

36- *Apologeticus* 39

37- *De Poenitentia* 9

38- كان المسؤولون الإيطاليون الذين كتب إليهم ترتوليانوس في نحو العام 198م ، على علم بأن رمز الصليب هو مستخدم في العبادة المسيحية . إلاّ أن ترتوليانوس كان يشير الى عادة أوروبية ، و ليس بالضرورة إفريقية . (*Ad Nationes* 1:12 ؛ *Apologeticus* 16)

39- Latourette Vol. I pp. 261, 283

40- 1 بطرس 15:3

الفصل السابع

انتصار الحق

و في حوالي 160 للميلاد ، و في مدينة قرطاجة ، وُلد طفل لقائد مئة كان يعمل في خدمة الحاكم الروماني . و قد دعي هذا الطفل كُونْتُوس سِپْتِيمِيُوس فْلُورنس ترتُولْيَانُوس (Quintus Septimius Florens Tertullianus) . و لم يكن أبواه يُدركان ان ولدهما هذا سيصبح شخصية رفيعة المقام و النفوذ في أبناء جيله بشمال إفريقيا . لقد حظي ترتوليانوس بتعليم ممتاز ، و تخصص بعلم الفلسفة و القانون . انغمس في شبابه انغماسًا متهوّرًا بالرذيلة المفرطة التي كان يمارسها المجتمع الوثني . كذلك كانت تمارس الطقوس الدينية الوثنية ، و لكنه لم يفكر كثيراً في معاني هذه الطقوس او في مغزاها .

و لما بلغ الخامسة و الثلاثين من عمره ، قادته الأحداث الى أزمة شخصية . كانت السلطات الرومانية ، و لفترة من الوقت ، تراقب عن كثب ، نموّ الجماعة المسيحية في قرطاجة و تطوّره ، بريبة و شك متزايدين . فلم يكن المسيحيون يشاركون في التقدمات العامة ، و لا كانوا يحلفون بالعظمة السامية للامبراطور . فجأةً ، أُلقي القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين ، و أُمروا بأن يخضعوا . وقد تأثر ترتوليانوس جدًا من الشجاعة الخارقة التي أبداها المسيحيون في مواجهة الآلام القاسية التي كانت تصدرها السلطات الوثنية بحقهم . كان يعرف هؤلاء الرجال و النساء المسيحيين جيدًا ، و يدرك تمامًا أنهم براء من أي فعل سيء . كان المسيحيون قومًا شرفاء أفضل كثيرًا في الواقع من الوثنيين الذين كانوا يسيئون إليهم . و ها هو الآن ، يشاهد بأمّ عينيه كيف يرفض هؤلاء المسيحيون أن يتنكروا لمعتقداتهم و إيمانهم ، بينما يواجهون الموت الجسدي بثقة و شجاعة باسلة ، مؤمنين بأنهم سيقومون من الموت ثانية . هذا الإيمان الواثق لم يجده ترتوليانوس في وثنيته السطحية المبادئ . كان عند المسيحيين ، وبكل وضوح فرح من نوع آخر و أعمق من ذلك الذي كان ينشده الناس في التسليات اللاأخلاقية في قرطاجة . كانت وجوه المسيحيين تُشرق إشراقة نبيلة هادئة ، و تسمو بهم فوق مستوى الرعاع ، و فوق مستوى معذّبيهم الرومان . و عندما كان ترتوليانوس يتأمل هذه الأمور ومضامينها ، كان يزداد اقتناعًا ، بأنّ هذه الحفنة من الرجال و النساء ، لا بدّ من أنهم يملكون شيئًا جديدًا لا يُقدّر بثمن . فإذا كان درب المسيح هو الحق ، فليس أمامه إذًا ، سوى طريق واحد يمكنه السلوك فيه .

لم يكن ترتوليانوس ليقبل بأنصاف الحلول ، و قد تكشّفت هذه الصفة فيه بعدما اعتنق المسيحية ، حيث كان اندفاعه حماسيًا مُتّقدًا ، و ايمانه حادًا ، كما كانت مواصفاته عادة . لقد

غيّره إيمانه الجديد بشكل جذري . ، فحياته التي كانت بلا أهداف تُذكر ، أخذت اتجاهًا ثابتًا وراسخًا ، وشخصيته التي كانت متقلقلة صارت ثابتة ، و أفكاره التي كانت متقلّبة أصبحت مستقرّة على المبدإ الذي عرفه أنه مبدأ قويمٌ و حق . و شعر كأنه انسان جديد ، ورجل كامل ، و كان شعوره صادقًا . و في ما بعد ، كتب يقول : « يُصنع المسيحيون و لا يولدون هكذا . »[1] و حقًا كان هذا اختباره الشخصي . هذا ، و إنَّ مخيّلته الخصبة كانت تشدّه باستمرار الى طريق المسيح . أخيرًا وجد السبب الذي من أجله كانت نفسه الحيوية والحساسة تصرخ باستمرار : إنّه الهدف الذي يستحق ان تُكرّس له الحياة و الطاقات كلها . لقد وضع يده على المحراث ، و منذ الآن فصاعداً ، لن ينظر ترتوليانوس الى الوراء أبدًا .

إن كانت الرسالة المسيحية هي التي صنعت الرجل ، يبقى أن الرجل كان ايضًا نافعًا للقضية التي تبنّاها . و لم تمض إلا فترة وجيزة على اهتداء ترتوليانوس الى طريق الحق ، حتى باشر التبشير بالإيمان و تعليمه في قرطاجة ، و كانت دعوته هذه ناجحة ، بحيث أنه لم يعد لديه الوقت لممارسة البلاغة و الفصاحة في مهنة المحاماة . فقد خصّص وقته الكامل لخدمة الانجيل ، متّكلاً على الله بكل بساطة لسد كل احتياجاته . بدأ ترتوليانوس يكتب عن الحياة الجديدة التي كان الله يكشفها له ، و من هذه البداية أظهر ترتوليانوس حبه لوطنه إفريقيا الشمالية ، و بالأخص لقرطاجة وطنه الأم .

و ككاتب مسيحي مؤمن ، يقف ترتوليانوس وحيداً تقريبًا بين بني جيله . لقد ضاعت بعض كتاباته ، و خصوصًا كتاباته الأولى ، و بعض الكتابات باللغة اليونانية . أمّا ما تبقّى له من كتابات ، فهو كثير نسبيًا ، على الرغم من ان معظمها قصير و موجز . كانت هذه الكتابات عملية موضوعية ، تعالج التساؤلات الملحّة التي كانت تواجه المسيحيين في تلك الحقبة من الزمن ، و كانت تشمل عدداً كبيراً من المواضيع . و هذه الكتابات تعطي كمية وافرة من المعلومات القيِّمة عن المجتمع الوثني والمسيحي في إفريقيا الشمالية إبّان الفترة الأخيرة من القرن الثاني للميلاد .

كانت باكورة أعماله الرئيسة بل أعظمها ، كتاب علم الدفاع عن المسيحية أپولُوجيتيكُوس أو أپولوجي (Apologie) . و قد كتب هذا الكتاب في نحو سنة 198 ميلاديّة ، خلال الحكم الاستبدادي للامبراطور المتوحش المدعو سپتيمْيُوس سفيرُوس . إن هذا الكتاب هو تقديم ممتاز للإيمان المسيحي ؛ لم يكن معالجة أكَاديمية موَجهة الى امبراطور مثقّف ، ذي ذوق فلسفي و أدبي رفيع ، بل كان تفنيداً عنيفًا ، كُتب إبّان فترة الاضطهاد ، لحكّام رفضوا انّ يصغوا ، ولو الى كلمة تقال في الدفاع عن المسيحية ، و حكموا على المتّهمين لمجرّد اعترافهم بأنهم مارسوا دينًا غير مرخّص به و هم يرفضون تركه . إن العنوا ن أپولوجتيكوس لم يكن يعني « اعتذاراً» او «أسفًا» او تبرئة من إثم مرتكب ، كما تفيد هذه الكلمة الفرنسية بمعناها الحديث ، بل يمثّل على نقيض ذلك ، اثباتًا منطقيًا لوجهة نظر معيّنة ، مقرونًا ببرهان منطقي لصحتها و شرعيتها ، و بيّنات مقنعة لمقبوليتها .

يبدأ ترتوليانوس دفاعه بإظهار بطلان عملية إلقاء القبض على المسيحيين و كأنهم مجرمون ، و قد كان القضاة يعذّبونهم ، لا ليعترفوا بجرائم خفية غامضة ارتكبوها ، بل لإجبارهم على التنكّر لإيمان نزيه . قال ترتوليانوس : « أمّا الآثمون الآخرون ، فإنهم يُعذّبون من أجل حملهم على الاعتراف . فلماذا يجري تعذيبنا نحن ، فقط لننكر ما نعلنه بملء إرادتنا؟ »[2] ثم يتساءل عن السبب وراء عداء الناس المتحمس و الموتور ضد المسيحية والمسيحيين . إنّ التحامل العالمي الشامل ضدنا هو في الواقع غير منطقي و لا أساس له . إن الأشخاص الذين نعيش بين ظهرانيهم يعلمون هم أنفسهم أنّ المسيحيين هم أفضل ما يمكن ان يقابلوا من رجال و نساء ، و مع ذلك فهم يحتقروننا . يقولون : « إنّ الانسان كَايُوس سيُوس هو رجل طيّب لكنه مسيحي . » و نسمع ايضًا : « أنا أندهش لأن هذا الرجل الفطن المَدعو لُوكيُوس تيتيوس قد اعتنق المسيحية . »[3] ثم تحدّاهم ترتوليانوس مستفسراً لماذا الأزواج والآباء و السادة يَفضلون أن يبقى أبناؤهم و زوجاتهم و خدمهم الوثنيون مخادعين و متمردين بدل أن يصبحوا مسيحيين صادقين و محترمين . هل من المعقول أنهم يفضّلون العيش مع زوجة وثنية محتالة او ابن او خادم مخادع وثني ، بدلاً من العيش مع شخص مسيحي شريف ؟

لماذا يكون المسيحيون مكروهين هكذا ؟ « فإذا ارتفعت نسبة المياه في نهر التيْبر الى مستوى ضفافه ، و إذا فشلت مياه نهر النيل في الوصول الى الحقول ، و إذَا لَم تهطل الأمطار ، و إذا حدثت هزّة أرضية ، و إذا حدثت مجاعة او جاء وبأ ، فإن الصرخة الفورية تقول : " خذوا المسيحيين الى ميدان الأسود . "»[4] لماذا نُلام نحن المسيحيين بسبب أمور عامة تحصل لجميع الناس ؟ هذا بالطبع ليس عدلاً ، و هو مناف لأبسط الأعراف و التقاليد الرومانية . كان ترتوليانوس يعرف ما يقول . « انه يكتب كمحامٍ مشدّدًا في مرافعته على لا شرعية الاضطهاد الممارس ضدّ المسيحيين ،و على ان القوانين المنفّذة ضدّهم هي إنكار لحقوق الانسان .»[5] فصرّح حقًا : « ان من الحقوق الأساسية لكل انسان ، و من الامتيازات التي منحتها له الطبيعة ، حقّه في العبادة بموجب اقتناعاته . »[6] فلا يجوز للمواطن الصالح ان يعاني الإجحاف و التحامل بسبب ما يدين له ؛ فعلى القانون ان يكبح جماح السلوك السيّء ، لا ان يمنع المعتقدات النزيهة و الصادقة .

و قد تعلّم ترتوليانوس من خلفيته القانونية أن يتحقق من البيّنات و الحجج ، و مكّنته من استعمالها على أحسن وجه ، و قد أضفى تكوينه البلاغي و فصاحته المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمواهبه الفطرية الأصيلة ، قوّة و طاقة نافذة على تعبيره . « كان اسلوبه الأدبي ينسجم مع أفكاره . و كان هذا الاسلوب حيويًا توكيديًا فصيحًا . قاده إيجازه و عدم ترابط أفكاره الى شيء من الغموض أحيانًا . و كانت المفردات اللغوية التي يستعملها مذهلة في غناها ومأخوذة من مصادر مختلفة . لا يهمّه إن كان المصطلح كثير التقنية او قديمًا مهجورًا ، أو إن كان تعبيرًا شائعًا كثير الابتذال إقليمي الاستعمال ، إذا كانت هذه المصطلحات او التعابير تدلّ على المعنى الذي يقصده . فإذا وجد ترتوليانوس ان ليس هناك كلمة لاتينية جاهزة او قادرة على استيفاء المعنى المطلوب ، فهو يحاول استعمال كلمة يونانية ، و إن لم يجد ما يفي بالغرض ،

كان يبتكر كلمة مناسبة . يحتوي أسلوبه على عناصر السيل جميعها من مواد مخلوطة وسرعة و توجيه . فالخشب ، و الحجارة ، و الأتربة ، و أوراق الشجر ، والزهور ، و النفايات تُجرف جميعها معًا ثم تُقذف لفتح سبيل مسدود أو لقهر خصم . »[7] و تُظهر كتاباته بوضوح مقدار حماسته ، وهو ينجرف في عدّة أحيان وراء قوة اقتناعه ، و شدة حجّته . وبالأخص عند قراءة كتاباته الجدلية في تفنيد مبادئ الآخرين ، « على المرء ان يتذكر دائمًا انه يصغي الى مرافعة خاصّة ، أعدّها محام شديد التمسّك بدفاعه ، و ليس الى شهادة يدلي بها شاهد محلّف او حكم أصدره قاضي بعد أخذ جميع الآراء بعين الاعتبار . »[8]

و لكن ، ففي كل هذه الأمور ، سواء بوعي أم لا ، كان يستنبط لغة جديدة ، أو على الأقل يصوغ لغة قديمة في قالب جديد . لقد صنع من اللغة اللاتينية آلية قادرة على حمل عظمة و قوة أعمق رسالة قد يسمعها إنسان . لقد بدأ الأدب اللاتيني المسيحي فعلاً مع ترتوليانوس . كان عنده أفكار لم تظهر في هذه اللغة من قبل ، و كان مقصده الأوحد هو التعبير عنها بفعالية . فترتوليانوس هو أول من ابتكر عبارة « الثالوث الأقدس » ليصف من خلالها طبيعة الله ، و يُقدَّرُ ما ابتكره من كلمات جديدة بـ 982 كلمة تقريبًا .

يرى المؤرخ الفرنسي العظيم جُولِيَان (Julien) في ترتوليانوس أنّه المزاج الأمازيغي النشيط المتّقد بشرارة الحق المسيحي و المشتعل بهمة راسخة لا تقاوم . كان ترتوليانوس من « المهتدين البرابرة ، و لكنه استبقى تحت الغلاف المسيحي على كل حماسة البرابرة و عنادهم وحدّة مزاجهم . »[9] « يندب » ترتوليانوس أحيانًا انّقاد طباعه و حدّته . و لكنه استمر ، مع ذلك ، مندفعًا الى الأمام بنفاد صبر ، واثقًا في نفسه ، مستخدمًا كلَماته كسلاح حربي ، مناضلاً ضد مناوئيه بلا هوادة و لا لين ، منطلقًا وراءهم يقذفهم بكل أنواع اسلحته الجدلية المتوافرة ليقهرهم و يخضعهم لطاعته . و ليس من المستغرب ان تتمكن قلّة قليلة منهم فقط ، من مناقشته : هذا ، و إن مواهبه الفذّة ، لم تبق في الميدان مكانًا لأحد سواه . إن ترتوليانوس كاتب يستحيل عليك ان توافقه دائمًا ، و هو يترَك عندنا أحيانًا آثارًا موجعة ، و لكن مع كل نقاط ضعفه ، فهو رجل يمتلك عبقرية فذّة عظيمة ، و تُعتبر شخصيته أكثر الشخصيات فتنةً و سحرًا وسحرًا في تاريخ الكنيسة المسيحية .

كان لترتوليانوس قلب مُبشِّر ، و قد خصّص كتاباته قبل كل شيء ، ليربح الوثنيين واليهود و يهديهم الى الإيمان بالرب يسوع . انه يقدّم كل الأسباب الموجبة للإيمان ، و كل الإجابات المطلوبة للمعترضين . و عندما يدير أفكاره نحو الجماعة المسيحية نفسها ، تكون رغبته العظمى في أن يمكّن العالم الوثني من النظر الى هناك لرؤية يسوع . يجب ان تنسجم حياة المسيحيين مع ما يعلنونه من تعاليم الانجيل . و هو يتساءل ما جدوى الكنيسة المسيحية إذا كانت لا تستحق احترام الذين هم من خارجها ؟ فماذا يمكنها ان تحقق اذا لم تُظهر قداسة المسيح ؟ و كيف يمكن للوثنيين أن ينجذبوا الى المخلِّص اذا رأوا اتباعه في حالة شر و خطية هي أسوأ من تلك التي يتخبّطون هم فيها ؟ لقد تمنّى ترتوليانوس على الكنيسة ان تكون الشاهد المُخْلص للعالم . فعندما كان يتحدّث الى شعب قرطاجة ، كان هاجسه أن يتمكّن من الإشارة الى التحوّل الذي

يستطيع الرب عمله في الرجل أو المرأة . و لكن إن لم يكن هناك اية علامة من علامات التحوّل ، لا بدّ عند ذاك من أن يسقط وعظ الانجيل على آذان صمّاء . تحدّى ترتوليانوس منتقديه في ان يجدوا و لو مسيحيّاً واحداً متهَمًا بالتجديف ، او فساد ، او بقتل ، او بنشل ، او بسرقة ملابس المستحمين . أمّا اذا وُجد مثل هذا الشخص ، فسيجدون ايضاً انه قد فُصِلَ من شركة الكنيسة . فمثل هذا التصريح كان يحتاج الى ان تكون الجماعة المسيحية مستحقة للصورة النقية .و لو كانت هناك خطيئة في الكنيسة ؛ تصدَّعت الارض من تحت قدمي ترتوليانوس ، وتحت أقدام كل اولئك الذين يَنشُدون ربح الآخرين للايمان بالرب يسوع .

طالب ترتوليانوس زملاءه المسيحيين بأن يتجنّبوا كل مظاهر التسوية مع الفئات السياسية و الفعاليات العالمية . قال إن إمبراطوريات العالم تعلو و تهوي ، أمّا الكنيسة فأبدية . إنها مملكة روحية و ليست مملكة أرضية او مادية ، و يجب ان تبقى الكنيسة حرّة لتخدم ، و لتوفّر الاحتياجات الروحية لجميع الناس أيّا كانوا . و قد تبتهج الكنيسة إذا نظرت اليها السلطات الرومانية نظرة استحسان . و لكن إذا احتقرتها تلك السلطات و كرهتها ، فعلى الكنيسة ان تثبت وتتحمل . و لكن لا يجوز للكنيسة أن تُسخّر لخدمة قضايا السلطة مهما كانت الظروف و الأسباب : عليها ألاّ تكون أداة بيد الحكام في الامبراطورية . إن المسيحي مواطن صالح و شريف ، و لكنّ آماله لا تتأسّس على أية جمهورية او مملكة بشرية . فهو تابعٌ قبل كل شيء لأولئك الناس المدعوين « كنيسة الله » ، و عاهله هو ملك الملوك و رب الأرباب . فهناك يكمن ولاؤه و إخلاصه . سأل ترتوليانوس : « أفهل هناك أمّة ، داخل حدود جغرافية معيّنة ، تفوقنا عدداً ؟ فنحن أمّة بلا حدود ، بل حدودنا العالم بأسره .»[10]

إنّ إخلاص ترتوليانوس لإيمانه ، كحماسته له ، لم يكونا قط موضوع تساؤل . فهو واثق من موقفه ، و كل وجهات النظر الأخرى ، ليست سوى رمال متحركة . فماذا بإمكان الانسان غير المخلَّص أن يعرف عن الحق ؟ و ماذا بمقدور رجل عالمي أن يعرف عن القداسة ؟ و كيف يمكن لعابد الأصنام ان يفهم تعاليم الكتاب المقدس أو ينتقدها ؟ إن هذه الأمور ، كما قال الرسول بولس ، هي مدركة على أساس إعلان من روح الله . « و لكنّ الانسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . . . و أمّا الروحي فيحكم في كل شيء .»[11]

رأى ترتوليانوس ان المسيحي الذي يتنكّر لإيمانه هو جبان و خائن ، و لا عذر له . فإنَّ مثل هذا الشخص قد كذب و جدّف على الله لكي ينجو بنفسه ، و إذا ما عاد هذا الانسان الى الكنيسة ، فعليها ألا تقبله و كأنّ شيئًا لم يكن : هذا هو السبيل لكي تملأ صفوفها بالضالين وبالمرائين . قال ترتوليانوس إنه لا يمكن لكنيسة المسيح ان تصفح من موقع ضعف عن اولئك الذين يخونون سيّدها خيانة تامة أو يخطئون إليه عمداً . لذا يجب إبعاد المؤمن عن الكنيسة إذا عاد الى عبادة الأصنام ، او الى الأعمال الوثنية الفاجرة . ألا يستحق الرب يسوع أجَلَّ الخدمات ؟ فعلى المسيحي ان ينكر ذاته و يحمل صليبه و يتبع المسيح ، و أقل من التكريس الكامل يُعتبر إهانة للّه و لشعبه . يجب التعامل مع الخطية المرتكَبة بجدية و حزم ، تماماً كما كان يفعل رسل المسيح .[12]

كان سلطان إخراج الشياطين أمرًا مألوفًا في الكنائس في عهد ترتوليانوس . و قد أشار هذا الاخير الى طرد الأرواح الشريرة ، ليس و كأنها ظاهرة نادرة يجب التأكّد منها بجهد و بشهادة الآخرين لها ، ولكن باعتبارها حقيقة لا تُنكر ، معروفة لدى الجميع ، و يعتمد عليها بثقة للتحقق من أنّ رسالته كانت رسالة حق . إنه لا يسأل خصومه الوثنيين ان يؤمنوا بأن مثل هذه القوى لا تزال موجودة ، و لكنه يطالبهم بقبول رسالة الانجيل التي تأتي هذه القوى لتبرهن أصالتها .

كان ترتوليانوس يعرف الكتاب المقدس حق المعرفة ، و كان يقتبس باستمرار من الأناجيل ومن الرسائل ، كما من العهد القديم ايضًا . و كان يسير بكل وضوح على خط الايمان الرسولي النقي . و لا نجد في كتاباته إلاّ القليل من الأفكار الدينية الدخيلة على المسيحية ، والتي تسبّبت بعد وقت قصير بتعقيد حياة الكنائس . و قد احتجّ ضد الممارسة الجديدة الخاصة بمعمودية الأطفال . و لم يعط مريم أم المسيح في الجسد مقامًا أعلى من مقام الناس الآخرين و لم يُصلِّ لها . و رفض أيضًا المبدأ القائل بتبتّل قادة الكنيسة ، على الرغم من أنه وجد له قيمة فعلية بالنسبة الى أي مسيحي يرغب في ذلك طوعًا . و آمن إيمانًا راسخًا بكهنوت المسيحيين المؤمنين جميعهم ، و غالبًا ما كان يذكّر سامعيه ، بأنه حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسم المسيح ، فهناك يكون المسيح في وسطهم . و قد شدّد بحزم على أنّ الكنيسة الحقّ لا تقاد إلاّ بالروح القدس ، و ليس من طريق المؤتمرات البشرية . كان ترتوليانوس يتوقّع واثقًا ان يرى خلال حياته على الارض نهاية العالم و عودة المسيح و بداية المُلك الألفي .

ثم بعد مدة ، جرى على الأرجح تعيين ترتوليانوس كشيخ من شيوخ كنيسة قرطاجة ، ولكنه على غرار إقْلِمَنْدُوس الاسكندراني (Clément d'Alexandrie) وأوْرِيْجَانُوْس (Origène) ، لم يُرَقّ الى دَرجة كنسية أعلى . و يبدو انه كانت لديه تحفّظات جدية بالنسَبة الى هذا النوع من البُنى الهرمية . امرأة ترتوليانوس كانت مسيحية ، و قد أهداها بحثين كتبهما عن الزواج المسيحي ، و أظهر من خلالهما تفانيه لزوجته ، داعيًا إياها برقّة و تحبب يا أحب رفاقي في خدمة الرب . »[13] وكمعظم الرجال في عصره ، كان من المفترض ان تكون ملابس ترتوليانوس مشتملة على الرداء الأبيض بأكمامه القصيرة ، و هو عبارة عن قميص طويل يصل الى الركبتين ، مصنوع من الكتان ، و مشدود حول الخصر بحزام . إلا أنّ ترتوليانوس أظهر استقلاليته عن عادات الامبراطورية الرومانية بالاستغناء عن التوجا ، اللباس الروماني الفضفاض والمتدلّي ، مفضّلاً عليه الشملة الإغريقية ، (و هي نوع من اللباس الذي يطرحونه على الكتف الايسر) او « بليوم » الفيلسوف (و هو رداء رجالي مستطيل) . و قد ظهر تفضيله لهذا اللباس في كتاب يبحث في موضوع الملابس . و حذا حذوه في هذا الزيّ كثيرون . وعليه ، فقد أصبح لباس التوجا يختفي من الكنائس . أمّا حذاؤه ، فكان الصندل الذي كان يُربط برباط يلتف حول الكاحل . و كان يقصّ شعره قصيرًا ، و لربما كانت له لحية قصيرة ، و هي التي كانت وقتئذ تطابق الزي السائد منذ نهاية القرن الثاني . فقد أشار احد الرجال المعاصرين لترتوليانوس ، و هو أكبر منه سنًا ، و يدعى اقلمندوس الاسكندراني الى اللحية داعيًا اياها « زهرة الرجولة » . و يقول اقليمندوس

أيضًا : « إن اللحية هي الصفة المميّزة التي منحها الله للرجال وللأسود .»[14] و كان حلق الذقن آنذاك يُعتبر تخنّثًا ، و تحدّيًا لله الخالق .

كان ترتوليانوس في قرطاجة وقتما حُكمَ على پرْپيتْوا و زملائها بالإعدام عام 203 ميلادية . ويعتقد بعض الكتاب أنه هو الذي ألّفَ قصة استشهادهم أو أعدها . و في كل حال ، كان ترتوليانوس نحو هذا الوقت قد انضمّ الى فرقة من المسيحيين ، كانت تُعرف بالمونتانيين (Montanistes) ، و التي يبدو ان بيربيتوا و رفاقها كانوا ينتمون اليها . و في مطلع القرن الثالث ، كانت هذه الفرقة قد اكتسبت لنفسها بعض الشعبية في أوساط افريقيا الشمالية . وكان اعضاؤها يتبعون تعاليم ومثال أحدهم و يُدعى مونتانوس (Montanus) ، الذي كان قد شرع بالكرازة نحو العام 170 م ، و ذلك في منطقة فريجية (تركيا الحديثة) .

كان مونتانوس يعتقد أن جيله كان يقف على عتبة عصر جديد ، عصر الروح القدس ، الذي خلاله سيكون من نصيب اولاد الله جميعهم ان يحصلوا على رؤى و على إعلانات بحسب ما هو مكتوب : « يقول الله و يكون في الأيام الأخيرة اني اسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم و بناتكم و يرى شبابكم رؤى و يحلم شيوخكم أحلامًا . و على عبيدي ايضًا و إمائي اسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون .»[15] فالمسيحيون الذين التصقوا بمونتانوس شرعوا يَرَوْن و يسمعون مثل هذه الأمور . و قد صرّح قائلاً : « إن الروح يحرّك الذهن ، كما ان الموسيقار يحرّك اوتار القيثارة » ، و بهذه الطريقة يستطيع المؤمن ان يحصل على كلمات الله عينها ، و أن ينقلها الى الآخرين .

لقد أخذ المونتانيون مبادئ العهد الجديد على محمل الجدّ ، و حاولوا ان يعيشوها مهما كلّف الأمر . لم يتمكّنوا ، كما هي الحال بالنسبة الى الكثيرين سواهم ، من التوفيق بين الخدمة العسكرية وتعاليم يسوع : على المسيحيين ألاّ ينخرطوا في الجيش . كما اعتبروا ان دراسة الأدب الوثني لا يليق بالمسيحي : انها ستُضلّه عن الطريق الصحيح ، و تُعثر الناس الذين يرون هذا القارئ و يقتدون به . كانوا قد بدأوا يجتمعون في بيوتهم للصلاة و الصوم و قراءة الكتاب المقدس معًا ؛ و كانوا يشجّعون بعضهم بعضًا على الارتقاء في حياتهم الى اعلى المبادئ الأخلاقية الروحية . كانوا يتطلعون قدمًا الى مكافأة في السماء و الى حياة أفضل . فكان إيمانهم الراسخ بأن المسيح سوف يعود سريعًا ، و ستراه كل عين و يعترف كل لسان بأنه رب .[16] و من ثم سوف يجمع شعبه ويأخذهم اليه ليسكنوا معه في مجده الى الأبد . و لا يجوز للمسيحي ان تشدّه أمور هذه الحياة الفانية ؛ وإذا ما دُعي ليتألم ، او حتى يستشهد من أجل المسيح ، عليه عند ذاك ان يفرح و يبتهج لكون الله قد ميّزه بهذا الشرف العظيم . انجذب ترتوليانوس الى هذه الفرقة ، و بخاصة على أساس ما لمسه فيهم من رغبة صادقة في إطاعة كلمة الله . كان إخلاصهم القلبي يتلاءم و يتجانس مع إخلاصه هو .

لم يكن المونتانيون راضين عن بعض التوجّهات و النزعات التي ظهرت في كنائس افريقيا الشمالية ، و كذلك في آسيا الصغرى ، و لقد تمنّوا ان يروا قداسة اكثر وضوحًا في الجماعة المسيحية . و قالوا إنّ هناك العديد من المسيحيين الذين لا يعيشون

طائعين إطاعة صادقة للمسيح . فبعضهم ، كما يبدو ، كان يميل الى التساهل في الانغماس في نشاطات سيئة السمعة او الى المشاركة بالأفعال القذرة الحقيرة التي يمارسها الوثنيون ؛ فكان يُجدّف على اسم المسيح من جرّاء ما يمارسه هؤلاء المدعوون مسيحيين . و اعتبروا أنه يجب طرد مثل هؤلاء من الكنائس . كان من الضروري في نظرهم ان يُعطى الذين من خارج - يهوداً كانوا ام وثنيين - فرصة لسماع بشارة الإنجيل . لكن يجب عدم تسميتهم مسيحيين حتى يصبحوا هكذا فعلاً ، أي حتى يتنكروا لذواتهم ، و يحملوا صليبهم و يتبعوا المسيح .

اغتاظ المونتانيون عند تنامي البنية السلطوية للكنيسة ، و التي قيّدت الكنائس بعضها ببعضها الآخر ، و أعاقت حريّتهم في الاجتماعات . إلى هذا ، ظهرت نزعة متنامية لدى القادة في المدن الكبيرة للتسلّط على القطيع حتى إنهم أصدروا قرارات توقّعوا من سائر الكنائس الأخرى أن تذعن لها . يجب احترام القادة ، قال المونتانيون ، و لكنّ هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال انهم معصومون عن الخطإ . كذلك عليهم هم أيضًا أنْ يخضعوا لكلمة الله . إن الوحدة في الكنائس ، كما يصرّح المونتانيون ، يجب ألا تُفرض بالقوة الجائرة . فالوحدة الحقيقية هي ثمرة التسامح و المحبة ، و لا يمكن ان تتحقّق إلا عندما يمتلئ الجميع بروح المسيح . يجب أن تكون وحدة الكنيسة وحدة روحية أكثر منها مؤسساتيّة ، و يجب ان يكون هناك مكان في أروقتها للأفكار و الآراء و الاهتمامات المختلفة . ان المخلّص نفسه هو رأس الكنيسة و يجب ان يكون روحه هو القائد ؛ فليس هناك انسان قادر على ان يأخذ مكان يسوع المسيح .

كذلك الاجتماعات في كنائس كثيرة ، بدأت هي الأخرى تزداد شكلية ، و قد حدّت بالتالي من حرية الروح القدس في تحدّثه المباشر الى أعضاء الكنيسة . و اشار المونتانيون ايضًا ، الى أنّ النظّار المعتمدين ليسوا وحدهم من يحصلون على التوجيه الإلهي . لأنه بإمكان كل مؤمن ان يصلّي الى الله ليعلم مشيئته ، و بذلك يساهم في الحياة الكنسية للخير العام .

فإذا كانت طهارة هذه المجموعة من الناس المؤمنين ، في أيام المسيحية الأولى ، قد استحقت احترامنا و إعجابنا ، فإن استعدادهم للاستشهاد يثير فينا إعجابًا تامًا . فهم لم يتردّدوا قط في بذل حياتهم ، عندما البديل لاستشهادهم كان يعني انكار مخلّصهم . قد نعذرهم على تطرّفهم في وضع مستويات الصواب و الخطإ ، و كذلك على قلّة صبرهم على أولئك الذين كانوا يرغبون في سلوك سبيل ادنى من المستوى المطلوب ، لأنّ المبادئ التي كانوا يؤيدونها لم تكن في غالبيتها سوى تعاليم يسوع و رسله . إن ما قدّموه كان في معظمه نصائح و حضّ بغيرة على حب أعمق و تكريس أعظم .

إلاّ أن العديد من الكنائس في القرن الثاني ، كانت تسير في اتجاه مختلف تمامًا . فبعضها كان يميل الى الفكرة القائلة إنّ التنبؤ قد توقّف منذ عصر الرسل . و قيل أيضًا إنه لم يعد بإمكان المسيحيين الحصول على إعلانات شخصية ، و إنّ أيّ انسان يدّعي النبوّة من الله لا يمكن ان يكون إلاّ من الدجّالين . كان المونتانيون قلقين ، و لكنهم ، لم يرغبوا في الانفصال عن إخوتهم في المسيح . فعوضًا من فتح باب الشقاق ، تحمّلوا بصبر سوء الفهم والإجحاف ، و عملوا ما بوسعهم للتأثير في الجماعة المسيحية من الداخل .

مع ذلك ، فقد كان هناك أناس ينتمون الى الكنائس القديمة ، الذين شعروا بالامتعاض من مواقف المونتانيين ، و شكّوا في روح الاستقلال عندهم ، كما سخروا من الوحي الذي ادّعوا حلوله عليهم . فتمّ رفع الشكاوى ضدّهم على أعلى المستويات . و في مقاطعة فريجية نفسها ، موطنهم ، قامت بعض الكنائس بإدانتهم . كما سافر أحد مناوئيهم المدعو بْرَاكْسِيَاس (Praxéas) الى روما ، ونجح في إقناع ناظر الكنيسة ، بأنّ المونتانيين يعملون على إثارة الشَقاق والخلاف ، و يهددون وحدة الكنائس المسيحية في العالم بأسره . فكانت النتيجة حاسمة إذ أصدرت كنيسة روما الحُرْم الكنسي بحق المنشقين المونتانيين ، و اعتُبر هذا الحرم شاملاً لكل الكنائس ، وفي كل الأصقاع ، التي تأتمر بأوامر كنيسة روما هذه المجموعة التي عُرفت في ما بعد « بالكنيسة الكاثوليكية » او الكنيسة العالمية . لم يكن هذا الرفض و الإبعاد بسبب تعاليم زائفة صدرت عن المونتانيين ، بل ، و بكل بساطة ، لكون هؤلاء عطّلوا نظام الكنائس ، و لرفضهم أيضًا القبول بالمقاييس التي حدّدها قادتهم المعتمدين

لقد أثيرت في ما بعد شكوك بالغة الخطورة حول صوابية تعاليم براكسياس نفسه . إن آراءه في لاهوت المسيح و ناسوته شردت من دون شك عن الحق الكتابي ، بينما ظلّ المونتانيون مستقيمين في هذا المجال . إلاّ أن التوفيق أضحى مستحيلاً . ربما ، لم يعد أمراً عجيبًا ان يُساءَ فهم المونتانيين جداً من مؤرخين كنسيين لاحقين من ذوي النزعة الكاثوليكية و الاسقفية ، الذين ، خلال جيلهم الخاص ، يتبنّون الدعوة المسكونية لتوحيد الكنيسة عضويًا و ظاهريًا بأيّ ثمن . وكثيراً ما كانوا يكتبون عن المونتانيين بكلمات من قبيل : « المتحمسون الصارمون » أو « أبطال في يوم الاضطهاد ، متعصبون في زمن السلم . »[17] و لكن هذا لم يكن كل ما في الأمر .

و بالتأكيد ، فإنّ ما حدث لم يكن نهاية المونتانيين ، إذ وجد هؤلاء في ترتوليانوس بطلهم الأعظم . فقد كتب هذا الأخير تفنيداً مسهبًا ضمّنه حججًا دامغة ضد براكسياس . و قد وضع ثقله خلف حركة المونتانيين التي أشار اليها في تفنيده بالعبارة « النبوة الجديدة » . و لم يجعل ترتوليانوس المونتانية جديرة بالاحترام و حسب ، بل اعتبرها قوة يجب تقديرها و الاعتماد عليها في شمال إفريقيا . و استمر المونتانيون بالتعليم و مدّ يد العون بعضهم لبعض بقيادة الروح القدس ، و بمباركة الله المُدركة الظاهر» .[18]

قضى ترتوليانوس طوال حياته في قرطاجة ، على الرغم من انه زار روما مرة واحدة على الأقل . و لربّما خدم أيضًا في كنيستها كشيخ من شيوخها لفترة ما . و في روما ، أصبح ترتوليانوس ضليعًا في ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، تختلف احيانًا و إلى حدّ بعيد عن تلك التي استعلمها كبريانوس لاحقًا في قرطاجة . و لكن غطرسة قادة الكنيسة في روما و عداءهم المذهل للمونتانيين ، تركا أثرًا ثابتًا في ترتوليانوس ممّا ساعد ، من دون شك ، في جعله متعاطفًا معهم ومؤيداً لهم . كان متّقد الذهن للغاية و حاراً في الروح جداً حتى إنه لم يكن من السهل عليه الخضوع لأوامر مصقولة صادرة عن أناس دونه شأنًا . لم يكن ترتوليانوس يرغب في ان يكون السبب ، او ان يشجّع على إحداث شرخ ، و كذلك لم تكن الكنائس الأقدم عهداً ترغب في إبعاده عن شركتها . آمن ترتوليانوس ، من كل قلبه ، بمبادئ

الإيمان المسيحي ، و اختلف مع زملائه المؤمنين ، فقط في الاعتقاد أنّ مستواهم القداسي لا يزال متدنيًا الى حدّ ما . لقد بقي من أعظم مناصري المسيحية الحقّ . كما كتب بعض أعظم مقالاته ضد « الغنوسطية » (Gnosticisme) و غيرها من الهرطقات و البدع ، بعد التحاقه بالمونتانيين . و من اللازم القول ، إن فصاحته اللاذعة كانت أكثر إقناعًا حينما تنصبّ ضد جعالة العدو المشترك ، اكثر منها حينما تكون ضد قصور الكنيسة الكاثوليكية وعدم كفايتها ، و التي كان قد تركها وقتذاك .

لقد اعتبر ترتوليانوس دائمًا ان الوحدة المسيحية هي فضيلة عظيمة ، و لكن لا يجوز أن نشتريها على حساب الحق . و يجب فحص الأفكار الجديدة ، أضاف ترتوليانوس ، بمقارنتها بكلمة الله ؛ و يجب تشخيص الأخطاء في وقت مبكر ، قبل ان تنتشر و يستفحل أمرها . قال إن الحق واحد بينما البدعة متشعبة متنوعة ؛ و الحق يُعرف من موافقة الكنائس جميعها عليه ، بينما البدعة هي محلّية و محصورة بفئة قليلة . الحق تبدّى من أقوال الرسل بينما البدعة مظهر حديث . الحق يثبته الكتاب المقدس ، بينما البدعة تنصّب نفسها ضد الكتاب المقدس و فوقه .[19]

و أخيرًا ، يظهر أنّ ترتوليانوس بدأ ينزعة من بعض اوهام التطرف التي مال اليها بعض من المونتانيين . أحيانًا ، يُظهر انصار مثل هذه الجماعات السائبة و المشحونة حيوية ، رغبة مخيفة في قبول إعلانات « انبيائهم » الذين ادّعوا بأنهم ملهمون بالروح القدس ، و ذلك من دون أي تساؤل . و قد رأى ترتوليانوس بكل وضوح ، أنّ الايمان ممتاز و رائع ، فقط إذا ما كان مبنيًا على الحق . فالحرية الروحية يجب أن تُمارس ببصيرة متأنية و متعقّلة . و الحق الالهي المعلن من الله والمنسجم مع الكتاب المقدس الموحى به ، يجب قبوله ، و لكن يجب عدم السماح للكنيسة بأن تساق وراء أفكار إنفعالية و متحمسة صادرة عن خيال أشخاص قد يكونون سليمي النية و القصد و لكنهم يقودون الكنيسة بالتالي ، الى الضياع و التشتت . قال الرسول يوحنا قبل عدة سنوات : « أيها الأحباء ، لا تصدّقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم . »[20] كما أن الرسول بولس قال ، إن الروح القدس يعطي لبعض الناس القدرة على التنبؤ ، أي أن يبلّغوا رسالة الله ، و لكنه أيضًا يعطي لآخرين القدرة على « تمييز الأرواح » ، أي أن يعرفوا ما إذا كان الإعلان من الله أم من مصدر آخر .[21] و بعد بضع سنوات ، انفصل ترتوليانوس على ما يبدو عن المونتانيين جارًا معه عددًا من أقرب أصدقائه . فبالنسبة اليه ، يبقى الحق هو الأهم من كل الأشياء .

ولم يكن لترتوليانوس مثيل في عصره سوى واحد ، و هو أوريجانوس العظيم . و قد وُلد أوريجانوس في الاسكندرية و لكنه انتقل في ما بعد الىً قيصرية على ساحل فلسطين . وما يدعو الى الحيرة و العجب حقًا ان يكون كل منهما متشابهين في بعض الوجوه ، و لكنهما لم يكونا متشابهين في دروب و مسالك اخرى . فكل منهما له موهبة التخيّل ، و هو بارع في التصوير المجازي ، و كل منهما يستخدم هذه الموهبة في كتاباته المتدفقة المثمرة ، مدافعًا عن الايمان ضد الوثنية ، و اليهود و الهراطقة . و كلاهما كانا يعيشان حياة نكران

الذات الشديدة الصارمة ، وكلاهما ، بتعاليمهما و قدوتهما ، ألهما جيلهما كيف يجب ان يكون التكريس المسيحي الحقيقي الأصيل . و كلاهما كانا على استعداد ان يعانيا خسارة كل ما في هذه الدنيا من أشياء ، عوضًا عن المساومة على حق الإنجيل . ولكن ، مع ذلك ، نجد كيف أن كل واحد منهما أمضى الفترة الأخيرة من حياته في خلاف مع القسم الأكبر من الكنيسة المسيحية ، و في صراع مع كبار قادتها المتنفذين في روما .

على أنّ هذا التشابه بينهما يبقى سطحيًا ، إذا ما علمنا أن هناك اختلافًا جذريًا بينهما في الجوهر . و الحقيقة ، أنّ واحدًا منهما قد أمضى نصف عمره في حياة وثنية ، بينما عرف الثاني منذ ولادته بركات البيت المسيحي المسالم و الثابت الإيمان . و هذا ما يفسّر الكثير مما سنأتي على ذكره الآن . و لا شكّ ان حماسة ترتوليانوس الصارمة كانت في طبعه و خلقه ، ولكنها ازدادت حدّة بفضل تجديده و رفضه الكامل لماضيه ، بينما « عذوبة و نور » أوريجانوس المحبوب كانا ثمرة نموه الهادىء بصفاته المسيحية التي ترعرع عليها منذ نعومة أظفاره . و قد انعكست هذه الأشياء في اسلوب كتابة كل منهما : فالأول صارم في عقيدته من دون هوادة ، أمّا الثاني ، فيحب الخوض في المعاني الغامضة و معروف بلطفه التأملي الدقيق . يتعامل الأول مع الأشياء بتوكيد صريح مباشر ، بينما يتعامل الثاني بمثل نظرية عالية المقام . وبّخ ترتوليانوس اليأس الأدبي في هذا العالم توبيخًا صارمًا و عنّفه تعنيفًا شديدًا ، وسخر من قنوط الناس الفكري . بينما قدّم اوريجانوس تعاطفًا شديدًا مع كليهما ، و شعر في العمق مع اولئك الذين كانوا يتلمسون طريقهم بحثًا عن إدراك سرائر هذا الكون الفسيح . تعلّم ترتوليانوس الفلسفة كوثني و ازدرى بها للغاية : فالفلسفة ظهرت كمصدر لأكاذيب وهرطقات لا حصر لها . و تركت الناس في ظلمة كاملة لا يمكن أن تتلاشى إلاّ بفعل نور الانجيل المعلن . امّا اوريجانوس ، فقد تعلّمها و هو في أحضان المسيحية ، و تعمّق في مكنوناتها أكثر كثيرًا من ترتوليانوس ، فكان لها كل التقدير عنده ، و اعتبرها استعلانًا جزئيًا وتمهيديًا قد لا يزال يعمل لخدمة الحق .

على الرغم من أنّ كلاً من ترتوليانوس و أوريجانوس وجدا نفسيهما في نزاع مع المسيحيين الآخرين ، إلاّ أنّ سبب هذا النزاع كان يختلف في كل حالة . فانفصال ترتوليانوس كان من عمله هو أمّا انفصال اوريجانوس فسبّبه أعداؤه و خصومه . و مع أنّ أحدًا في قرطاجة لم يدُن ترتوليانوس ، فإنه تعمّد ترك الكنيسة التي كان يخدم فيها ، و عقد العزم على تفنيد اخطائها . أمّا أوريجانوس الذي حُرم كنسيًا في الاسكندرية و روما ، فتحرّك متوجهًا الى الشرق ، و استمتع هناك بأعظم قدر من الشركة الحميمة مع كنائس تلك المنطقة ، من دون أن ينتقد أحدًا . و لربما نستطيع ان نرى هنا ، و مما سيلحق ، كيف ان شخصية الانسان تقرر الى حد بعيد الخدمة التي يتولاها و آراءه و مبادئه الشخصية أيضًا .

يقول بعضهم إنّ ترتوليانوس بعد انجرافه بعيدًا عن تيار المونتانيين ، لم يلبث ان عاد الى مجموعة الكنائس الكاثوليكية التي انتمت اليها غالبية مسيحيي شمال افريقيا في ذلك الوقت . وهذا الرأي مشكوك فيه ، و لكنه قد يبدو جذّابًا لاولئك الذين يوقّرون كلاً من الرجل

ترتوليانوس و البنية الكاثوليكية . في الحقيقة ، و بعد مرور قرنين من الزمن ، بقي هناك مجموعة من المسيحيين يُعرفون بالترتوليانيين ، « أي اتباع ترتوليانوس » على الرغم من أنّ عددهم كان قليلاً . و لكنّ وجودهم ، إنْ دلّ على شيء ، فهو يدلّ على أنّ ترتوليانوس بقي بعيداً الى حدّ ما من الكنيسة التي انتقدها بشدّة .[22] و من جهة ثانية ، و بعد مرور قرن على وفاته ، فحتى كبريانوس ، و هو اقوى و أخلص المدافعين عن الوحدة الكاثوليكية ، قوّم كتابات ترتوليانوس ، و قدّمها على سائر الكتب الأخرى ، حتى إنه كان يخاطب أمين سره قائلاً : «جئني بالاستاذ ناولني المعلم ، » كلّما شاء أن يتصفح مجلّداً او كتابًا ألّفه ترتوليانوس . و يبدو أن ترتوليانوس اعتبر أن لا ضرورة لإجراء أية مصالحة رسمية مع الكنيسة الكاثوليكية ، لأنه لم يُدن رسميًا ، و لا القادة حرموه كنسيًا في كل من قرطاجة و روما . و نعلم أن ترتوليانوس قد اجتذبه كلّ من كان يشاركه ايمانه ، إذ كان مستعداً أن يجتمع للعبادة مع أية جماعة تحب المسيح و تخدمه بإخلاص ، و ذلك بمعزل عن الكنيسة التي تنتمي اليها .

يخبرنا المترجم العظيم جيروم (Jérôme) ، أنّ ترتوليانوس عاش عمرًا طويلاً . و لم يُعرف كيف او متى توفّي . و لكن ، لا بدّ من أن يكون تاريخ وفاته بين الأعوام 220- 240 ميلادية . و هذا يُظهر أنه كان في سنّ الستين على الأقل حين لبّى نداء ربه و غادر هذا العالم .

تحدّث ترتوليانوس الى كلّ من الكنيسة النامية و العالم المراقب ، معلنًا المفارقة الشاسعة القائمة بينهما ، تلك المفارقة التي كانت واضحة جليًا لكل من له عينان تريان : « حقّ العقيدة المسيحية ، مقابل أكاذيب الوثنية ؛ نقاوة الأخلاق المسيحية مقابل إباحية الوثنية ؛ أخوية الشركة المسيحية مقابل أنانية الوثنية و قساوتها .»[23] لقد مَحْوَرَ مواضيعه الأساسية حول ثلاثة : الحق ، النقاوة ، و الأخوية . يجب إحياء ذكره بواسطة كلماته الخاصة هذه التي فيها يعرض إقراراً للحق ، حق الله الذي لا يمكن ولا يجوز إخفاؤه [24] :

« لا يطلب الحق معروفاً
او استحساناً لقضيته
فهو يعلم انه
غريب في هذه الديار
وأنه بين الغرباء ، من السهل ان
يجد لنفسه أعداء
فولادته ، وداره ، ورجاؤه
هي في السماوات

ولكنّ شيئاً واحداً يتمنّاه
الحق بشدة ،
ألاّ تحصل إدانته
وهو غير معروف . »

ترتوليانوس

ملاحظات

1- *Apologeticus* 18
2- *Apologeticus* 2
3- *Apologeticus* 3
4- *Apologeticus* 40
5- Bettenson, *ECF* p. 15
6- *Ad Scapulam* 2
7- Plummer pp. 114 - 115
8- Plummer p. 115
9- اقتبسها Guernier p. 185
10- *Apologeticus* 37
11- 1 كورنثوس 14:2 و 15
12- 1 كورنثوس 11-9:5
13- *Ad Uxorem* 1:1
14- *Paedagogus* 3:3 (*ANF* Vol. II)
15- أعمال 17:2 و 18
16- فيلبي 11:2
17- Foakes - Jackson p. 254
18- لقد حافظ مونتانيو آسيا الصغرى على كنائسهم المستقلة حتى فترة متقدمة من القرن السادس (Schaff *HOTCC* Vol. II p. 421)
19- راجع *De Praescriptione Haereticorum* 32
20- 1 يوحنا 1:4
21- 1 كورنثوس 10:12
22- يذكر اغسطينوس كيف انه تمكّن أخيراً بفضل جهوده ، ان يصالح الترتوليانيين في قرطاجة مع الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك في القرن الرابع . (*De Haerisibus* 6; Schaff *HOTCC* Vol II p. 421).
23- Lloyd p. 28
24- *Apologeticus* 1 ؛ راجع الترجمة في Lloyd p. 23

المصادر الثانوية المختصة بحياة ترتوليانوس هي : Barnes ؛ Lloyd pp. 21 - 60 ؛ Latourette Vol I pp. 125 - 131 ؛ Foakes - Jackson pp. 206 - 208 , 263 - 265. Plummer pp. 111 - 119

كذلك يوجد شواهد متعددة في كل من Frend و Schaff *HOTCC* Vol. II .

بالنسبة الى المونتانيين ، راجع *Eusebius* V, 16 - 18 ؛ *NAPNF* Series 2 Vol. I و فيها ملاحظات كثيرة أدرجها المترجم ؛

Foakes -Jackson pp. 224 - 225; Wright; Barnes; Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 415-427

الفصل الثامن

الكتابات الروحية

إن كبار المفكرين المسيحيين في القرون الأربعة الأولى للميلاد اهتموا بتعريف عقائد الايمان و انهمكوا في الدفاع عنها . فقد شغلتهم الأسئلة التالية : هل كان المسيح انسانًا مثلنا ؟ او هل كان ملاكًا ؟ أو أنه كان يختلف عنا في جملته - كأن يكون ليس بإنسان و لا بملاك ؟ هل كان المسيح موجوداً منذ الأزل ؟ او هل وُجد عندما حبلت به العذراء ؟ هل جُرّب المسيح حقًا ، كما نجرّب نحن ، حيث كان بإمكانه أن يخطىء ؟ او كان مستحيلاً عليه ان يخطئ ، و بالتالي فإنه لم يتعرّض للإغراءات الحقيقية ؟

بحث المسيحيون الأوائل في إيجاد أجوبة عن هذه التساؤلات من خلال العهد القديم ، و من مضامين ما كتبه الرسل ، و استناداً الى ما قاله الرب يسوع نفسه . و قد استنتجوا أحيانًا استنتاجات شخصية مستندة الى ما بدا لهم انه منطقي وعقلاني . ولكنهم في النهاية ، كانوا يعودون دائمًا الى ما يشير اليه العهد القديم ، و الى ما كتبه المسيحيون الأولون باعتبار ان هذه الكتابات موحًى بها من الله . و إذا ما ظهر أيّ التباس ، فيمكنهم معالجته بالرجوع الى أقوال الرب يسوع ، أو الى قول لبولس أو بطرس او غيرهما من الرسل الآخرين .

و بانتهاء القرن الأول للميلاد ، كانت جميع كتب العهد الجديد قد أُكملت ، و لكنّ هذه الكتب ، كان يتم تداولها بين الكنائس على شكل وثائق متفرقة . فيمكن مثلاً ان تملك إحدى الكنائس انجيل متى ، بينما يكون إنجيل يوحنا في حوزة كنيسة أخرى . أمّا كنيسة ثالثة فقد يكون عندها أربع رسائل لبولس أو خمس . و من الممكن ان نجد في مكان آخر رسالة بطرس الأولى او سفر الرؤيا . إلى هذا ، فقد وُضعت كتابات مسيحية أخرى باتت مشهورة في الأوساط الشعبية ، الأمر الذي حتم على قادة الكنيسة ان يقرّروا أيًا من هذه الكتابات هو صادر عن الرسل أنفسهم . أو أي منها يمكن اعتباره له سلطة ، و مُلهمًا بوحي من الله الى خدامه المختارين ، أو أي الكتب يُعتبر من عمل انسان أصدره ، ربما ، عن حسن نيّة ؟ و في بداية العام 180 ميلادي ، ظهر بين المسيحيين شبه اجماع في الرأي حول الكتب التي يمكن اعتبارها قانونية و معترفًا بها . وفي مدينة بونتوس (Pontus) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة التركية الحالية ، صاغ ماركيون (Marcion) في عام 140 ميلادي قائمة قصيرة بالكتب المقبولة لديه ، و لكنّ نظرية ماركيون هذه جنحت نحو الأفكار الصوفية الخاصة بالغنوسطية ، ومال الى رفض تلك الكتب التي لا تدعم آراءه . على أنّ كتّابًا آخرين ، من الرعيل الأول ، وافقوا على الكتب المقبولة من ماركيون ، مضيفين اليها كتبًا أخرى ، اعتادوا ان يستعملوها في كنائسهم . وفي الغرب ، كانَ انجيل يوحنا أقل شعبية من الأناجيل الأخرى التي أصدرها باقي البشيرين : متى ومرقس

ولوقا ، و التي تُدعى الأناجيل السينوبتية . و هناك ايضًا ، لم تُقبل الرسالة الى العبرانيين إلاّ ببطء . أمّا في الشرق ، من الناحية الأخرى ، فلم يُعترف بسفر الرؤيا بادئ ذي بدء .

في مستهل القرن الثالث للميلاد ، ألمح ترتوليانوس الى كل واحد من الاناجيل الأربعة عندما كان يصف حياة المسيح . أمّا في أواسط القرن الثالث ، فقد أصبحت جميع الأسفار التي تؤلف العهد الجديد الذي عندنا اليوم ، مُعترفًا بأصالتها و سلطتها . على أنّ رسالة أثناسيُوس (Athanase) ، ناظر كنيسة الاسكندرية ، و التي كُتبت في سنة 367 م ، تُعتبر عمومًا ، أنها الأولى التي تُعرّف بلائحة اسفار العهد الجديد القانونية ، و التي تحتوي على سبعة وعشرين سفراً نستعملها حتى يومنا هذا . و بعد ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ ، حدّد المؤتمر الذي انعقد في قرطاجة ، جميع الأسفار القانونية في العهد الجديد ، و هي التي أصبحت منذ ذلك الحين الكتب المعتمدة في جميع أنحاء العالم .

و من الطبيعي ، أنّ قبول هذه الكتب ، يعني رفض غيرها من الكتب ، تلك الكتب التي ندعوها اليوم « الأسفار الأبوكريفية » (Apocryphe) . فإنّ كتابات الأبوكريفا تتحدث عن خوارق شاذة و غريبة ، و واضح أنها تختلف عن الروايات المنضبطة والرزينة التي جاءت في الأناجيل و أعمال الرسل . و على الرغم من ذلك ، فقد كان لهذه الكتب شعبية واسعة بين أولئك الذين يستمتعون بالأوهام و التخيّلات ، و لم يعطوا اعتباراً و تحفظًا للتعليم الذي رافق هذه الكتب و الأسفار . و تزعم بعض هذه الكتب أنّ كاتبيها كانوا الرسل عينهم ، و لكن بعد التقصّي الدقيق تبيّن أنّ هذه الكتب تحتوي على تعليم يتعارض مع المستندات و الوثائق التي كان ، و لا شك ، قد خلّفها وراءهم هؤلاء الرسل . فهناك مثلاً إنجيل بطرس المزوّر ، الذي يحتوي على تعاليم وعقائد لا يمكن ان يكون بطرس قد علّمها . و هناك ما يُدعى « رسالة برنابا » ، التي من الممكن ان تكون قد أُلّفت و جُمعت في القرن الثاني للميلاد [1] . أمّا الكتاب الأكثر شهرة ، فهو ذلك المدعو «ديداكي» (Didache) ، أي « تعليم الرسل الاثني عشر » ، و لربما كُتب في نحو عام 100 للميلاد . وقد أشار أثناسيوس في القرن الرابع الى كتابات الابوكريفا هذه بالقول إنها «الكتب التي لا تحمل أية سلطة ، و لكنها عُيّنت من المسيحيين الأولين لتُقرأ على أولئك الذين آمنوا حديثًا .» [2] إن القصة المجازية المسمّاة «راعي هرماس» (Le Berger d'Hermas) انتشرت بشكل واسع في إفريقيا الشمالية ، و هناك رسالة أخرى بعنوان رسالة اقلمندوس (L'Epître de Clément) ، وعدد من النصوص الأخرى كتلك الروايات التي تدّعي التحدّث عن طفولة المسيح و الرحلات التي قام بها بطرس وبولس و الرسل الآخرون . لقد ادّعى بعض الاشخاص او الكنائس خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد ، يجب أن يُعتَرف بقانونيةَ بعض هذه الأسفار و الرسائل الآنفة الذكر ، و حاولوا إنزالها الى جانب الاناجيل و الرسائل التي تكوّن كتاب العهد الجديد اليوم ، ولكنّ أغلب الكنائس أجمعت على رفضها . هذا لأن قراءة دقيقة فاحصة للأبوكريفا ، تُظهر ، في كل حال ، عيوبًا في تعاليمها ومبادئها ، و هي تفتقر الى الضبط و التوازن اللذين يميّزان الكتب المعترف بها من الكنيسة ، و المعتمدة منذ ذلك الحين على أنها تشكّل كلمة الله الموحى بها و ذات السلطة .

لقد صانت الكنائس الأولى كتب العهد الجديد باحترام و اجلال شديدين . وكان قادتها يرجعون مرارًا الى هذه الكتب عند الوعظ و التعليم ، كما أنّ علماء اللاهوت عندهم كانوا يستشهدون بها بشكل ثابت عند تقديم الحقائق العظمى للايمان و توضيحها . فترتوليانوس مثلاً ، بنى فهمه للثالوث الأقدس ، بشكل كامل ، على شهادة كتابات هؤلاء الرسل . و قال : « كل الكتاب المقدس يبرهن بوضوح وجود الثالوث الأقدس .» [3] آمن المسيحيون الأوائل بأن هذه الوثائق هي من وحي الله تعالى ، كأسفار موسى و كتب الأنبياء والأعمال الشعرية التي في العهد القديم : « تكلّم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس . » [4] و شعروا بالحاجة إلى تفتيش الكتاب المقدس ، للوثوق بوعود الله المعلنة على صفحاته و لتطبيق مبادئه في حياتهم اليومية . و عن هذا أيضًا ، أجاد ترتوليانوس مرة أخرى بالقول : « نحن ملزمون في إنعاش ذاكرتنا بكتاباتنا المقدسة ، وذلك لنستطيع ان نرى ما إذا كان أيّ من أمورنا الحاضرة يحتاج الى تحذير أو إعادة نظر . و في كل الحالات ، نحن نغذّي إيماننا بهذه الأقوال المقدسة ؛ إننا نبعث رجاءنا ، و نؤسس ثقتنا ، و في الوقت نفسه نحن نقوّي تهذيبنا و انضباطنا بالإنتباه الثابت الى الوصايا . » [5]

كان المسيحيون الأوائل ملمّين المامًا تامًا ، ليس فقط بالعهد الجديد ، بل بالعهد القديم أيضًا . فمعظمهم لا يعرفون القراءة باللغة العبرانية الأصلية . و النسخة الواسعة الانتشار والاستعمال خلال القرون الأربعة الأولى ، كانت المترجمة الى اليونانية ، و التي عُرفت بالترجمة السبعينية (Septante) ، ويُرمز اليها أحيانًا بالأحرف اللاتينية المختصرة *LXX* . لقد تولّى سبعون او اثنان و سبعون من جهاز العلماء اليهود في مدينة الاسكندرية العمل الترجمي من العبرانية الى اليونانية ، و ذلك في حدود السنة 200 قبل الميلاد . فانفرد كلّ من هؤلاء المترجمين في حجرة مغلقة ، كما تذكر القصة ، فجاءت تراجمهم متطابقة بشكل اعجوبي رائع . والجدير ذكره أنّ ترتوليانوس و أغسطينوس لم يعيرا هذه الأسطورة الشعبية اهتمامًا كبيرًا ، ولكنهما مع ذلك كانا يقدّران هذه الترجمة .

أبدى المسيحيون الأوائل احترامًا كبيرًا للترجمة السبعينية ، خصوصًا في ضوء الادعاءات عن أصلها المعجزي . و كانوا يعتمدون على هذه الترجمة في مباحثاتهم و مناظراتهم مع اليهود . إلاّ أن بعض المسائل العقائدية المستمدّة من السبعينية ، كانت مع الأسف تستند الى ترجمة مغلوطة للآيات موضوع الجدل . و لم يتم التخلّي عن هذه العقائد إلاّ بعد أن اكتملت التراجم التي أُجريت في ما بعد ، مثل ترجمة جيروم اللاتينية المعروفة « بالفُلغاتة » (Vulgate) .

لم يُوضع علم اللاهوت للكنيسة الأولى بشكل نظامي في البداية . فمثله مثل لائحة الاسفار القانونية في العهد الجديد ، أُنجز قطعة قطعة ، تجاوبًا مع الاحتياجات الجارية ، او استجابة لما يطرأ من تساؤلات خاصة . لقد وُضعت معظم الكتابات اللاهوتية ككتب يوستينوس (Justin) وإيرينَايُوس (Irénée) و ترتوليانوس و أوريجانوس جوابًا عن تحدّيات اوردها النقّاد ، أو بعض المسيحيّين الذين كانت آراؤهم و تعاليمهم غير نقية . ففي الواقع ، إن أولئك المقاومين يستحقون شكرنا ، لأنه لولا تهجّمهم ذاك ، لما حُمل أصحاب تلك العقول الملهمة

المعاصرة على الغوص في تفسير أدقّ المسائل المرتبطة بالنصوص الكتابية الموحى بها . إنّ هذه التساؤلات الأساسية نفسها تُثار من جيل الى جيل ، و الأجوبة التي قدّمها لها ترتوليانوس وغيره منذ أكثر من 1600 سنة ، لا تزال في أحيان كثيرة بالأهمية عينها التي كانت لها وقتئذ .

ففي إحدى المناسبات ، سأل بعض الذين دأبهم الحطّ من قدر الإيمان : لماذا سمح الله ان يقع الانسان في الخطيئة ؟ لماذا لم يحم الله الانسان من الإغراء ، أو يُعطه ، على الأقل ، القوة لتخطّي الإغراء ؟ لقد احتجوا قائلين إنه عندما سمح الله لآدم بأن يقع في الخطيئة ، لا بدّ من أن الخالق كان يفتقر إما الى الصلاح و إمّا الى المعرفة المسبقة و إمّا الى القدرة . و كان قصدهم في الواقع ، أنه لو ان الله موجود حقًا ، لوقعت الملامة عليه بالنسبة الى الشر الموجود في العالم ، او ربما ألمحوا بشكل مبطّن الى أن الله غير موجود على الاطلاق .

حمل ترتوليانوس بعنف على هؤلاء النقّاد و ذلك بأسلوبه المؤثر المعتاد . قال : « والآن ، جوابًا عن تساؤلاتكم ايها الكلاب الذين طردهم بولس الرسول و أخرجهم خارج الأبواب ،[6] أنتم يا من تنبحون على الله ، إله الحق . هذه هي الأسئلة التي ما فتئتم تقضمونها باستمرار كما تقضم الكلاب العظام : " فإذا كان الله صالحًا و يعلم الأشياء مسبقًا ، و له القدرة على ردع الشرّ ، فلماذا يسمح للناس إذًا ، بأنْ يخدعهم إبليس ، و يسقطوا من الطاعة لقوانينه تعالى لكي يموتوا . . . ؟ فإذا كان الله صالحًا ، فهو لن يرغب في حدوث شيء كهذا ، و إذا كان يعلم الأمور مسبقًا ، فإنه لن يكون غافلاً عما سيحدث ؛ و إذا كان قويًا ، فإن باستطاعته الحؤول دون حصوله . و كل حالة او وضع يتوجب ان يتطابق مع هذه الصفات الثلاث للجلال الإلهي ."»[7]

و بعد أن أثار هذه التساؤلات ، شرع ترتوليانوس في الإعداد للإجابة عنها . و قد اتّبع في ذلك مثال المسيح ، مشيراً الى أنّ صلاح الله ، و معرفته الكليّة ، و قدراته المطلقة ، ظاهرة بوضوح ، من خلال أعماله في الخلق ، و كذلك في إرساله الأنبياء الذين تنبأوا بدقّة عما سيحدث في المستقبل . و أخيراً اقترح ترتوليانوس ألاّ يُصار الى البحث عن الشر في طبيعة الله ، بل في طبيعة الانسان ؛ و أضاف قائلاً : « أجد ان الله خلق الإنسان مخلوقًا حرًا وأعطاه إمكانية الإختيار . و هذا بالذات ، يُظهر لي شبه الله و صورته التي أوجدها في الإنسان اذ قد ميّزه تعالى بالحرية و بإمكانية الاختيار . ثم يأتي الناموس نفسه الذي أسّسه الله ليثبّت واقع حال الإنسان هذا . فالناموس لا يُعطى إلاّ لذاك الذي يمتلك القوة لاختيار الطاعة التي يطلبها الناموس . . . اذًا ، مُنح الإنسان الحرية الكاملة ليختار بين الصالح و الطالح ، ليكون بذلك سيّد نفسه باستمرار ، ملتصقًا بالخير طوعًا ، و نابذًا كذلك للشر . لأن حكم الله على الإنسان (و هو على كل حال تحت هذا الحكم باستمرار) ، من الضروري أن يكون عادلاً ، و ناتجًا من اختيار الإنسان الحر . و إلاّ ، فإذا كان الله يدفع الناس عنوة ليكونوا صالحين أو طالحين ، فلن تكون هناك عدالة في إدانتهم للشر او الخير الذي يفعلونه بالاضطرار لا بالاختيار .»[8]

قال ترتوليانوس إنه كان بإمكان الله ان يلزم الانسان بإطاعته طاعة دائمة ، لكنّ مثل هذه الطاعة تمثّل العبودية أكثر من تمثيلها لحُبّ الانسان لربه . إن الصلاح الحقيقي هو سجية

علينا أن نقبلها طوعًا ، و بشكل حر . فالإنسان غير مرغم ابداً على العيش حياة القداسة أو الشرّ . فبإمكانه ، باختياره الشخصي ، أن يلتصق بالخير و يقاوم الشر ، و بهذا يصبح على شبه الله نفسه . و لكن إذا كان الانسان حراً في اختيار الخير ، فهو حر ايضًا في اختيار الشر : و هذا ما يفعله أحيانًا . ان سقوط الإنسان ، و الشر الذي في العالم ، هما النتيجة الحتمية للإرادة الحرة التي منحها له الله . و حتى في هذه الحال ، يبقى الأمر أفضل من إلزام الانسان بطاعة قسرية للّه ، تُظهر قوته تعالى ، لكنها في الوقت عينه ، تجعل الانسان عبداً . إن الله ، بمنحه هذه الحرية للبشر ، أظهر بذلك بصيرته و حكمته و صلاحه ، و لم يتنكّر لها .

لم يكن ترتوليانوس صبوراً على اولئك الذين وجدوا لذة في السخرية من حكمة الله . لقد أعلن الله عن ذاته كما هو في الحقيقة : ديّان و فاد . قال ترتوليانوس : « أنت تدعوه قاضيًا ، و مع ذلك فإنك تسخر من قسوة القاضي الذي يتّعامل مع كل قضية كما تستوجب او تستحق تمامًا . أنت تطلب إلهًا مطلق الصلاح ، و بعد ذلك ، عندما يُظهر الله وداعته و لطفه من خلال تنازله ، ليتلاءم مع قدرات الانسان الفقيرة المحدودة ، تنتقص من قدره تعالى متهمًا إياه بالضعف . فلا الإله العظيم يسرّك و لا الإله الوديع ، لا الإله القاضي و لا الصديق . »[9] و لكن الكثير الانتقاد لا يبدي في الواقع أية رغبة في قبول شيء ، فهو يفرح بالسؤال أكثر من فرحه بالحصول على الجواب الشافي ، و نادراً ما يأبه لاكتشاف الحقيقة .

لم تكن وقائع حياة المسيح و موته و قيامته موضع نقاش او جدل خلال القرنين الأول والثاني للميلاد ، لأنها كانت من المسلّمات بالنسبة الى اليهود و الأمم على السواء . فالاهتمام كان بالحري منصبًا على طبيعة المسيح نفسه . هل كان المسيح انسانًا عاديًا مسحه الله بقوة خاصة ؟ أو هل كان ملاكًا و ذا جسد شبه بشري ؟ هل كان المسيح كائنًا خاصًا ، خلقه الله و لكنه ميّزه عن كل من الملائكة والناس ؟ لقد تشعّبت نظريات عديدة من تلك الأفكار التي تُعرف اليوم بالبدعة الغنوسطية . كانت المذاهب الغنوسطية متأثرة جداً بالفكر اليوناني ، و كان أنصارها يدّعون أن لهم إدراكًا أعمق للحقائق مما لغيرهم من ابناء جيلهم ، و ذلك بسبب اطّلاعهم ، و معرفتهم الواسعة بأسرار الفلسفة ، و علم الأساطير أو علم التنجيم . و قد فسّروا الكتاب المقدس ، و كل الأشياء الأخرى ، في ضوء معرفتهم الخاصة هذه . كانوا يعتبرون المادة بجملتها شراً ، و لم يستطيعوا ان يتصوّروا ابن الله القدوس آخذًا جسداً بشريًا . فقالوا فيه إنه ينبغي ان يكون إمّا ملاكًا و إمّا روحًا .

يقبل ترتوليانوس التحدّي : « لم يهبط ملاك من السماء قط ليُصلب و يختبر الموت ، ثم القيامة من الأموات . . . لم يأت الملائكة ليموتوا ، لذا لم يأتوا ليولدوا أيضًا . ولكنّ المسيح أُرسل ليموت ، لذا كان من الضروري ان يولد حتى يتمكن من ان يموت . »[10] لقد أصبح انسانًا حقيقيًا من لحم و دم كما نحن .

و في مناسبة أخرى ، يردّ ترتوليانوس على أولئك المعترضين ، مبدّداً الأفكار التي تقول إن الجسد البشري فاسد ، و بالتالي غير لائق بابن الله . « دعوني الآن أُكمل قصدي اذ أبذل قصارى جهدي لإظهار كل ما منح الله الجسد عند خلقه . » فعندما خلق الله آدم من طين

الأرض ، كان بإمكان آدم « أن يفتخر بأن هذا الطين الحقير قد وُجد في يديه تعالى . . . و قد سرّته هذه اللمسة بما فيه الكفاية . »[11] و لكنّ الله لم يفكّر في آدم وحده عندما خلقه بجسمه هذا ، و إنما فكّر أيضًا في ابن الله الذي سيحصل أخيرًا على الشكل نفسه و الهيئة نفسها .« فلنفكّر في الله و هو منشغل و منهمك تمامًا في عمل الانسان ، فيده تعمل مع مشاعره ، و نشاطه ، و تدبّره و علمه المسبق ، و حكمته و عنايته ، و فوق هذا كله تلك المحبة التي كانت ترسم الخطوط و المعالم في الكائن البشري . لأنه بينما كان الله يقولب كل جزء في الانسان من الطين ، كان المسيح في فكره تعالى ، باعتباره ذاك الانسان الذي سيكون في الزمان الآتي . لأنّ كلمة الله سيصير طينًا و جسدًا . . . بعض الأشياء لها الامتياز بأن تكون أشرف و أنبل من أصلها . . . فالذهب لم يكن سوى تراب قبل أن نستخرجه من الأرض ، ولكن بعد تصفيته يتحوّل الى ذهب صلب جامد ، و يصبح مادة مختلفة تمامًا عمّا كانت عليه قبلاً ، إذْ يكون أكثر اشراقًا و روعة ، و يكون أكثر قيمة مما كان عليه في مصدره الوضيع الذي انبثق منه .»[12] إن المسيح هو من طينة آدم و جبلته ، بيدَ أن مجده هو أعظم بما لا يُقاس .

إذًا ، ليس من السخافة في شيء ان يكون المسيح إلهًا و إنسانًا في آن ، فهو يمتلك روحًا إلهيًا و جسدًا بشريًا . و يضيف ترتوليانوس قائلاً : «فتعلّم اذًا مع نيقوديموس كيف أن المولود من الجسد جسد هو ، و المولود من الروح هو روح . » [13] فالجسد لا يصبح روحًا و لا الروح جسدًا ، ولكن يمكن لكليهما ان يوجدا في شخص واحد . كان يسوع يتكوّن من جسد و روح - من جسد كإنسان ، و من روح بصفته الله . لقد دعاه الملاك ' ابن الله' ، و ذلك بما أنه روح ، مستبقيًا للجسد اللقب ' ابن الانسان ' . و عليه فقد أيّد الرسول بولس ان للمسيح طبيعتين عندما قال عنه : إنه ' الوسيط بين الله و الإنسان ' . » [14]

حار الغنوسطيون بفكرة الثالوث الأقدس ، و وجدوا صعوبة في إدراك كيف يمكن للمسيح ان يكون هو الله نفسه ، مع انه يختلف عن الله . لقد علّموا ان المسيح هو كائن خاص ، و لكن لا يجوز في نظرهم اعتباره مساويًا لله . أعطى ترتوليانوس قدرًا كبيرًا من التفكير في هذا الامر . و يبدأ باستعراض ما نعرفه بوضوح عن الله نفسه بالقول : « قبل ان توجد الأشياء كلها ، كان الله وحده . كان هو نفسه الكون الخاص به ، و المكان الخاص به ؛ كان الله كل شيء . كان وحيدًا ، بمعنى انه لم يكن هناك شيء خارجًا عنه . و مع ذلك ، لم يكن الله وحده ، حيث كان معه ما هو جزء منه ؛ لقد كان معه ذهنه . فالله هو عاقل و الذهن موجود معه منذ الأزل ، و منه انتشر الى كل الأشياء . و هذا الذهن هو وعيه الشخصي لذاته . و اليونانيون يدعونه *اللوغوس(Logos)* ، و الذي هو المصطلح الذي نستعمله للخطاب . و هذا ما يترجمه شعبنا حرفيًا بالقول : ' في البدء كان الخطاب عند الله' .»[15] و هنا بالطبع ، يشير ترتوليانوس الى افتتاحية انجيل يوحنا حيث أن « الكلمة » (بمعنى الذهن و العقل و الخطاب) يمثّل المسيح . « في البدء كان الكلمة ، و الكلمة كان عند الله و كان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان و بغيره لم يكن شيء مما كان . » [16]

وأردف ترتوليانوس يقول إن هذا الكلام لا يصعب فهمه كما قد يعتقد أحدنا . « و لكي تفهم ذلك بسهولة أكبر ، لاحظ أولاً نفسك (حيث انت ' صورة الله و شبهه ' [17]) بأنه عندك أنت أيضًا ذهن ، و ذلك لكونك مخلوقًا عاقلاً . . . لاحظ كيف أنه عندما تأخذ في مناقشة نفسك بصمت ، و في تشغيل ذهنك ، فإن هذا الأمر نفسه يحصل فيك ، حيث أنّ الكلام يعبّر عندك عن الذهن ، و ذلك في كل لحظة من لحظات التفكير ، و في كل نشاط للوعي و الشعور . فكل فكر تفكّره يُعبَّر عنه بحديث و كلام ، و كل لحظة من لحظات الوعي تُعبِّر عن نفسها من خلال التفكير . . . و عليه ، فالحديث الذي يدور في داخلك مميَّز ، بمعنى من المعاني ، عن ذاتك .» [18]

يفكّر الله بالطريقة نفسها التي يفكّر فيها الانسان ، حيث أنّ الانسان صُنع على صورة الله و لكن مع الفارق التالي : أفكار الله لها القدرة اللامتناهية لتصبح حقيقة . بإمكان الإنسان ان يفكّر في أمور عظيمة و لكن ليس له القدرة على ان يحقق كل ما يتصوّره . الله بالمقابل ، لا يحتاج إلاّ إلى أن يفكّر في شيء ، فيقدر على أن يخلق هذا الشيء كاملاً و ذلك فوراً ومن العدم . و الكلمة الذي كان دائمًا في فكر الله وُلد أو أُنجب في اللحظة التي فيها أنجز الله مضمون فكره . « هذا اذًا هو الوقت الذي فيه يظهر الكلمة بمظهره و لباسه الخارجيين . . . كانت هذه الولادة الحقيقية للكلمة عندما انبثق من الله . » [19] فقد لاحظ تلاميذ المسيح ان سيدهم كان الكلمة الذي خرج من الله . « و الكلمة صار جسداً و حلّ بيننا ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمة و حقًا . » [20]

قال ترتوليانوس إن « الكلمة (المسيح) جعل الله أبًا له حيث أصبح بانبثاقه منه ، الابن الأول ، و هو كذلك لأنه منبثق قبل كل الأشياء ؛ كذلك هو الابن الوحيد للآب بصفته منبثقًا بشكل فريد من أحشاء قلبه تعالى . » [21] و الكتاب المقدس يبرهن لنا هذه الحقيقة حيث أن المسيح نفسه قال إنه جاء من عند الله ، من عقله الداخلي . و قد تحدّث المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم .[22] كذلك تحدّث عن محبة الآب له قبل تأسيس العالم ،[23] و عن الآب الذي أرسله الى العالم المخلوق .[24] و لكن حتى عندما كان المسيح على هذه الأرض ، كان « في الآب » . و هو الذي صرّح بالقول : « أنا والآب واحد . » و أيضًا : « لست وحدي بل أنا و الآب الذي أرسلني . »[25] لقد جاء المسيح من الآب ، و كان لا يزال واحداً مع الآب . وبعد قيامته عاد الى الآب . كان دائمًا وبشكل ثابت ، كلمة الله ، و الإعلان الإلهي الظاهر للخالق الإلهي ذاته .

بهذا الاسلوب حاول ترتوليانوس ان يجيب عن أسئلة الغنوسطيين . و لكن ، كانت هناك جماعات أخرى على نقيض الغنوسطيين ، تُثْبت ان المسيح و الآب كانا متطابقين على نحو مطلق . و قد وجد ترتوليانوس جوابًا لهؤلاء أيضًا . فيسوع نفسه قال : « أبي أعظم مني ، »[26] و ذلك ، كما لاحظ ترتوليانوس ، لأن الآب هو الجوهر الكامل (للألوهية) بينما الابن انبثق منه و هو جزء من كل . . . جاء الابن من الآب ، و لكنه لم يكن منفصلاً عنه . لأن الله يُنتج الكلمة . . . كما الجذر ينتج النبتة ، و النبع النهر ، و الشمس الشعاع ، حيث أن هذه المظاهر

كانت « امتداداً » للجوهر الذي انبثقت منه . أنا لا أتردد في أن أدعو النبتة « بنت الجذر » ، و كذلك النهر « ابن الينبوع » ، و الشعاع « ابن الشمس » . حيث أن كل مصدر أصلي هو والد او والدة ، و ما ينتجه هو ابنه أو ابنته و هذه الحقيقة تصحّ أكثر بكثير على كلمة الله الذي حصل على اسم « ابن » كلقبه المناسب . ولكن النبتة ليست منفصلة عن الجذر ، و النهر ليس منفصلاً عن الينبوع ، و الشعاع غير منفصل عن الشمس ، و هكذا كلمة الله ليس منفصلاً عن الله . و عليه ، و استناداً الى هذه التناظرات ، أعترفُ بأنني اتحدث عن اثنين : الله و كلمته ، الآب و ابنه . إن الجذر و نبتته هما اثنان ، و لكنهما متحدان . النبع و النهر اثنان ، و لكنهما موحدان ؛ الشمس و شعاعها اثنان و لكنهما متحدان . فإن أيّ شيء ينبثق من أي شيء آخر يحتاج إلى أن يكون شيئًا ثانيًا ، و لكنه ليس بالضروري منفصلاً عنه . و عندما يكون هناك واحد ثان ، فإنهما اثنان ، وعندما يكون هناك ثالث يكونون ثلاثة . الروح القدس هو الثالث من الله و الابن ، كما الثمرة من النبتة فوق الأرض هي الثالثة من النبتة ، و القناة من النهر هي الثالثة من النبع ، و النقطة المضاءة بالشعاع هي الثالثة من الشمس . و لكنّ أحداً من هذه غير منفصل عن الأصل الذي تستمدّ منه صفاتها الخاصة . و عليه ، فإنّ الثالوث ينبثق من الآب بخطوات مستمرة و متصلة بعضها ببعضها الآخر . وهذا لا يطعن ، بأي حال من الأحوال ، في وحدته تعالى ، لكنه يحافظ على حقيقة كونه يعلن ذاته بطرق مختلفة . »[27]

و بهذا ، ختم ترتوليانوس حديثه قائلاً إنّ الابن و الروح القدس انبثقا من الله نفسه . كانا موجودين مع الآب منذ الأزل ، و لكن ، في الوقت المعيّن أُرسلا كإعلان عن الله نفسه . الكلمة هو الله ، و لكنّ الله هو أكثر من مجرد كلمته . الروح القدس هو الله ، و لكنّ الله أكثر من مجرّد روحه . فالله يشتمل على كل هؤلاء : هو نفسه ، كلمته و روحه . إن كلمة الله هو إعلانه عن نفسه تعالى . و روح الله هو اعلانه عن نفسه إيضًا ، و لكنه يبقى هو الله نفسه ، الله الواحد كما كان دائمًا و كما سيبقى الى الأبد .

و لكن ترتوليانوس اعترض على بعض الناس الذين يدّعون أنه لم يكن هناك فرق او تمييز بين الآب و الابن ، و يذهبون في ذلك الى حدّ الجزم ان الله الآب مات على الصليب و حمل خطية الانسان . أجابهم ترتوليانوس : « إنّ هذا القول هو تجديف على الله ، فلنتوقف عنه ، و لنكتفِ بالقول إن المسيح ابن الله هو الذي مات . لقد مات ، لأن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس . . . وعليه ، وبما أنّ للمسيح طبيعتين ، طبيعة إلهية و طبيعة بشرية ، و بما انه متفق عليه ان الله لا يموت ، اذاً الطبيعة البشرية هي وحدها المائتة . فمن الواضح انه حين قال الرسول ، إنّ « المسيح مات » فهو يتحدث عن الجسد و الانسان و ابن الانسان ، و ليس عن الروح و الكلمة و ابن الله .»[28]

للمسيح طبيعتان ، أضاف ترتوليانوس ، « متّحدتان في شخص واحد ، يسوع ، الذي هو الله و الانسان . . . لقد ظل كل جوهر محتفظًا بخصائصه ، بحيث تمّم

الروح في المسيح نشاطاته الخاصة - القوى و المعجزات و الأمارات - بينما جسده اختبر ما يختص بالجسد - الجوع عندما التقى المسيحُ إبليسَ ، و العطش في مقابلته مع المرأة السامرية ، والبكاء عند موت العازر ، والاكتئاب حتى الموت ، و أخيراً موت الجسد . »[29] لقد جُرّب المسيح بجسده و فكره ، بالاغراءات نفسها التي تصيبنا [30] ، فلم يكن محصّنًا ضد الاغراءات ، كما لم يكن متأكّداً من النصر الفوري عليها . و لكنه كان يستمدّ القوة من الروح الإلهي الموجود فيه ، فلم يستسلم قط . تألم و مات بجسده البشري كابن الانسان ، و مع ذلك فقد بقي روحه الإلهي حيًا . ترك روحه الجسد في لحظة الوفاة .[31] ولكنه عاد اليه مرة ثانية عند قيامته من الأموات .

و هنا نرى الفرق بين الابن و الآب . الآب لا يتغيّر و ليس له جسد مادي . فهو لا يموت و لا يقوم من الأموات . الابن هو الذي عانى و تألم و مات بالجسد ، كما يحدث للانسان فقط . لقد صرخ يسوع : « إلهي إلهي لماذا تركتني . »[32] قال ترتوليانوس : « لقد كانت هذه الصرخة صرخة الجسد و النفس ؛ كانت صرخة الإنسان ، لا صرخة الله . وهذا ما عناه الرسول بقوله إنّ الآب لم يشفق على ابنه [33] ، و قبل هذا ، صرّح اشعياء النبي قائلاً : «و الرب وضع عليه اثم جميعنا .» [34] كان الله الآب هو الذي بذل الله الابن من أجلنا . وكان الله الابن وحده من انبثق من الآب ، و تجسد ، وحمل اوزار الخطية . « الآب يختلف ويتميّز عن (انسانية) الابن ، مع انه لا يختلف عنه بألوهيته . » و قد قدّم ترتوليانوس الإيضاح هنا بالقول : « إذا كان هناك جدول مياه ملوّث . . . فهذا لا يؤثر في مصدره او منبعه ، مع انه ليس هناك انفصال بين المصدر و الجدول .» [35] لقد أُميت الابن ، و لكن ليس للآب جسد بشري ، لذا لا يمكن ان يموت . و هنا يكمن الفرق بين أقانيم اللاهوت .

لقد كانت مثل هذه المناظرات اللاهوتية ضرورية لحفظ الايمان و نقله الى الأجيال الصاعدة من دون فساد او خطإ . و لكن لا يُفترض بالجميع ان يتبعوا مثل هذه التعقيدات من الإثباتات المنطقية والتفنيد . و لحسن الحظ نقول إنّ التعاليم الأساسية للمسيحية كانت واضحة و عملية بشكل ممتاز . و كان أبسط المؤمنين يتمكّن من قبول كلمات يسوع بمعناها الظاهري - لإطاعتها والإيمان بها ، حتى و إن لم يفهمها بالكامل . فالإنسان يستطيع ان يخدم المسيح من دون أن يقرأ حجج ترتوليانوس المعقّدة ، او يفهمها تمامًا .

منذ البدء راح المبشرون و الوعاظ ينادون بالانجيل في مناطق نائية لم تصلها بعد هذه الرسالة ، وكانوا من ثمّ يعلّمون المهتدين ، كيفية الحياة كمسيحيين . عرف معظم أولئك الرحّالة رسالة المسيح بشكل جيد ، و فسّروها بوضوح و دقّة ، و لكنّ بعضهم ، مثل أبُلّوس في أفسس ، وغيره ، كانوا هم انفسهم في حاجة الى تعلّم طريق الرب بأكثر تدقيق .[36] لقد خلّفوا وراءهم مجموعات صغيرة من المؤمنين هنا و هناك ليناضلوا بأنفسهم ، من دون ان يكون لديهم و لو جزء

يسير أسفار الكتاب المقدس . أنتجت بعض تلك المجموعات الجديدة أفكاراً و تعاليم غير صحيحة تمامًا ؛ و بعضهم الآخر أظهروا على نحو واضح ، ان تعليمهم يختلف عن التعليم الأصيل . و المشكلة التي جابهت قادة الكنائس الموجّودة هناك ، هي كيف يمكنهم ان يميّزوا بين المجموعات التي يجوز اعتبارها ككنائس حقيقية للمسيح ، و المجموعات الأخرى المرفوضة . فاقترح ترتوليانوس مقياسين يمكن الحكم من خلالهما . أولاً ، يُسأل في الكنيسة إن كانت قد تأسست على يدي واحد من الرسل الاثني عشر ، أو احد الخدّام الموافق عليهم ، و الذين تم تعيينهم من أحد الرسل . ثانيًا ، هل الكنيسة تعلّم المبادئ نفسها التي علّمها المسيح و رسله؟ فإذا ما طابقت المجموعة هذين المقياسين يمكن اعتبارها رسولية ، و يجري قبول أعضائها كإخوة في المسيح .

و بعد ذلك يضع ترتوليانوس المبدأ العظيم : اتحاد الكنائس الناتج من أصلها الواحد . فيعيدنا الى التلاميذ الأحد عشر الذين اختارهم يسوع : « لقد شهدوا اولاً بالإيمان بيسوع المسيح في كل أنحاء اليهودية وأسسوا كنائس هناك ، و من ثم ذهبوا الى العالم و هم ينادون للأمم بالعقيدة نفسها المختصة بالإيمان نفسه . و بالطريقة نفسها أسسوا كنائس في كل مدينة ، ومنها اقتبست كنائس أخرى برعم الإيمان و بذور العقيدة . . . و لا تزال تقتبسها في كل يوم . . . و هكذا فالكنائس ، مهما كثرت و عظمت ، هي شبيهة بتلك الكنيسة القديمة الواحدة التي أسسها الرسل ، و التي انبثقت منها . . . فكل الكنائس واحدة . و هي تبرهن وحدتها بسلامها المشترك ، و باللقب " إخوة " ، و برباط الضيافة المتبادلة . »[37]

تحدّى ترتوليانوس كنائس جديدة ، كانت قد عرضت مبادئ و تعاليم غريبة ، لتثبت نسبها و أصالتها . فقال : « فليعرضوا أصول كنائسهم ، و ليكشفوا قوائم بأسماء نظّارهم المتعاقبين بشكل متواصل منذ البداية ، بحيث يستطيع اول نظّارهم ان يؤكّد أنّ أحد الرسل أو أحد تابعي هؤلاء الرسل هو سلف له في الخدمة ، و مصدر لسلطته . »[38]

إلاّ أنّ ترتوليانوس أصّر كذلك على فحص التعليم في الكنائس الجديدة ، ليرى ما إذا كان يتناسب مع تعليم الكنائس التي أسسها الرسل أنفسهم . « و الآن يجب الموافقة على مادة الوعظ في هذه الكنائس ، أي إعلان المسيح لها ، على أن يتم ذلك في نظري في ضوء شهادة الكنائس الأولى التي أسّسها الرسل اذ كرزوا لها شخصيًا ، و بواسطة رسائلهم في ما بعد . . . نحن في شركة مع الكنائس الرسولية اذ لا اختلاف في العقيدة . و هذا ما يضمن أننا نُعلّم الحق . »[39]

و قد زادت الحال تعقيداً بسبب وجود بعض المعلمين المبتدعين الذين قدّموا مستندات تدعم نظرتهم الخاصة التي ادّعوا انها من مخطوطات الرسل . فردّ ترتوليانوس على هذا بالقول : « حتى و إن استنبطت هذه البدع أنسابًا كهذه ، فلن يفيدهم ذلك في شيء ، حيث عند مقارنة تعاليمهم مع تعاليم الرسل ، تُظهر باختلافها و بعدم تشابهها انها لم تصدر لا عن الرسل ، و لا عن أي شخص كان له علاقة برسول . . . يجب أن تخضع لهذا الفحص جميع

الكنائس اللاحقة التي تُؤسَس يوميًا . و مع انهم قد لا يستطيعون ان يذكروا رسولاً أو شخصًا له علاقة برسول ، كمؤسس لهم ، إلا أنهم يستطيعون ، إن اتحدوا حول الإيمان الواحد ، أن يُحسبوا ايضًا رسوليّين ، و ذلك بسبب التجانس في التعليم . » [40]

و حين واجه ترتوليانوس التكاثر المستمر للكنائس الجديدة ، شعر بأنه من المرغوب فيه عند كل كنيسة أن تسجّل أصالتها و نَسَبها خطوة خطوة ، حتى تعود بهذه الأصالة او النسب الى أحد الرسل ، و لكن المحك الأهم للتعليم الصحيح كان بوضوح ، إمكانية إثبات ان عقيدتها تتناسب مع عقيدة الرسل ، كما هي مدوّنة في الكتاب المقدس ، و كما كانت تعلّم الكنائس القديمة . مع ذلك ، لم يعش ترتوليانوس ليرى حشد القوى المتناحرة ، للمعركة الكبيرة بين « العقيدة » و « النسب و الأصالة » التي وقعت بعد قرن واحد من وفاته .

ملاحظات

1- لا ينبغي لنا أن نخلط بين رسالة برنابا و ما يسمى « بإنجيل برنابا » ؛ إذ لا توجد أية إشارة الى هذا الأخير في أية وثيقة قبل نهاية القرن الخامس ، حين ذُكر كعمل هرطقي متأخر و غير مقبول . و هناك كتاب يرجع الى القرن الثامن عشر يدّعي أنه هو ذاك الإنجيل المفقود . لكنه مكتوب بالإيطالية ، و يحتوي على اقتباسات من قرآن القرن السابع و من « الكوميديا المقدسة » لدانتي في القرن الثالث عشر للميلاد . لذا ، فلا شك في أن هذه الوثيقة الإيطالية لا ترجع الى زمن الرسل . وأخيراً نلاحظ أنه لم يتم العثور على أية وثيقة أخرى عن هذا « الانجيل » المزيف .

2- *Epistolae Festales* 39; Bainton p. 98

3- *Adversus Praxean* 11

4- 2 بطرس 21:1

5- *Apologeticus* 39

6- بالإشارة الى فيلبي 2:3

7- *Adversus Marcionem* 2:5 . راجع ترجمة: Bettenson *ECF* pp. 111 - 112

8- *Adversus Marcionem* 2:6

9- *Adversus Marcionem* 2:27

10- *De Carne Christi* 6

إنّ المعجزات التي مجّدت ولادة المسيح وخدمته الشفائية وقيامته وصعوده تُبيِّن بوضوح أنه أعظم من أيٍّ واحد من الأنبياء . لذلك ، ومنذ الأزمنة الأولى ، نال اللقب الفريد والسامي : «ابن الله» ، بوصفه الشخص الذي مَثَّل الألوهة وأظهرها في الأرض . هذا ، وإنّ المسيحيين في الماضي ، كما في الحاضر ، يعرفون أنّ لهذا التعبير مفهومًا رمزيًا وروحيًا ، وليس جسديًا أو ماديًا .

11- *De Resurrectione Carnis* 6

12- *De Resurrectione Carnis* 6

13- بالإشارة الى يوحنا 6:3

14- *Adversus Praxean* 27 ؛ بالإشارة الى 1 تيموثاوس 5:2

15- *Adversus Praxean* 5
16- يوحنا 1:1 - 3
17- بالإشارة الى 1كورنثوس 7:11
18- *Adversus Praxean* 5
19- *Adversus Praxean* 7
20- *Adversus Praxean* 7
21- يوحنا 14:1
22- يوحنا 5:17
23- يوحنا 24:17
24- يوحنا 18:17
25- يوحنا 30:10 و 38 ؛ 16:8
26- يوحنا 28:14
27- *Adversus Praxean* 7
28- *Adversus Praxean* 29
29- *Adversus Praxean* 27
30- عبرانيين 15:4
31- متى 50:27
32- متى 46:27
33- بالإشارة الى رومية 32:8
34- *Adversus Praxean* 30 ؛ بالإشارة الى إشعياء 6:53
35- *Adversus Praxean* 29
36- أعمال 24:18 - 26
37- *De Praescriptione Haereticorum* 20
38- *De Praescriptione Haereticorum* 32
39- *De Praescriptione Haereticorum* 32
40- *De Praescriptione Haereticorum* 32

راجع بشأن أمر تثبيت قانونية أسفار العهد الجديد :

Bainton pp. 97 - 99 ؛ Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 516 - 524 . بالنسبة الى كتابات ترتوليانوس التي تشكّل موضوع جدل ، راجع *ANF* Vols. III & IV . يعرض *ECF* Bettenson ترجمة حديثة أكثر بالانجليزية لمقاطع مختارة من عمل ترتوليانوس .

الفصل التاسع

معـــانـــاة الأبـــريـــاء

منذ الأيام الأولى للمسيحية ، عرّف اللاهوتيون بالإنجيل و فسّروه بكل تأثير ، و دافعوا عنه بالمنطق و الذكاء . لكن ، في واقع الحال ، كان لعمل هؤلاء الدارسين المشهورين مساهمة في انتشار المسيحية فعليًا ، أقلّ على الأرجح من البرهان المنظور لقوّتها كما برز بين معتنقيها الأكثر تواضعًا . لقد ظهر الإيمان الجديد بأنه معقول و مقبول منطقيًا . كما أنه لم يكن أقل فعالية في برهان صدقه و صحته ، و ذلك من خلال قدرته على تغيير حياة الناس العاديين من كل فئات المجتمع و مرتباته . و قد ظهرت جدارة هذا الايمان في ما تحلّى به المسيحيون الأولون من خُلق مستقيم و محبة رائعة في مجال تعاملهم مع جيرانهم . كما أن هذا الإيمان بان جذّابًا في عطفهم على المحتقرين و الضعفاء من الناس . أمّا قدرته ، فقد برزت قبل كل شيء في مواجهتهم الاضطهاد بثبات لا يتزعزع . و بالتأكيد ، كان اولئك المسيحيون على اتصال بالكائن الإلهي ذي القوة و السلطان العظيمين . لقد قُدّر لهذا الايمان الجديد بشكل واضح أن يُبطل تلك الفلسفات المعيبة ، و الديانات التي أثبتت انها خيبة أمل محزنة للأجيال الماضية ، لكي يحلّ محلّها .

وعلى عكس ما يمكن أن نتصوّر ، كان نمو الكنائس يزداد سرعة على قدر ما يعنف الاضطهاد ضدّها . و قد اعتبرت السلطات في شمال إفريقيا أن المسيحية تشكّل تهديدًا للاستقرار و أنها تعمل في جميع أشكالها ضد القانون ، و ذلك على مدى السنوات الثلاث مئة الأولى من وجودها . و كان أتباع المسيح ، في الواقع ، يُعتبرون من الخارجين على القانون ، و هم معرّضون في أية لحظة للمطاردة ، وذلك من حكّام و ولاة القناصل الرومان . كانت تمرّ سنين طويلة لم يكن يحصل فيها أي شيء يعكّر نمو الكنيسة الهادىء . ثم فجأة ، حين تجمح نزوة امبراطور أو حاكم ما ، كان يصيبهم اضطهاد عنيف . وكان كل مسيحي مؤمن يعلم ، أنه عاجلاً ام آجلاً ، قد يأتي ذلك الوقت الذي فيه يشهد للمسيح و ذلك على حساب حياته .

كانت كنائس شمال إفريقيا قد ألفتْ كتابات العهد الجديد و ما دوّنه من أعمال الشهادة ، كاستشهاد استفانوس و يعقوب . كمَا وصلتهم في ما بعد أخبار عن الامبراطور المجنون نيرون (Néron) ، الذي حرّضه غيظه المتوحّش ضد المسيحيين في روما ، و عن ادّعائه الكاذب بأنهم اضرموا النار في روما ما أدّى الى هدم جزء كبير من المدينة . لقد علموا بموت البشيرين بطرس و بولس اللذين من المحتمل أنهما قُتلا في هذا الوقت . و كانوا يسمعون بحوادث الاستشهاد التي كانت تحدث دوريًا و بين الحين و الآخر ، في أجزاء اخرى من

الامبراطورية الرومانية ، كاستشهاد إغْنَاطيُوس (Ignace) ، ناظر الكنيسة في انطاكية ، والذي سيقَ الى روما و قُتل هناك سنَة 110 م ، و استشهاد يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) في العام 165 للميلاد في روما ايضًا . و لكن لم يكن هناك شيء تجاوز او حتى وصل الى المشهد المأساوي لاستشهاد بُوليكَارپُوس (Polycarpe) في ايامه الأخيرة ، و هو ناظر كنيسة سْمِيْرْنَا (تركيا) . و هذه الحَادثة الأليمة مذكورة في رسالة طويلة كتبها المؤمنون في تلك المدينة .

كان پوليكارپوس في ايام شبابه من تلاميذ الرسول يوحنا ، و صديقًا لإغناطيوس . وعندما أصبح شيخًا مسنًا كانت كنائس المنطقة تنشد في كثير من الأحيان استشاراته الحكيمة والمحبة . و غالبًا ما كان يُدعى لحل الخلافات التي قد تنجم من جرّاء اختلاف وجهات النظر و الآراء . عاش شيخوخة سعيدة و حافلة بالإنجازات في وسط الجماعة المسيحية التي أحبّته وكرّمته .

اهتزت الكنيسة في سميرنا بعنف عندما ألقت السلطات الوثنية ، و بشكل مفاجيء ، القبض على عدد من اعضائها ، و جرى إعدامهم بسبب الايمان . و قد اجتمع كل من اليهود والوثنيين ليستمتّعوا بالمشهد . و في خضمّ هذه العاصفة الهوجاء ، راح بعض المتفرّجين يطالبون بقائد الكنيسة هاتفين : «فتّشوا عن پوليكارپوس . »

و هكذا تابع مؤمنو سميرنا بكل أمانة ، شرح ما حدث بعد ذلك ، فكتبوا : « عندما سمع پوليكارپوس ، الرائع للغاية ، بهذا الأمر لأول مرة ، لم يرتعب او يفزع ، بل رغب في أن يبقى في المدينة إلاّ أنّ غالبية المؤمنين حاولوا بإلحاح ان يقنعوه بأن يترك المكان ، فانسحب الى مزرعة صغيرة لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كان فيها . و كان يقضي وقته هناك مع نفر من رفاقه ، مشغولين ليل نهار بالصلاة لأجل الجميع و للكنائس في كل انحاء العالم ، كمًا كانت عادته دائمًا . » و بعد بضعة أيام ، انتقل الى مزرعة اخرى قريبة ، رافضًا بثبات الفرار من الجوار . كان يتوقع بالكلية ان تقبض عليه السلطات الرومانية في أية لحظة ، و كان ينتظرهم بهدوء تام .

و في وقت متأخر من إحدى الليالي المظلمة ، وصل جنود امبراطوريون الى المزرعة . وكان پوليكارپوس يرتاح في الغرفة العلوية . و إذ سمع أصواتًا و صخبًا في الطابق السفلي ، قال باطمئنان : « لتكن إرادة الله . » ثم نهض و طلب أن يُحضر الطعام و الشراب المنعش للجنود ، وسألهم ان يمهلوه ساعة واحدة فقط ليصلّي . فعندما رآه الجنود ، تأثروا من شيخوخته و ثباته ، كما دهشوا من افتعال مثل هذه الجلبة و الضجة بسبب هذا الرجل الطاعن في السن . « وقف و صلّى ، » أردف الصحابة المسيحيون في سميرنا قائلين : « كان ممتلئًا من نعمة الله تعالى ، بحيث لم يكفّ عن الكلام خلال ساعتي الصلاة ، بينما كان الذين حوله مشدوهين متعجبين . لقد أسف الرجال الجنود ، على انهم جاءوا يطلبون هذا الرجل الجليل و العجوز المهيب .» لقد صلّى للجميع ، ولإخوته و لأخواته في

المسيح ، ولكل من خطر بباله من الصحاب و الأصدقاء ، ذاكراً اياهم بأسمائهم . و من ثمّ أجلسوه على حمار ، و ساروا به يقصدون المحكمة في سميرنا .

و عندما اقتربوا من المدينة ، لاقاه رئيس الشرطة هيرودس و والده صدفة في الطريق . فأخذا پوليكارپوس في عربتهما و حاولا ثنيه عن عناده و رفضه القول : « مولاي القيصر » ، ورفضه انقاذ حياته بتقديم القرابين و التقدمات للآلهة الوثنية . و مع ذلك ، فقد أصرّ الشيخ الجليل على الرفض بأدب جم . و أخيراً ، حين يئسوا من ثباته ، و قد نفد صبرهم ، دفعوه بغضب الى خارج عربتهم . و قع پوليكارپوس بقوة الى الأرض فجرحت رجله . و قد استخفّ بجرحه ، و بقي سائراً في الطريق مع حرسه ، حتى وصلوا أخيراً الى الملعب ، وهو الميدان الذي تجري فيه المباريات و تُعرض فيه المشاهد .

ثم تابع كاتب الرسالة يقول : « الآن ، و بينما كان يدخل المدرج ، جاءه صوت من السماء يقول له : «تقوَّ يا پوليكارپوس ، و كن رجلاً .» لم يرَ أحدٌ المتكلم ، و لكنّ ذلك الصوت سمعه الإخوة المؤمنون الذين كانوا حاضرين هناك . » و علا صوت المحتشدين حتى أصبح من الصعب سماع ماذا كان يجري . سأل القاضي پوليكارپوس ان يقسم بقوة قيصر الإلهية ، و أن يلعن المسيح . فأجاب پوليكارپوس ، و كان جوابه واحداً من كنوز التاريخ المسيحي : « لقد خدمت المسيح ستةً و ثمانين سنة ، و لم يخذلني المسيح أبداً . فكيف تريدني الآن ان أجدّف على اسم مليكي ومخلّصي ؟ »

أنذره القاضي ثانية ، فازداد پوليكارپوس صلابة و شدّة ، و قال : « إن كنت تتوهّم ، أنني سأقسم بقدرة قيصر الإلهية كما تقول ، متظاهراً انك لا تعرف من انا ، فاسمع جيداً : أنا مسيحي . و إذا كنت مستعداً و راضيًا على ان تتلقّن التعليم المسيحي ، فامنحني يومًا واحداً واصغِ إليّ . » حينئذ قال الوالي : « إذاً اقنع الناس الذين هنا . » فأجاب پوليكارپوس : « لقد حسبتك مستحقًا أنْ أتكلم معك ، فإن عقائدنا تعلّمنا ان نخضع للسلاطين و للذين هم في منصب ، لأنهم مقامون من الله . أمّا هؤلاء الرعاع ، فلست أجدهم يستحقون ان أقدّم دفاعي أمامهم . » هنا ، أنذره القاضي ثانية طالبًا منه ان يقرّب التقدمات للوثن ، مهدداً اياه بالوحوش الكاسرة في حال استمرّ رفضه . فقال پوليكارپوس : «ارسل في طلبها ، ان الارتداد من الأحسن الى الأسوإ هو أمر مرفوض عندنا ، و لكنّ التغيير من الباطل الى الحق هو العمل النبيل . » عندذاك هدده القاضي بأن يضرم به النيران و هو حي . « أنت تهددني بنار تشتعل لفترة قصيرة ، » أجاب پوليكارپوس ، « و لكنك لا تعلم شيئًا عن النار الأبدية التي أُعدّت للأشرار . و الآن لماذا تتوانى ، جئ بما تشاء . »

عندها نطق القاضي بالحكم على پوليكارپوس ، فأعلن المنادي الذي يذيع الأحكام من منتصف المدرج قائلاً ثلاث مرات : « لقد اعترف پوليكارپوس أنه مسيحي ! » فجُهّز العمود الذي يُشدّ اليه المحكوم بالموت حرقًا ، و كُدّست حوله كومة من الخشب . مشى پوليكارپوس بهدوء

وتؤدة الى المكان ، و وقف قبالة العمود . و بينما اقترب منفّذو الحكم ليسمّروه على العمود حتى لا يسقط ، طلب پوليكارپوس ألاّ يكلّفوا أنفسهم كل هذه المشقة بالقول : « ذاك الذي يعطيني القوة لتحمّل اللهب ، هو نفسه سيمكّنني من الوقوف بثبات .» لذا فقد رُبط بحبل فقط ، و اذ اندلعت النيران بقوة حوله ، سُمع صوته و هو يقدّم الشكر لله الذي سمح له بأن يعاني الآلام ، كما عانى مخلّصه ، من أجل الحق ، و رفع عينه الى السماء قائلاً : « أيها الرب القادر على كل شيء ، أشكرك لأنك اعتبرتني مستحقًا ، في هذا اليوم ، و في هذه الساعة ، أن أشارك مع الشهداء في القيامة للحياة الأبدية . » و بعد هذا رأوا اللهيب يعلو و يتصاعد حوله ، من دون ان يظهر على پوليكارپوس انه يتأذى . عندئذ غمد أحد العساكر سيفًا في جنبه . وللوقت ، اندفع الدم يتدفق من جنبه و كأنه جدول منّ الجداول ، سبّب في إطفاء النار . إلاّ ان الوالي كان قد قرر انه لا يحق للمسيحيين ان يكون لهم الكلمة الفصل ، و لا ان يتسلّموا جثة قائدهم الموقّر . لذلك ، أمر بإضرام النار ثانية . و هكذا دخل پوليكارپوس الى فرح سيده .[1]

لقد اتّحد كل من اليهود و الوثنيين و الجماهير و السلطات ، بقلب واحد و فكر واحد ، لإبادة الجماعة المسيحية . إلاّ أن مثل هذا العمل كان بعيداً كل البعد عن متناول أيديهم . «لم يعلم هؤلاء ، » تقول الرسالة من سميرنا ، « أننا لا نستطيع ابدًا ان نتخلّى عن المسيح ، الذي تألّم لتأمين الخلاص لأولئك الذين ينالون الخلاص من العالم بأسره ، و اننا لا نتمكن ابدًا من عبادة أي شيء آخر .» وبموت پوليكارپوس في العام 156 بعد الميلاد ، توقّف اضطهاد المسيحيين في سميرنا . لقد فشلت هذه الأساليب القمعية تمامًا في إرهاب الكنيسة او ترعيبها . والآن جاء دور بلاد الغَال (Gaule) وشمال إفريقيا .

ظهرت أولى بوادر عملية اضطهاد المسيحيين في مناطق الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط ، في أثناء حكم الامبراطور ماركوس اوريليوس (Marc Aurèle) و ابنه كُومُودُوسْ (Commode) في الفترة بين العامين 177 و 192 ميلادية . و في هذا الوقت أيضًا ، وصلت الأخبار الى كنائس افريقيا الشمالية عن الحوادث التي تقع في بلاد الغال (فرنسا) ، تلك الحوادث التي سلّطت الضوء على الشعور الذي كان سائداً في الامبراطورية الوثنية في ذلك الوقت . ففي مدينة ليون (Lyon) وفيَان (Vienne) انتشرت شائعات تدّعي حصول أشياء بغيضة في الأوساط المسيحية : زنا المحَارم ، قتل و حتى اكل لحوم البشر . و نتيجة لهذه الشائعات الكاذبة ، أُبعد المسيحيون عن الأماكن العامة ، والحمامات و الأسواق ، و مُنعوا من الظهور علنًا . و في العام 177 ميلادية ، عُذّب عدد من الخدام والعبيد العاملين في بيوت المسيحيين ، وذلك بأسلوب بشع في محاولة من المعذِّبين لتثبيت هذه التهم الكاذبة . و هكذا تمكّنوا بحدّ السيف من انتزاع شهادات و اعترافات رهيبة ، من هؤلاء القوم الضعفاء والحائرين في ساحة المدينة . و قد أثار الرعاع من جراء ذلك مشاعر بعضهم بعضًا الى درجة الجنون و الهوس . كان المسيحيون يُجرّون الى الساحات العامة ، حيث كانت الحشود تزداد غضبًا

لـدى سماعهـا التهـم الملفّقة علـى المسيحييـن . و لكن ، بالرغم من شتى ضروب التعذيب الرهيبة ، لم يجد الحكّام دعمًا لاتهامهم المسيحيين بالخيانة العظمى ضد الامبراطور .

أُجبرت احدى الجواري المدعوة بيبلياس (Biblias) ، على الإدلاء بتصاريح كاذبة ضد العائلة المسيحية التي كانت تعمل لديها ، ثم سيقت الجاريـة ثانيـة لتـدلي بتصـريحـات اضـافيـة ضـد هـذه الـعـائلـة . و لكنها في هذه المرة وقفت ضد معذبيها و عارضتهم قائلـة إنهـا هـي أيضًا مسيحية ، و ان ما أدلت بـه في السـابـق ضـد هـذه الـعـائـلـة كـان ادّعـاءً لا أسـاس لـه مـن الصحـة ، و قالت ، ان هذه العائلة بريئة من أية جريمة . فمـاتـت هـذه الجارية شُجاعـة ثابتـة الايمان . كذلك ، فإن احـد المعـاونين فـي مـدينـة ليـون ، وكـان يـدعى سَانْكْتُوْس (Sanctus) ، ألـقي القبـض عليـه ، و صُـبّ النحاس الساخن على جسده ، لكنه لم يقل الاّ عبارة واحدة ردّدهـا باستـمـرار ، و هـي :« أنا مسيحي . »

وفي مدينة مجاورة ، رفض احد الشباب الأغنياء ، و يُدعى سِيْمْفُورِيْنُوس (Symphorinus) أن ينحني أمام صنم الإلاهة سبلي (Cybèle) ، فحُكم عليه بقطع رأسه . و كانت أمه ، هي الأخرى ، مسيحية ، و لم تُظهر أيةَ عَلامة من علامات الخوف او الفزع . و عندما كان في طريقـه الى منصـّة الإعـدام ، صرخت اليه قائلة : « اثبت يا بنيّ ، و لا تخف من الموت الجسدي الذي سيؤدي بك بكل تأكيـد الى الحياة . انظـر الى الـرب الذي مُـلـكه فـي السمـاء . إنّ حيـاتك الأرضـية لا تـؤخـذ مـنك اليـوم ، و إنما يحوّلها الرب الى الحياة الأبدية المباركة في السماء . »

توفّي عدد كبير من المؤمنين في سجون ليون خلال تلك الحقبة من الزمن ، و ذلك مـن دون إجراءات قضائية أو محاكمـة . أمّـا أولئـك الذين سَـلموا و عاشوا ، فقـد وضعوا تقـريـراً لمـا حصل فتحدّثوا بكلـمات مـؤثـرة عن قائد مسنّ في الكنَيسة . « و الآن ، جاء دور پُوْثِيْنُوْس (Pothinus) المبارك الذي كان مؤتمنًا على خدمة النظـارة فـي ليـون ، و كـان قـد تَجـاوز التـسـعـين مـن عمره ، و بات ضعيف الجسـم و واهنًا جـدًا . . . لقـد استُـدعي الى كرسي الحكـم يحرسه قضاة المـدينـة و كل أسافـل الناس الـذين كـانـوا يصـرخون و يصفـرون مستهـزئين بجلبـة كبيـرة . و اذ سألـه الحـاكم من هو إلـه المسيحـيـين ؟ أجـابـه : «إذا كنتَ أهـلاً و جديراً فأنـت ستـعـرف بنفـسـك .» وعنـدهـا تمّ جرّه بلا شفقة ، وبدأ المتجمهرون يركلونه و يلطمونه ، و أمّا الذين كانوا بعيدين عنه ، و لم يتمكنوا من أن تطاله ايديهم او أقدامهم ، فقد كانوا يقذفونه بما عندهم من حاجات او أشياء ، و كان يتنفس بصعوبة حين أُلقي في السجن ، و لم يمرّ يومين حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

لقد عُذّبت جارية أخرى تُدعى بْلاَنْدِيْنَا (Blandine) ، خلال نهار كامل ، و بوحشية رهيبة أذهلت الجنود : كيف يمكن لهذه الجارية اَن تبقى حيّة بعد كل هذا التعذيب الوحشي المروّع ؟! من ثم جرى ربطها الى عمود ، و عُرضت للوحوش الكاسرة ، و كان يُؤتى بها يوميًا لترى

العذاب الذي يكابده أصدقاؤها . و كانت ترفع صوتها باستمرار مصلّية من اجلهم جميعًا . ثم رُبطت أخيرًا بشبكة و ألقيت امام ثور هائج استمر ينطحها حتى استشهدت في المدرج ، رافضةً ان تقول كلمةً ضد المسيحيين . لم يكن مسموحًا بأن تُدفن جثث الشهداء ، و إنما كانت تُحرق حتى تصبح رمادًا ، و أخيرًا تُلقى في نهر الرُوْن (Rhône) .

إنَّ ما لدينا من قصص مكتوبة عن هؤلاء الشهداء في ليون و في فيان ، تكشف الستار عن الروح المسيحية الرائعة التي كان المسيحيون يتحلّون بها . فلم يُظهر هؤلاء أية علامة من علامات المرارة او الحقد على أولئك الذين كانوا يضطهدونهم ، و لا ضدّ أي من أولئك الذين ادّعوا عليهم زورًا و بهتانًا ، بجرائم لم يرتكبوها . لقد كتبوا : « ليس هناك شيء يخيفنا حيث يكون حب الآب السماوي ؛ و لا شيء يؤلم ، ما دام المسيح يشرق علينا بمجده . » كذلك ، لم يدينوا اخوتهم و اخواتهم الضعفاء الذين لم يستطيعوا تحمّل معاناتهم ، بل استسلموا الى رغبات معذبيهم . بل أظهروا لهم على نقيض ذلك حنانًا رائعًا ، مصحوبًا باتضاع فريد من نوعه . وماذا بعد ، فإن هذه الحوادث كلها تؤكّد لشعب بلاد الغال ان المسيحيين لم يكونوا مجرمين . فلم يثبت انهم اذنبوا بأي من الأفعال الشائنة ، و لم يتمكن أحد من إخافتهم بالشكل الذي يجعلهم يتنكرون لإيمانهم الذي يثقون بأنه حق . [2]

من ثم انتقل مركز الأحداث عبر البحار ، قاصدًا الولاية الرومانية في افريقيا البروقنصلية . حدث ذلك في وقت دُعي فيه مسيحيّو مدينة سكيلْيُوْم (Scillium) ليعطوا حسابًا عن أنفسهم . و لقد كان هناك سبعة رجال و خمس نساء ، تشهد اسماؤهم انهم من خلفية أمازيغية وفينيقية ، و من خلفية بونية . يبرز أحدهم ، و يدعى سْبيرَاتُوس (Spératus) في الوثيقة المكتوبة . و لا نعلم بالتأكيد إن كان هو السبب الذي من طريقه جاء الآخرون الى الايمان أم لا . إلا أنه يتبيّن بوضوح انه كان قائد هذه المجموعة الصغيرة الشجاعة . كان في حوزتهم رسائل الرسول بولس ، و يظهر جليًا انهم قرأوها وقرأوا نصوصًا أخرى من الكتاب المقدس بشغف و حرص بالغين . و قد ألقي القبض عليهم في العام 180 ميلادية في مدينتهم (بالقرب من سبيطلة في تونس) ، وسيقوا للاستجواب امام حكام قرطاجة .

تبدأ تفاصيل هذه الدراما الحيّة بوجود جمهور السكيليوميين الاثنا عشر القائمين من قبل في قاعة المحكمة ، و بحضور الوالي سَاتُرْنِيْنُوْس (Saturninus) . ثم يبدأ الاستجواب الذي سُجّل بتفاصيل صحيحة كاملة . كان الوالي إنسانًا لطيفًا و عازمًا على ان يقوم بواجبه بالرغم من الاشمئزاز الذي يشعر به من جراء هذه الوظيفة الكريهة كمستنطق . ثم راح يدير محضر الجلسة بتحفظ متّزن ، و هو رابط الجأش هادئ . و من كلماته الأولى أظهر استعداده لأن يكون متساهلاً و ليّنًا باسم الامبراطور ، إذا ما أظهر المسيحيون عقلانية و اعتدالاً . و من جهته ، أكّد سبيراتوس براءتهم من أية جريمة . عندئذ حاول الوالي ان يعيده الى موضوع الاخلاص والولاء للامبراطور ، فأجاب سبيراتوس : « لمَ نقم بأي عمل شرير ، و لا اشتركنا في أي

عـمل سيّء . لكـن ، عنـدما عـوملـنا بقـسـوة قـدّمنا تشكراتـنا ، وذلك لأننا نحتـرم الامبـراطور الذي نحن له و نجلّه .» فـحاول الوالي سـبيـلاً آخـر ، و قـال : « نحـن ايـضًا مـتـدينون ، و ان ديننا مستقيم ، و نحن نأخذ أقسامنا من القدرة الإلهية لسيّدنا الامبـراطـور ، ونصلّي من أجل سلامته . و عليكم ان تفعلوا الشيء عينه . » تمسّك سبيراتوس بكلمة نطق بها الموظف الرسمي ، و هكذا خاطبه بالقول : « إذا ما اصغيت إليّ بصبر ، فإنني سأشرح لك اسرار الاستقامة الحقّة .» عندذاك انتصب الوالي من مقعده و قال : « ان كل ما تريده هو مهاجمة ديننا ، و أنا لن أصغـي إلـيـك . كلّ مـا أريده منك هو أنْ تُقسم بالقوة الإلهيـة لربنا الإمبراطور . » أجاب سبيراتوس : «أنا لا أمجّد امبراطورية هذا العالم ، و لكن عوضًا عن ذلك فأنا أخدم الإله الذي لم يره أحد ، و لا يمكن ان يراه بالعين المجرّدة . أنا لم أرتكب أية سرقة . و إذا ما اشتريت أيّ شيء ، فإنني أدفع ما عليّ من ضريبـة ، لأنـني أمجـّد ربّي مـلـك المـلـوك و امبـراطـور كل الأمم .»

عاد الوالي الى هدوئه من جديد . و استدار بوجهه عن هذا الانسان العنيد المستعصي الى أصدقائه ، و حاول الدخول بينـهـم و بـين قـائـدهـم آمـلاً ان يكون انقيـادهم بالأمر الأسهل . فاستحثهم قائلاً : « اتركوا هذا الايمان ، و لا تشوّشوا انفسكم بهذه الحماقات . » إلاّ أنه وجد الآخرين مملوئين عزمًا و إصراراً كسيّدهم . و أخيراً ، اضطرّ ان ينطق بالحكم القانوني ، و لكنه منحهم فرصة ، بإيقاف التنفيذ لمدة ثلاثين يومًا عساهم يرغبون في إعادة النظر . رفضوا قبول التأجيل ، مؤكـّدين انهـم عـازمـون عـلـى ان يبقوا مسيحيين : « نحن لا نخاف أحداً ، » قال كتّينُوس (Cittinus) « ما دام ربنا و إلهنا موجوداً في السماء . » و أضافت دُونَاتَا (Donata) : «نَحن نجلّ قيصر كقيصر ، و لكننا نخاف الله وحده .» و قالت فسْتيَا (Vestia) : « أنا مسيـحية . » فأضـافـت سيكُونْدَا (Secunda) : « و أنا كذلك ، و هذا ما اريد ان أكونه دائمًا . »

لم يُقل الشيء الكثير في ما بعد ، و هكذا حُكم عليهم بالموت . و في المستندات الحكومية الرسمية ، تمّ شرح الجريمة التي اتّهموا بها ، من دون إدانتهم إدانة متوحشة عنيفة . و قد سُجّلت وقائع الحكم بهدوء و على الشكل التالي : « لقد اعترف كل مـن سبيـراتوس ونَارتْزَالُوس (Nartzalus) وكتينوس و دونا و فستيا و سيكوندا و الآخرين بأنهم يعيشون بموجب الممارسة المسيحية . و قد مُنحوا فرصة ليعودوا الى الديانة الرومانية ، و لكنهم رفضوا هذه الفرصة بعناد . لقد حكمنا عليهم بالإعدام بحد السيف . » فعلّق سبيراتوس بالقول : « نشكر الله . » و أجاب نارتزالوس : « في هذا اليوم نكون شهداء في الجنة . الشكر لله . » عندها اعلن المنادي الحكم . فهتف المتهمون جميعًا : « المجد لله . » و هذا كل ما كان في الأمر . ووصلت القصة الى نهايتها بهذا البيان البسيط : « و بهذا تُوّج الجميع بتاج الشهادة ، و هم الآن يملكون مع الآب و الابن و الروح القدس من الآن الى أبد الآبدين آمين .»[3]

اتّسمت هذه الرواية في كل سياقها ، ببساطتها الصارخة ، و بدقة التفاصيل التي قدّمت وصفًا حنونًا رقيقًا . لقد قال كل من المشاركين ما كان عليه ان يقول . و القصة تأخذ مسارًا حتميًا ، والنهاية لا مفرّ منها . و لدى ملاحظتنا لأشخاص هذه الدراما ، يمكننا ان نرى بعض القوى التحتية في العمل : نزاع لا يقبل بأي حلّ أو تسوية بين نظرتين متعارضتين الى العالم ، عدم تفاهم أساسي بين مجموعتين من أصحاب الضمير المخلصين و النزهاء الذين بحكم الواجب أو الضمير ، وجدوا أنفسهم يقفون أحدهما ضدّ الآخر . فقد وجد كل من خدّام المسيح و خدّام الامبراطور انفسهم في حالة خلاف ، و مع ذلك لم يشعر أحدهم بأي شعور عدائي تجاه الآخر .

لقد أقيم مبنى كنيسة في ما بعد ، في موقع مدافن الشهداء ، و من الممكن ان تكون بقاياه هي التي وُجدت في غرب قرطاجة قرب القرية الصغيرة دوار الشط . و معروف ان كثيرين غيرهم قد استشهدوا ، خلال هذه المدة عينها ، في بقاع أخرى من افريقيا الشمالية .

بعد ثلاثين سنة أطلّ الاضطهاد برأسه البشع من جديد . و في هذه المرة كان بإلهام انسان أمازيغي صرف . إنه الامبراطور سبْتيميُوس سفيرُوس و هو الإفريقي الوحيد الذي لبس اللباس الارجواني الامبراطوري . كانَ سَفيروسَ مواطنًا من مدينة لِبْتيس مَاغْنَا (Leptis Magna) ، و هي بالقرب مما ندعوه الآن طرابلس الغرب . و قد حكَمَ هذا الرجل الغريب روما لثماني عشرة سنة ، من العام 193 ميلادية و حتى وفاته سنة 211 ميلادية ، بعيدًا عن بلده في مدينة يورك (York) الانكليزية . و يصفه الكتّاب الرومانيون « بالبربر » الذي تعلّم اللاتينية جيدًا ، و لكنه لم يفقد قط لهجته الإفريقية . و في سنوات حكم سَفيروس الأولى ، كان يعطف على المسيحيين و يرفق بهم ، لأنه كان يعتقد ان شفاءه من مرض خطر ، كان بسبب مسحة من الزيت و الصلوات التي قدمها له عبد مسيحي اسمه بِرُوكُولُوس (Proculus) . و قد سلّم تعليم أولاده و تثقيفهم الى مربّية مسيحية ، و معلّم مسيحي ايضًا . على أي حال ، تزوج سفيروس من ابنة كاهن إله الشمس ، الذي كان يعبد في مدينة إيميسا (Emèse) في سوريا . و قد مزج بين العبادتين ، العبادة المسيحية و طقوس الديانات الأخرى السرية . لم يكتف هو و زوجته ، ان يكونا حاكمين مطلقين لإمبراطورية واسعة الأرجاء ، بل اختارا ان يقدِّما نفسيَهما كجوبيتر (Jupiter) ، كبير الآلهة على كل الأرض ، وكجونو (Junon) ، ملكته . فبعد ان تخلّص من منافسَيه على السلطة ، جلس سفيروس على العرش الإمبراطوري و حكم كل العالم المعروف آنذاك ، ثم انكبّ بصرامة و من دون رحمة على إطفاء كل شرارة من شرارات الحرية التي كانت لا تزال موجودة في أراضي سلطانه . إن تأليهه لنفسه ، و سلطانه المطلق ، جعلاه يركب متن الغرور . فبدأ يطلب من الناس خضوعًا مطلقًا لنزواته المفرطة التي لا تطاق ، و قد تملّكه شكٌ عارم في أن المسيحيين لا يمكن الركون إليهم في تحقيق أوامره .

و قد غضب سفيروس ، بصورة خاصة ، بسبب حادث وقع في الشرق ، و لكن أخباره انتشرت في كل انحاء العالم ، و ترك أثراً عميقًا في كل مكان . فبمناسبة رفع لقب ولديه الاثنين كَارَكَلاّ (Caracalla) و غِيتَا (Géta) الى اللقبين الامبراطوريين أوغسطس وقيصر ، وزّع سفيروس عطايا سخية على جنود جيشه الذين قدموا لتسلمها لابسين أكاليل من الغار . و لكنّ واحداً من هؤلاء الجنود بدا مختلفًا عن رفاقه ، إذ كان رأسه عاريًا و إكليله في يده . وعندما سئل عن السبب أجاب قائلا : « أنا مسيحي .»[4]

اعتُبرت مثل هذه الوقاحة تحدّيًا صاعقًا لكبرياء سفيروس . فأصدر مرسومًا في العام202 يمنع فيه الناس من اعتناق أي من الديانتين اليهودية و المسيحية ، و ذلك تحت طائلة الموت . و قد جاوز الرسميون تعليمات الامبراطور هذه ، ساعين ، كما يفعل أمثالهم ، لإعطاء رؤسائهم انطباعًا يبيّن مقدار كفاءتهم . فبدأوا باقتلاع هذا الدين الجديد من الجذور . و كانت برپيتوا وزملاؤها في قرطاجة من بين الذين عانوا . كما كان هناك آخرون كثيرون غيرهم في شمال إفريقيا .

ظهرت ضراوة هذا المرسوم على أشدّها بعيداً بمحاذاة الشاطئ المتوسطي لمدينة الاسكندرية ، حيث جُرّد لِيُونيْدس (Léonidès) ، والد العالم اللاهوتي المعروف اوريجانوس ، من جميع ممتلكاته و مقتنياته ، و سيق للموت مع أعضاء آخرين من الكنيسة هناك . كان ليونيدس قد نشّأ أولاده السبعة ، و الذين كان أوريجانوس أكبرهم سنًا ، بكثير من الاهتمام العميق بهم والصلاة كما علّمهم التمييز بين الصالح و الطالح ، حتى يتمسّكوا بالأول و يتجنّبوا الثاني . و كان قد علّمهم أن يستظهروا جزءًا يسيراً من الكتاب المقدس يوميًا . وعندما سمع اوريجانوس أنّ أباه اعتُقل ، قرر ، وكان حينئذ يبلغ من العمر السابعة عشر ، ان يذهب الى المدرج ، و إلى الموت مع والده اذا اقتضت الضرورة . و لكنّ امه ، وقد آلمها جداً ان تفقد كلاً من زوجها و ابنها في يوم واحد ، خبأت ثياب اوريجانوس ، الأمر الذي ألزمه البقاء معها في البيت . و كل ما استطاع اوريجانوس ان يفعل إذ ذاك ، هو الكتابة لأبيه في السجن متوسّلاً اليه ألاّ يخاف على ارملته و أيتامه ، و ليثق بأنّ الله قادر على ان يعيلهم ويرعاهم .

وعندما مات ليونيدس ، تُركت العائلة بحالة فقر مدقع ، و مع هذا لم يخب إيمان أوريجانوس . فقد أخذته الى بيتها أرملة مسيحية طيّبة ، تملك مالاً و أرزاقًا خاصة . وكان حبه لكلمة الله شديداً ، و حماسته على طريق الله قوية ، بحيث أنّه عُيّن معلّمًا وعميداً لكلية يحضرها الشباب المسيحي في الاسكندرية و لمّا يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد . وقد عمل

بإخلاص كرئيس لهذه المدرسة لمدّة تقرب من الثلاثين عامًا . و كانت محاضراته شعبية ، كما كان يتمتع بموهبة خاصة لرفع حماسة تلاميذه . و لم يكن أوريجانوس ، بأي حال من الأحوال شخصًا نظريًا جامدًا ، فهو كان يسعى لإطاعة كلمة الله ، و السير بهدايتها يومًا فيومًا . و في قراءته للعهد الجديد ، تأثّر بصورة خاصة بكلمات المسيح القائلة : « مجانًا أخذتم مجانًا أعطوا .»[5] فشعر بأنه إنْ أراد ان يطيع هذه الكلمات ، يتوجب عليه ألاّ يتقاضى أجوراً عن تعليمه للمبادئ المسيحية . و في سبيل تأمين معيشته ، باع كمية من رقوقه المنقولة بخط يده . لكنّه عيّن لنفسه حصة صغيرة يومية من محصول هذا البيع ، و التي كانت بالجهد تسدّ احتياجاته لأجَلٍ قصير ، بالرغم من أن طعامه كان بسيطًا جدًا ، و كان لا يمتلك الا معطفًا واحدًا . فكان يعانيَ قسوة الشتاء و زمهريره ، و ينام على الأرض المجردة . و قد فعل ذلك لا لشيء ، إلاّ ليتشبّه بسيده المسيح الذي قال عن نفسه أن ليس له اين يسند رأسه .[6]

بعد ذلك بوقت قصير ، ألقي القبض على عدد من تلاميذ أوريجانوس ، و أُعدموا بسبب ايمانهم . و كان اوريجانوس حاضراً معهم خلال المحاكمة ، و قد عامله الجماهير الاسكندرانيون المضطربون بقسوة و خشونة ، إلا أنّ حياته لم تتعرض لسوء في تلك المناسبة . وبمرور السنين أصبح معلمًا مشهوراً في كنائس الاسكندرية ، و بعدها في كنائس قيصرية في فلسطين . و قد سافر مراراً بعد ذلك في رحلات لخدمة المسيح . كما كتب عدداً من الكتب اللاهوتية ، و قاد عدداً من اليهود و الوثنيين الى الايمان المسيحي . و مع ذلك ، فقد اعتُبرت بعض أفكاره الفلسفية و تفاسيره الرمزية للكتاب المقدس ، مثاراً للجدل الى يومنا هذا .

لم ينسَ اوريجانوس قط تعليم الكتاب المقدس و المثل الصالح الذي أخذه عن والده . لقد بقي ليونيدس غير معروف تقريبًا ، و لكن تأثيره اعطى الخلاص للكثيرين من خلال عمل ابنه الذي اقتفى آثار ابيه . الأوّل دُعي للموت من أجل المسيح ، و الآخر دُعي ليحيا له .[7]

استمر الاضطهاد في أجزاء عديدة من الامبراطورية الرومانية ، و كان قاسيًا جداً لدرجة اعتقد معها الكثيرون ان سفيروس هو المقصود في الكتاب المقدس بـ « ضد المسيح » العظيم الذي سيقوم محاولاً أن يبيد كنيسة المسيح قبل رجوع المسيح و نهاية العالمَ .[8] و يبدو أن سفيروس قد ظنّ انه بمرسومه الصارم ذاك ، قد نجح في تحطيم معنويات المسيحيين ، و أن يدمّر كنيسة المسيح تمامًا . و قد تمّ تجاهل المسيحيين بشكل كبير خلال بقية حكم سفيروس ، و حتى خلال ايام خلفائه التاليين .

ثم عرفت الكنائس السلام و الحرية من النزاعات ، لما يقارب النصف قرن . و هكذا ازدهرت بهدوء . و لكنْ ، هنا ، كان يكمن الخطر المُهلك . فقد بدأ العديد من

المسيحيين بالتراخي و الاشتراك أكثر فأكثر و بمزيد من التساهل في ملذات حياة المدينة و في تسلياتها الموهنة . و شيئًا فشيئًا بدأ المسيحيون يفقدون ضبط النفس ، و خسروا ذلك الشعور بكونهم شعبًا خاصًا ، كما ذهب عنهم ذلك الثبات ، و الايمان السماوي الراسخ الذي قوّاهم ودعمهم خلال تلك الأزمة الرهيبة التي عاشوا خلالها بنجاح منقطع النظير لخمسين عامًا خلت .

و مع مرور القرن الثالث ، بدأ المسيحيون ينشدون صداقة جيرانهم الوثنيين ورضاهم ، و تركوا أنفسهم ، و للأسف ، غير مستعدين للصمود في وجه الضغوطات الكبرى التي كانت بانتظارهم .

ملاحظات

1- ورد النص المعاصر *(Martyrium Polycarpi ANF Vol. I pp. 37 ff.)*
للحصول على مقاطع من ترجمة أحدث راجع : Bettenson *DOTCC* pp. 9 - 12

2- Eusebius *Eccles. Historia* V : chap. 1 (*NAPNF* Series 2 Vol. I)
Bettenson *DOTCC* pp. 12 - 13
Schaff *HOTCC* Vol. II. pp. 55 - 56
أظهر مسيحيو ليون و فيان تعاطفًا واضحًا مع المونتانيين . لقد حثّوا كنائس فريجية و روما على عدم إطفاء الروح القدس باتخاذهم إجراء قاس ضدّ المونتانيين الذين كانوا حاضرين في كنائس الشرق .

3- Monceaux Tome I pp. 61 - 70

4- Lloyd p. 38؛ Tertullien *De Corona Militis* 1

5- متى 8:10

6- لوقا 58:9

7- للاطلاع على حياة اوريجانوس و عمله ، راجع :
Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 785 - 796 ؛
Foakes - Jackson pp. 273 - 277

8- 2 تسالونيكي 3:2 و 4 ؛ 1 يوحنا 18:2 ؛ رؤيا 5:13 - 8

الفصل العاشر

الـمحـن الحـارقـة

في العام 249 م بدأت غيوم العاصفة تتجمّع من جديد . فقد ضاق صدر الامبراطور الجديد دكيوس(Décius) و ازداد قلقه باطّراد ، بسبب تفسّخ الامبراطورية الرومانية ، فضلاً عن تَخلّفها العسكري . و قد عزا الامبراطور ضعف الامبراطورية و وهنها الى استياء الآلهة . كان يأمل إعادة الازدهار الى الاراضي الخاضعة لسلطانه و سيطرته عندما أصدر مرسومًا دعا فيه جميع المواطنين ، رجالاً و نساءً ، الى تقريب الذبائح للآلهة بشكل علني ، و تسلّمِ شهادة من المسؤولين المحليين تثبت انهم فعلوا ذلك .

و على هذا الأساس أُخرج المسيحيون من بيوتهم ، و دُفعوا بخشونة الى الساحات العامة ، و أُمروا بتقريب الذبائح . فبعضهم ، ممّن رُوِّع بالتهديد ، أذعن لأوامر الامبراطور ، و لا سيّما أولئك الذين كان ولاؤهم المسيحي قد ضعف خلال ايام السلام السابقة المضعفة . فأسرعوا الى المعابد استجابة للأمر الإمبراطوري ، بينما قام آخرون ، من طريق التآمر مع المسؤولين ، بشراء شهادات من دون ان يكونوا قد قاموا فعلاً بتقديم القرابين المطلوبة . إلاّ ان عددًا كبيرًا منهم رفضوا الإذعان لمثل هذا المرسوم فهلك الكثيرون منهم . وكان أوريجانوس من بين الذين ثبتوا ، فسُجن و عُذّب في مدينة صور . وهكذا استُشهد متأثّرًا بجراحه من جراء التعذيب الوحشي ، وكان عمره يناهز السبعين . و لكن يلاحظ ان المسيحيين لم يعودوا يُتّهمون بعد بالقتل و زنى المحارم و الفساد ، ذلك لأنّ نقاوتهم و أخلاقياتهم الشريفة ، كانت معروفة لدى الجميع . منذ ذلك التاريخ ، أصبح جليًا أن السبب وراء معاداتهم هو رفضهم للإذعان لمتطلبات العبادة الوثنية ، لا التهم بارتكاب اعمال السوء الموجهة ضدهم .

كتب كُبريانوس (Cyprien) ، ناظر كنيسة قرطاجة ، مطوّلاً عن الاضطهاد الذي تحّمله المسيحيون ، و كان الكثيرون بينهم ممن عرفهم شخصيًا . و قد سُجن عدد منهم في قرطاجة نفسها ، بينهم النساء و الأطفال ، و مات بعضهم من جرّاء التعذيب . و حدث أن كان أحد هؤلاء في روما ، و يدعى كلرينُوس (Célérinus) حين صدر مرسوم ديسيوس . و قد تحمّل كلرينوس الأذى والتعذيب هَنَاك ، من دون ان يتراجع . و أخيرًا ، استُدعي للمثول امام الامبراطور نفسه ، حيث اعترف بإيمانه المسيحي بكل ثبات . و قد كتب عنه كبريانوس قائلاً : « لقد كان أول هؤلاء الذين واجهوا المعركة في أيامنا . . . لقد مشى في مقدمة الصف ليواجه الحاكم نفسه ، ذلك الحاكم الذي اختلق النزاع . » احتُجز كلرينوس تسعة عشر يومًا في

زنزانة السجن مثقّلاً بالسلاسل الحديدية . و قد كتب كبريانوس قائلاً : « كان جسمه مصفّداً مغلولاً ، أمّا روحه فكانت متحررة من الأغلال . لقد ذبل جسده من جراء افتقاره الطويل الى الطعام و الماء ، و لكن نفسه عاشت بالإيمان وباستقامته ؛ و الله كان يغذّيه بالطعام الروحي . ففي مواجهة البلوى ، كان كلرينوس أقوى منها ؛ وفي سجنه ، كان أنبل من سجّانيه ؛ و في تمدده على الأرض ، كان ماردًا يضارع معذبيه الواقفين فوقه ؛ وفي الأصفاد ، كان أقوى من أولئك الذين قيّدوه ؛ و في محاكمته ، كانت له وقفة أشرف من تلك التي لقضاته ؛ و على الرغم من ان قدميه كانتا مقيّدتين ، فقد استطاع ان يسحق رأس الأفعى . »

لقد نجا كلرينوس من محنته ، و عاد الى إفريقيا الشمالية ، حيث استمر يخدم كقارئ (إذ كان يتلو آيات الكتاب المقدس في الاجتماعات) في كنيسة قرطاجة . هذا ، و أن نُدباته و آثار جراحه الكثيرة كانت موضوع اعجاب المؤمنين هناك ، إذ أدهشهم ان يصمد انسان من اجل الايمان ، إزاء تعذيب وحشي بهذا المقدار ، غير خاضع او مستسلم ، لا للموت و لا للاكاذيب . وأشار كبريانوس اليّ أنه « إذا ما رفض شخص ما أن يؤمن بما يسمع كما رفض توما (ان يؤمن بما سمع عن المسيح) ، فعندئذ لا بدّ من ان يصدّق شهادة ما يراه بأم عينيه ، إذْ يرى البرهان الحي على صحة ما نقوّل . » [1]

شاب آخر يُدعى أُوْرْيليُوْس (Aurélius) ، واجه المحاكمة ذاتها في قرطاجة . و قد جيء به أمام قضاة المدينة للمرة الأولى ، حيث عومل بخشونة ، و قد صدر الحكم بإبعاده عن المقاطعة . و لم تمضِ الاّ فترة وجيزة ، حتى جيء بهذا الشاب مرة ثانية ليمثل امام الوالي ، و قد عومل ثانية معاملة أكثرَ وحشية و عنفًا و قسوةً . و كتب عنه كبريانوس قائلاً : « إنّ هذا الشاب ناضل في معركتين ، و اعترف بالمسيح مرتين ، و في المرتين خرج بمجد الاعتراف المنتصر : بعد انتصاره الاول نُفي الى خارج البلاد . ثم دخل المعركة مجدّدًا ، لكي يواجه نزاعًا أعنف هذه المرة ، و هكذا انتصر من جديد . لقد خرج من معركة الشهيد منتصراً . ففي كل مرة يحاول عدو الله تحريض عبيده على فعل الشر ، إن جندي الله الذي هو أبدًا مستعد و أبدًا شجاع ، يصمد في وجهه ، و هكذا يحرز الانتصار . لم يكتف هذا الشاب المسيحي بأن يناضل مرة واحدة في حضور بعض الناس حينما حُكم عليه بالنَفي ؛ لقد استحق ان يقاتل في الساحة العامة ، حيث رأى الجميع شجاعته و إقدامه . فبعد القضاة ، كان عليه أن يقهر الوالي ، و بعد النفي ، كان يحتاج أن ينتصر على التعذيب و التنكيل . » و قد نجا أوريليوس بنفسه ، كما نجا سلفه كلرينوس ، و أصبح هو الآخر قارئًا في كنيسة قرطاجة .[2]

و في الوقت نفسه تقريبًا ، أصبح اسم نُوْمِيْدِيْكُوْس (Numidicus) مشهوراً في الأوساط المسيحية ، كمن رأى أمتعة و قد حرقت ، و لكنه نجاَ « كما بنار » .[3] كان نوميديكوس عضواً محبوبًا جداً في كنيسة قرطاجة . و كان مصدراً عظيمًا لتقوية زملائه هناك و ذلك بفضل

قدوته أمامهم وتشجيعه لهم . في تلك الأيام ، سخط رعاع قرطاجة على المسيحيين متّهمينهم بجلب سوء الحظ . لذا ، كانوا يقذفونهم بالحجارة ، أو يحرقون كل من يقع في أيديهم . كان نوميديكوس و زوجته من بين اولئك الذين وقعوا في أيدي الحشود الهائجة ، فأخذوهما بعيداً . رأى نوميديكوس بأم العين زوجته المسكينة و هي تحترق بجانبه بلهب النيران المستعرة . أمّا هو فكان مثخناً بالجراح و الحروق البالغة ، فظنوه ميتًا و بالتالي تركوه . إلاّ أن ابنته التي حضرت الى المكان تفتش عن جثة ابيها بين الأنقاض المحترقة ، وجدته ، و هو لا يزال حيًا ، فتمكّنت من إعادة العافية إليه . و بعد شفائه التام ، عاد الى الكنيسة في قرطاجة ، حيث أصبح مساعداً مسؤولاً في إدارة كنيسة قرطاجة .[4]

لقد نجا كل من كلرينوس و أوريليوس و نوميديكوس من الاضطهاد الذي مارسه ضدهم ديسيوس ، و لكن كثيرين خرّوا صرعى . لقد تسلّم كلرينوس كتابًا من أحد أصدقائه المدعو لوكيانوس (Lucianus) ، مرسلاً له أخبار زملائه في الأسر و المعاناة . علم من الرسالة ، أن اثني عشر من المؤمنين في السجون ، قد لقوا حتفهم بسبب الجوع و العطش ، و أن اثنين آخرين ماتا في قرطاجة بسبب التنكيل ، و هما بُولُسْ (Paulus) و مَاپَالِيْكوسْ (Mappalicus) ، و قد أضيف اسماهما بكل حرص الى هذه اللائحة المتنامية من الشهداء .[5]

و في ذلك الوقت ، جُرّد العديد من المسيحيين الأكثر قوة من املاكهم ، و أُبعدوا من الأصقاع الرومانية . لقد وجدوا سبيلهم الى القرى الداخلية ، بعيداً عن المدنية ، و عن متناول ايدي الرسميين الامبراطوريين . فأسسوا هناك جذوراً ، و بدأوا حياة جديدة . قد يتحسّرون على رفاهية الحضارة ، و يشعرون بافتقارهم الى المداخيل المعيشية الثابتة ، و لكن ، لا بدّ من أنهم فرحوا كثيراً بحرّية العبادة بالشكل الذي يريدون . و واضح ، فوق ذلك ، أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإيمانهم لأنفسهم ، إذ سرعان ما سمع الأمازيغيون في المناطق الداخلية بالرواية التي سردها لهم أولئك اللاجئون ؛ ما حدث لهم بالتفصيل ، و لماذا أُجبروا على ترك ديارهم و أملاكهم ومقتنياتهم ، و الحافز الذي رسّخ فيهم مثل هذا الايمان و الفرح ، الايمان الذي كانوا على استعداد دائم ليبذلوا في سبيله كل شيء .[6]

كان الامبراطور ديسيوس ، بغير قصد منه ، سببًا لكثير من الناس ، ليستمعوا الى بشارة الإنجيل للمرة الأولى ، و لا سيّما في المقاطعات النائية جداً عن المدن الساحلية . لكن ديسيوس نفسه لم يعرف هذا قط . و بخذلان آلهته له ، قُتل ديسيوس في معركة خاضها ضد القوطيين في العام 251 ميلادية و لم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات . بعد موته ، تنفّست الكنائس المسيحية الصُعداء ، و بجردة لحساباتها ، وجدت نفسها تخرج من وطيس المعركة قوية و أكثر صلابة بفعل نيران المعاناة . لقد وجدت نفسها حرّة مرة جديدة من التأثيرات المضعفة لأولئك المسيحيين الاسميين الذين كانوا يعيشون في وسطها . كما ابتهجت بأبطالها الجدد ، و بثباتهم

المجيد . أمّا الناجون ، فقد ازدادوا جميعهم عزمًا على اتّباع المسيح في السراء و الضراء ، في الضيق و الفرج ، في الموت أو الحياة ، و هم مصممون أن يبقوا مخلصين له ، مهما حدث .

* * * * * * * * * * * * * * * * *

و لكن ، لماذا ثار المجتمع الوثني ضد المسيحيين بهذا الشكل ؟ و أيّ أذى لحق بمواطني قرطاجة و روما على أيدي هذا الشعب المسالم ؟ و كيف أساءوا إليهم ؟ و لكي نجيب عن هذا السؤال ، يكفي أن نواجه حقيقة أن المسيحيين يختلفون عن غيرهم . فهم لم يتصرفوا كأناس اعتياديين ، و هكذا كان الغموض يلفّهم في نظر بقية الناس . و لأنّ تصرفاتهم لم تكن عادية ، لذا لم يكن سهلاً التنبؤ عنها . و عليه ، فهم يدعون الى الريبة و الشك ، سواء بالنسبة الى الحكام والمسؤولين ، أم الى جيرانهم من المواطنين .

منذ الايام الأولى للمسيحية ، راح الناس يتناقلون شائعات غامضة عن المسيحيين : تُرى ، ماذا يهيّىء المسيحيون في اجتماعاتهم السرية ؟ لمَ لا يسمحون ، إلاّ لأولئك العارفين أسرارهم ، بحضور وجبات طعامهم الخاصة ؟ و لأنّ اجتماعات المسيحيين كانت تُعقد خلف الأبواب المغلقة ، ولا يُسمح بالدخول إلاّ لأولئك الأعضاء المعترف بهم ، نتج من ذلك شتّى أنواع الافتراءات و الشكوك . فهل المسيحيون يدبّرون للقيام بثورة او عصيان ضد الامبراطور ؟ أم أنهم يتآمرون لتهديم معابد الآلهة ؟ و ماذا يفعلون في أثناء ما يسمّونه « ولائم المحبة»؟ هنا تصدّى ترتوليانوس و زملاؤه لهذه التلميحات ، مؤكّدين براءة المسيحيين . انه يصف الشركة المسيحية المقدسة و الخالية من أية أذية . ويذكر كيف انهم بعد تناولهم ولائم الطعام المشتركة ، لم يكونوا يمارسون شعائر دينية فاسقة ، و إنما على نقيض ذلك إذ يعبدون الله ، الذي كانوا يجتمعون باسمه . « و كان هذا الاحتفال ينتهي كما ابتدأ ، بالصلاة . » ثم يسأل ترتوليانوس قائلاً : «مَنْ منَ الناس تضرر بسبب اجتماعاتنا ؟ فنحن مجتمعين ، لا نفرق في شيء عنا و نحن متفرقين أحدنا عن الآخر . اننا كمجموعة ، تمامًا كما نحن كأفراد . نحن لا نؤذي أحداً ، و لا نجلب الحزن و الأسى لأحد . لأنه عندما يجتمع الفاضل مع الصالح و الحنون يلتقي الطاهر فلا يجوز ان يُدعى ذلك جماعة متمرّدة ، و إنما شركة جديرة بالاحترام و الشرف . »[7]

على أنّ السبب الأهم للكراهية الشعبية الموجهة ضد المسيحيين ، كان على الأرجح لكونهم لا يشاركون في التسليات العامة - في بهرجات الايام المقدسة الوثنية - و لأنهم متخلّفون عن حضور الحفلات التي تنظمها النقابات الوثنية العمالية . ان ما حيّر ، بل أغضب معاصريهم من الناس لم يكن بسبب ما فعلوه على قدر ما كان بسبب ما رفضوا فعله . و قد انبرى ترتوليانوس مرة أخرى ، يدافع عن المسيحيين ، محاولاً شرح الأسباب فقال : « نحن لا شأن لنا بصخابة المباريات ، و لا ببذاءة المسرح ، و لا بوحشية الميدان . »[8] و قد أقرّ ترتوليانوس بأنّ المسيحيين لا يشترون اكاليل الورود المألوفة لتزيين المعابد الوثنية ، و لكنهم لا يريدون ان يكون عند أحد انطباع بأنّ

المسيحيين معادون للعالم الذي يحيط بهم . فإن المسيحيين يشاركون في نشاطات الحياة اليومية بشكل كامل - في الدكاكين و في الأسواق ، في الساحة العامة و في كل مكان سواء أفي المدن أو في الريف . و المسيحيون كانوا يعملون في الحقول و الورش نفسها ، و هم يأكلون في المطاعم نفسها ، و هم يلبسون الثياب نفسها ، و يطبخون أنواع الأطعمة نفسها ، ويستعملون الأثاث نفسه ، و هم محترمون وأصدقاء للجميع . و لم يُدرْ المسيحيون ظهورهم لجيرانهم قط ، و لا أساءوا و لا أهانوا الأمور المثمّنة عندهم .[9]

إلاّ أنه كان في مدن الامبراطورية الرومانية و قراها أناسٌ ذوو نفوذ استفادوا شخصيًا من الواقع القائم . و قد بدأوا يشعرون بأنهم مهدّدون جدًا بسبب النمو السريع للجماعات المسيحية في وسطها . و لم يستطع الكهنة الوثنيون ان يخفوا استياءهم إزاء ما يحدث من تقلّص في نفوذ آلهتهم ، و تراجع في عدد الذين يحضرون لعبادتها . فقد بدأت صناديق المال في الهياكل تفرغ باطّراد . و راح صنّاع الصور وأكاليل الغار يتذمّرون مهدّدين ، كما حصل قبل عدة سنوات مع ديمتريوس الصائغ و صنّاعه في أفسس عندما بدأت عظمة الالاهة أرطاميس بالانخفاض من جراء كرازة الرسول بولس .[10] فجميع بائعي أدوات التزيين و أصحاب الحفلات الترفيهية التي كانت رائجة آنذاك ، و المضيفين - من صانعي المجوهرات ، و الموسيقيين و الراقصين ، وكل المحترفين في المسرح ، و اللاعبينَ الرياضيين و المجالدين - كل هؤلاء و غيرهم ، صاروا ينظرون الى المسيحيين نظرتهم الى الأعداء ، لأنهم لم يحضروا معارضهم و لم يشتروا بضائعهم ، بل تسببوا في انسحاب زبائنهم . كما أنّ بعضًا من المونتانيين الأكثر تطرّفًا ، وبّخوا أحيانًا ايضًا بشكل ساخر عبدة الأوثان هؤلاء على تفاهة تجارتهم الدينية ، فسبّبوا بذلك اساءة ، و جرّوا على الأحكم منهم من إخوتهم المسيحيين عارًا لم يكن ضروريًا .

كان الولاء للامبراطورية من القيم التي تمسّكت بها بحزم و دافعت عنها بحماسة ، ليس طبقة النخبة الحاكمة فحسب ، بل غالبية المواطنين ايضًا . لذا ، فقد أسيء جدًا فهم المسيحيين الذين لم يكونوا يتبعون مثل هذه العادات التي اكتسبت صفة الاحترام نظرًا لقدمها ، و هكذا أصبحوا مكروهين كرهًا شديدًا ، و باتوا في نظر القوم و كأنهم يحاولون تقويضَ أسس الحضارة الرومانية نفسها . فالمسيحيون لا يشاركون في الديانة الوطنية ، و هم لا يقرّبون التقدمات ليضمنوا بذلك السلام و الازدهار للأرض ، ولا يطرحون البخور في المبخرة كعلامة الولاء للامبراطور و آلهته التي جُعلت الامبراطورية تحت رعايتها . و هكذا بدا المسيحيون و كأنهم اختاروا البقاء خارج المجتمع ، يتمتعون بنعَمه ، و لكنهم في الوقت ذاته ، يتملّصون من مسؤولياتهم . و قد وجد أعضاء الكنيسة الذينَ يمتلكون العقارات ، صعوبة في تجنّب المشاركة في عبادة الأوثان : فمالكو الأراضي و المنازل ، كان يُنتظر منهم ان يساهموا الى حدّ كبير بكلفة التقدمات العامة و المشاهد المسرحية . و العائلات المسيحية الموسرة ، كانت بشكل خاص عرضة لخبث الحسّاد ، إضافةً الى الجواسيس الذين كان الأباطرة المشككون والمرتابون يستخدمونهم . ففي

الواقع ، إن أخطر التهم التي واجهت المسيحيين ، باتت مجهولة هوية أصحابها . فإذا ما جاء شخص معروف بادّعاء تافه أو كاذب ، قد يجد نفسه في ورطة بالغة الخطورة ، و لكن متى كانت التهمة مجهولة هوية أصحابها ، فإنه يتمكن بعدها من الإفلات من العقوبة بسهولة . وبهذا الأسلوب ، تمكّن أعداء الإيمان من ارتكاب اشنع الافتراءات اللامسؤولة . وأحيانًا كان اليهود في غيرتهم على مركزهم المميّز كمنتمين الى ديانة مسموح لها ، يقفون في طليعة المهاجمين : مثلاً ، كان لهم دور رئيس في استشهاد پوليكارپوس .

إضافة الى ذلك ، يخبرنا ترتوليانوس ، انه استناداً الى خبرته ، كان المسيحيون مكروهين غالبًا فقط بسبب محبتهم بعضهم لبعض . لقد عارض الوثنيون الطريقة التي كان المسيحيون يعاملون فيها بعضهم بعضًا كإخوة و أخوات ، مساعدين أحدهم الآخر ، و داعمين أراملهم و أيتامهم والذين كانوا في ضيق و عوز . «إن ممارستنا لهذا العطف المحب و تنفيذه عمليًا هو الذي ، بشكل رئيس ، يسمنا بالعار في نظر بعض الناس .» يقولون : « أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضًا . » ذلك لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم بعضًا . و يقولون أيضًا : « أنظروا كيف ان المسيحيين مستعدون ليموتوا بعضهم لأجل بعض . » ذلك لأنهم هم انفسهم اكثر استعداداً لقتل احدهم الآخر . إنهم يجدون خطأ فينا ايضًا لأننا نطلق على بعضنا التسمية « أخ » . أشعر أني متأكد أن السبب وراء انتقادنا هو التالي : كل تسمية صداقة عندهم ليست سوى مجرّد ادّعاء مزعوم ورخيص .»[11]

لقد حرصت الجماعة المسيحية كل الحرص على تكريم الامبراطور ، و على إطاعة القوانين ، و دفع كل ما يترتب عليهم من ضرائب . فكلمة الله تقول : « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله و السلاطين الكائنة هي مرتّبة من الله .»[12] وقد أسرع ترتوليانوس بالاشارة إلى أنّ المسيحيين لم يكن لديهم اية دوافع او أطماع سياسية ، و هم ليسوا بالتالي ثوّاراً ضد الحكومة و الدولة . كانوا مسالمين شرفاء ، و ذوي احترام ووقار . فإنّ أفضل الأباطرة و أحكم المسؤولين ، أضاف ترتوليانوس ، كانوا يعلمون ذلك جيداً : لقد رأوا في المسيحيين تلك المزايا الرفيعة الخالصة التي ودّوا لو يجدون مثلها في جميع الخاضعين لهم . الأباطرة الأشرار وحدهم اضطهدوا الكنيسة ، تابع ترتوليانوس ، و ذلك إمّا لكونهم ضعفاء او و راغبين في تملّق الوثنيين المتطرفين ، و إمّا لكونهم أنانيين للغاية يدفعهم مزاجهم بدل الحكم السليم . و ترتوليانوس نفسه خاطب الرسميين الرومان راجيًا منهم التساهل مع المسيحيين و واعداً بتقديم الولاء بالمقابل .

إلاّ أنه في بعض الأحيان كان يجد المسيحيون أنّ واجبهم يجعلهم في نزاع مع السلطات . فإذا أعطوا ما لقيصر لقيصر ، كان عليهم أيضًا ان يعطوا ما للّه للّه .[13] و حتى سلطة الامبراطور نفسها كانت خاضعة لذلك الكائن الإلهي الذي خلق كل شيء . و بعض الظروف لم تترك لهم سوى خيار أن « يطيعوا الله أكثر من الناس . »[14] فهم لا يمكنهم ان يقرّبوا التقدمات

للأصنام ، مثلاً ، حتى و لو صدر مرسوم ملكي يطلب مثل هذا العمل ؛ و لا كانوا يستطيعون أن يسفّهوا اسم المسيح أو يلعنوه و بعضهم رفض القَسَم القانوني ، معتقدين أنه من الخطإ ان يُقسم المسيحي بمثل هذا القسم ، فقد علّمهم الرب : « لا تحلفوا البتة ، لا بالسماء . . . ، و لا بالأرض . . . لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر ان تجعل شعرة واحدة بيضاء او سوداء . بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . و ما زاد على ذلك فهو من الشرير . »[15] و لم يستطع آخرون من المسيحيين ان يوفّقوا بين خدمة الجندية و ضمائرهم المسيحية . ان مواقف رافضة كهذه ، صبّت ولا شك الزيت على نيران الحقد .

كانت الطبقات العليا من الرومان ، و على الأخص كبار الملاّكين ، ينظرون بحذر الى كل تعليم جديد قد يهدد وضعهم الراهن ، و يعرّض غناهم و مراكزهم للخطر . فإن التعليم المسيحي القائل بالمساواة ، لم يكن محببًا لدى الأوساط الارستقراطية الوثنية الغنية . وهكذا حصل توتّر ، خصوصًا في أيام الجفاف و ندرة المؤن . شعر الوعاظ المسيحيون في أنفسهم بأنهم ملتزمون الى حدّ قليل جدًا بالموافقة على تلك الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء . و بخاصة عندما كان أصحابهم و جيرانهم يعانون الجوع و التشرّد . ثم راحوا ، على غرار المسيح نفسه ، يحثون أصحاب الكنوز على كنزها في السماء لا على الأرض ، مستوحين ممّا يذكره العهد الجديد بشأن أشراك الغنى والبركات المعلنة للمحتاجين و المسحوقين . و قد لاقت هذه الأفكار آذانًا صاغية لدى الفقراء ، و لكنها لم تَلقَ شعبية عند المسؤولين الرومان . إن الرسميين المحليين ، و كانوا في غالبيتهم من الطبقات الارستقراطية ، لم يتردّدوا قط في وضع موضع التنفيذ أي مرسوم امبراطوري يعد باقتلاع هذه التعاليم من جذورها و تخريبها .

من الضروري ان نتذكر أيضًا انه الى جانب التشريع الصارم للمحاكم البلدية ، و عداوة الرعاع التي لا يمكن التنبؤ عنها ، كان المؤمنون معرّضين لمحاكمة عائلية يرأسها رب العائلة وصلاحياته تكاد تكون لا متناهية . لقد كان بإمكان الزوج الوثني مثلاً أن يدين زوجته المؤمنة ويحكم عليها بالموت . و معروف عن آباء أنهم حرموا أولادهم من الميراث ، و أنهم فرضوا كل أساليب التعذيب على عبيدهم اذا اعترفوا بالايمان المسيحي .

كانت القوّات المجنّدة ضد الكنائس متنوعة و ثقيلة . و معظم الصعوبة تكمن في أنّ السلطات الرومانية لم تكن تعترف بالدين المسيحي رسميًا ، لذا لم يكن يحق للمسيحي ان يدافع عن نفسه قانونًا او شرعًا . و يذكر ترتوليانوس في هذا الصدد كيف أن الوثنيين كانوا أحيانًا يوبّخون المسيحيين و بشكل ساخر قائلين : « بموجب القانون ، أنتم لستم حتى بموجودين . » و لكنه ، أيّ ترتوليانوس يردّ بالقول إنّ المسيحيين موجودون حقًا ، سواء أشاء الوثنيون ذلك ، أم أبوا . و إذا كان الأمر كذلك ، فَمَنْ إذًا من الاثنين يكون بخلاف الحق : المسيحيون ام القانون ؟[16]

و قد يُسأل لماذا لم تسعَ الكنيسة المسيحية للحصول على اعتراف شرعي بها ، خصوصاً وأن اليهود كانوا قد حصلوا على مثل هذا الإعتراف . العقدة تكمن في كون الرومان يعتبرون أنّ الديانة هي مسألة عرقية ، لا مسألة اقتناع شخصي . فاليونانيون كان لهم آلهتهم ، و كذا بالنسبة إلى الرومان . وَ قال كلْسُوْس (Celse) في معرض انتقاده للمسيحيين : « أمّا اليهود ، فلا يمكن ان يلاموا ، لأنّ على كَل انسان ان يعيش بموجب عادات بلده ، بينما المسيحيون قد تخلّوا عن شعائرهم الوطنية بسبب تعاليم المسيح . »[17] على أن المشترعين الرومان اعتبروا أن ولاء الانسان الأول ليس لضميره و لا لآلهته ، بل للدولة . و الامبراطورية ادّعت لنفسها الحق بأن تقرّر لرعاياها أية آلهة يجب ان يعبدوا . و لم تكلّف الدولة نفسها عناء الاهتمام بالمعتقدات الخاصة التي يؤمن بها الانسان ، ولكنها فرضت عليه ، بشدّة وحزم ، ان يلتزم بشكل نهائي بحضور الطقوس العامة المختصة بديانة الدولة ، و أن يُظهر بشكل واضح خضوعه و امتثاله . هذا ، و إن إيمانًا جديداً يمنع أصحابه من عبادة الأوثان كان من الطبيعي له ان يصطدم بنظام كهذا .

لا يمكن لحكومة كليانية أن تتفهم بسهولة فكرة وجود مواطن مخلص ينتمي الى دين مستقل . إلا أن ترتوليانوس ترافع أمام الحكّام الرومان ليعاملوا المسيحيين بالعدل اذ يمنحوهم فرصة فقط للتعبير عن وجهة نظرهم . فإذا حاولت السلطات ، و لو فقط ان تكتشف ما الذي يؤمن به المسيحيون ، فإنها ستتوقف عن صبّ جام غضبها عليهم . و في الواقع ، أضاف يقول ، لن يجد المسؤولون شيئًا يلام المسيحيون عليه . يُسمح للناس المتهمين بجرائم العنف ان يدافعوا عن أنفسهم و ليس هذا فحسب ، بل ان يعيّنوا محامين محترفين للدفاع عنهم . « عندهم فرصة كاملة للردّ كما أيضًا لاستجواب الشاهد او الخصم ابتغاء دحض شهادته ، ذلك لأنه ، من غير المسموح أن يدان الناس من دون سماع شهاداتهم او قبول دفاعهم . أمّا المسيحيون ، فهم وحدهم غير مسموح لهم بأن يقولوا أي شيء لتبرئة ساحتهم ، و للدفاع عن الحق ، و لإنقاذ القاضي من الظلم . فالقاضي همّه الوحيد إرضاء الجمهور الحاقد - أي الاعتراف باسم المسيح ، لا استقصاء تهمة أعمال السوء . »[18]

و استطرد ترتوليانوس قائلاً إنّ كل هذا العداء ، هو نتيجة التعصّب الأعمى عن جهل . فإذا ما توقّف الناس للحظة فقط ، للتبصّر و النظر في حقائق هذه القضية ، فإنهم سيرون الأشياء من منظار مختلف تمامًا . « فكل الذين كرهوا ، بسبب عدم معرفتهم حقيقة الأشياء التي كرهوها او حقدوا عليها ، سيتوقفون عن هذه الكراهية حالما يكفّون عن جهلهم هذا . . . الناس يصرخون قائلين إن الدولة قد امتلأت بالمسيحيين . فالمسيحيون في القرى و الأرياف و في الجزر أيضًا ؛ و الناس من الجنسين ، و من كل الأعمار ، و في كل الأوضاع ، حتى من ذوي المراكز الاجتماعية العليا ينتقلون الى المجتمع المسيحي . يولولون و يندبون بسبب هذه الأمور ، كما لو أنّ هناك نكبة أو كارثة . لكنهم على الرغم من كل هذا ليسوا على استعداد أبدًا للتفتيش عن بعض الحسنات فيها التي قد تكون قد فاتتهم . »[19]

أشار ترتوليانوس باستمرار الى استعداد المسيحيين للموت عوضًا عن أن ينكروا إيمانهم ؛ كان ثبات الشهداء من الأسلحة الرئيسة في جعبته . لقد تأيّدت حقائق التعليم المسيحي من خلال المواقف الثابتة لأولئك الذين تبنّوها : « اسألوا أنفسكم إذًا ، » قال ترتوليانوس « عمّا إذا كانت ألوهية المسيح معتقدًا حقًا أم لا . فإذا كان قبول مثل هذا الايمان يؤدي الى تغيير الانسان فعلاً الى الأحسن ، يعني ذلك أنّ كل ما هو مخالف له يجب أن يرفض . » و قد أشار ترتوليانوس الى الصمود و ضبط النفس اللذين تميز بهما المسيحيون في اثناء المحاكمة . فإنهم لم يلجأوا الى السلاح ، و لا هربوا من السلطة الامبراطورية . « كم مرة صببتم جام غضبكم على المسيحيين ، أحيانًا بسبب ميلكم الى هذا و أيضًا بسبب امتثالكم للقانون . و كم مرّة ايضًا لم يُعركم رعاع الشعب المتعصّب انتباهًا ، بل هاجمونا بالحجارة و بالنيران ، و قد تجاوزوا القانون نفسه . . . و لكن ، مع كوننا متماسكين ومتحمّسين جدًا لمواجهة الموت ، هل لاحظتم ابدًا عندنا أي انتقام على الإساءة ؟ »[20]

شعر معظم الولاة الرومان ، أمثال بليني الأصغر (Pline le Jeune) بعدم تأكّدهم من الطريقة التي يجب ان يتبعوها هؤلاء المسيحيين الذين يمثلون امامهم للمحاكمة . كتب بليني من منطقة بيثينية (Bithynie) ، في شمال تركيا المعاصرة في العام 112 ميلادي الى الامبراطور ترايان (Trajan) يسأله النصح و الارشاد . قال بليني : « إنها قاعدة عندي يا سيدي ، أنْ أرجع الى مقامكم في القضايا التي أشك فيها . لم احضر في السابق محاكمة من محاكمات المسيحيين قط ، لذا ، لا أعرف ما هي العقوبات العادية المترتبة ، او ما هي التحريات ، و إلى أيّ مدى يجري التقيّد بها . لقد ترددتُ كثيرًا في ما اذا كان يجب ان آخذ أعمار المتهمين بعين الاعتبار أم لا ؛ و ما اذا كان الضعفاء يُعامَلون بالطريقة نفسها التي يُعامَل بها الأقوياء ؛ أو اذا كان عليّ ان اسامح اولئك الذين يتخلون علنًا عن معتقدهم المسيحي ، أو ما اذا كان عليّ أن أعاقب من كان مسيحيًا ، حتى و لو قرّر التخلّي عن ذلك ؛ وما اذا كان مجرد الاسم « مسيحي » كافيًا ليُنزل العقاب بصاحبه ، حتى و لو كان بريئًا من أية جريمة أخرى ، أم الجرائم المتعلّقة بهذا الاسم فقط .» و التساؤل الأخير في هذه القائمة من التساؤلات الطويلة أعلاه ، كان مستمدًا من الاعتقاد العام السائد بين الوثنيين ، على الأقل في الايام الأولى ، أن المسيحيين كانوا يتورّطون في جرائم قتل الأطفال ، و أكل لحوم بشرية ، و زنى المحارم . و تساءل بليني ما إذا كان اعتراف المتهم بمسيحيته يعني تلقائيًا أنه مذنب بكل هذه الجرائم المذكورة آنفًا ، أم لا ؟

و أكثر ما يصدمنا بعنف من الوثائق عن الموضوع الذي نحن بصدده ، هو أنّ الولاة و القضاة ، أمثال بليني ، و الذين كانوا يحكمون على المسيحيين بشتّى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الوحشي امام الملإ ، لم يكونوا سوى مجرّد مأمورين مواظبين على القيام بواجبهم ، وكانوا يحاولون على هذا الأساس تنفيذ مهمة ادارية إطاعة لتعليمات محدّدة . كان كل همّهم تأمين خضوع الشعب بشكل مسالم للقوانين المرعية بشأن الديانة المسموح بها في الدولة . وصحيح

أنه غالبًا ما كانت تعوزهم الشفقة و الرحمة ، لكنّ عملهم كان يفرض عليهم كبت أية مشاعر شخصية قد تتولّد عندهم . كانوا بالتأكيد ، يفتقرون في معظم الأحيان ، الى الرغبة الشخصية في البحث عن الحقيقة ، إلا انهم ، عمومًا ، لم يكونوا يضمرون العداء لأولئك الذين يسبّبون لهم هذه الآلام المفزعة و الرهيبة . كانوا مجرّد ممثّلين غير جذابين عن نظام سياسي متوحّش و لا إنساني ، في عالم رَخُصت فيه الحياة ، وباتت البلوى الدموية التي يعانيها الآخرون ، الستار الخلفي للحياة اليومية ، وَ لْنَقُلْ ايضًا ، الوجبة المستخدمة باستمرار على نطاق واسع للتلهيات العامة .

أوجز بليني الاجراءات التي كان يتخذها في استجواب أولئك الذين يمثلون امامه قائلاً : « أسألهم إن كانوا مسيحيين .» و في حال أقرّوا بذلك ، اكرّر سؤالي مرة ثانية وثالثة مهدّدًا إياهم بإنزال عقوبة الموت بهم . فإذا أصرّوا ، أحكم عليهم بالموت ، لأنني لا أشك مطلقًا في أنه مهما كانت جريمتهم التي اعترفوا بها ، فإن مشاكستهم و عنادهم المتصلّب ، وحدهما ، كافيان للعقاب لا محالة . لقد كان بليني نموذجًا لأولئك الذين يؤمنون بأن جريمة المسيحيين الكبرى تكمن في تحدّيهم للسلطة ، و في رفضهم الانصياع لأوامر الدولة ، كذلك في عدم قبولهم التخلّي عن إيمانهم المسيحي عندما يصدر إليهم الأمر بذلك بصرف النظر عمّا إذا كان الايمان حسنًا او سيئًا .

أخبر بليني الامبراطور عن أوراق كاتبها مجهول وصلت الى يده ، و فيه مدوّن العديد من اسماء المسيحيين . و قد استُدعي هؤلاء للمثول امامه ، قال : « و كل من انكر كونه مسيحيًا ، وجدت انه يجدر بي ان اطلق سراحه ، لأن هؤلاء كانوا يدعون باسم آلهتنا عندما آمرهم بذلك ، و هم ، بالبخور و الخمر ، يبجّلون تماثيلك و يوقّرونها حيث كنت أُحضر صورتك (صورة الامبراطور) بالاضافة الى أصنام الآلهة لهذا الغرض بعينه ؛ و بالأخص لأنهم لعنوا المسيح ، ذلك الأمر الذي يقال إنّ المسيحيين الحقيقيين لا يمكن اقناعهم بالإقدام عليه . . . وآخرون ذكر المخبر اسماءهم قالوا اولاً انهم مسيحيون ثم ما لبثوا أن أنكروا ذلك ، اذ صرّحوا أنهم كانوا مسيحيين في الماضي ، و لكنهم الآن لم يعودوا كذلك . . . لقد سجد الجميع وتعبّدوا لصورتكم و تماثيل آلهتنا ، و لعنوا المسيح .» و لكن ، حتى بليني نفسه كان يعلم أن هؤلاء القوم لم يكونوا المسيحيين الحقيقيين ، لأن سلوك هؤلاء الذين تبعوا المسيح بجدّية كانت معروفة بخلاف ذلك . و قد لاحظ بليني بالاختبار ، أن لا شيء يحمل المسيحيين الحقيقيين على لعن مخلّصهم .

انتزع بليني الاعترافات انتزاعًا من بعض هؤلاء ، إلاّ ان هذه الاعترافات جاءت خالية من الرذائل المروّعة التي كان يأمل أن يسمع عنها . لم تكن اساءاتهم ، في الواقع ، ممتعة و لا مشوّقة على الاطلاق . « لكنهم أعلنوا ان مجموع أخطائهم هو التالي : إنهم في يوم معيّن ، كانوا قد اعتادوا ان يجتمعوا قبل الفجر ، و يرتّلوا تراتيل إيقاعية للمسيح ، باعتباره إلهًا ، و أن يربطوا أنفسهم

بتعهّد مقدس جليل - لا للتعهّد بالتورط في جريمة معيّنة أو أخرى ، بل بالحري للامتناع عن السرقة و السلب و الزنى والإخلال بالوعود ، أو التنكّر لوديعة وقت المطالبة بها . و بعد ختام هذا الاحتفال اعتادوا ان يتفرقوا على ان يجتمعوا ثانية الى مائدة الطعام ، لكنه كان مجرّد طعام عادي و لا يشكّل أي أذى . »

لقد وجد بليني ان هذا البيان البسيط من الحقائق غير واف ، فواصل عمله مظهراً بذلك القلب القاسي عند الإداري الامبراطوري : « لهذا وجدت أنه منَ الضروري ، أن اتحرّى مدى صحة كل هذا ، و ذلك بتعذيب خادمتين كانتا تُدعيان مساعدتين . و مع ذلك لم أجد شيئًا سوى خرافات فاسدة و متمادية في الوهم . و هكذا قمت بتأجيل جلسة الفحص و التمحيص هذه ، وقررت استشارتكم . »[21]

لم تكن السلطة ترغب في قتل المسيحيين ، و إنما كانت ترغب في إعادتهم الى عبادة الآلهة الرومانية . و لم يكن في نية السياسة الامبراطورية إخلاء الكنائس من رعاياها ، بل إعادة ملء المعابد الوثنية . و لم تكن تنوي تغيير المعتقدات الدينية عند الناس ، بل ضمان طاعتهم و ليونتهم . كان الأباطرة يعلمون دائمًا في قرارة نفوسهم ، أنّ افريقيا هي جزء غير مستقر من الامبراطورية الرومانية . ففيها المئات من القبائل ، و جميعهم أعداء محتملون ، وهم يعيشون على مسافة قصيرة داخل البلاد ، وراء حدود كان من غير الممكن الدفاع عنها عسكريًا ضد مهاجمين محدّدين . عاش الحكام في قلق مستمر ، إذ كان عليهم التعامل مع أية مؤشّرات بعيدة لفوضى أو فتنة ، و وأدها في مهدها فيَ هذه المقاطعات الصعبة قبل ان تشكّل خطراً سياسيًا جديًا .

إن اية أمّة هي متماسكة معًا بفضل وحدتها الدينية ، و تسيطر على شعبها بواسطة كهنوتها الرسمي ، لا بدّ من ان تشعر بتهديد مباشر من أقلّيات قرّرت ان تخرج عن الدين الوطني . فإنْ بقيت هذه الأقلية متوارية عن الأنظار ، و تمتثل من الخارج لمتطلبات حفظ الشعائر الدينية ، فإنها غالبًا ما تُترك في سلام . ولكن حالما تعترف هذه الأقلية جهراً أنها لم تعد تخضع لسلطة هذا البلد الدينية ، فإن الدولة عندئذ ، تفقد نسبة من سيطرتها على هذا الشعب . و ما ان تصبح هذه الأقلية قوة حتى إن الجميع يعرّف أنها تقدّم بديلاً عن السلطة الدينية القائمة ، تبدأ تهدّد إذ تجتذب عددًا كبيراً الى صفّها . و هكذا تتحوّل أقلّية شجاعة و متنامية الى أغلبية ساحقة في حال لم يعمل أحد على إيقافها .

هذه كانت من جملة الاسباب الموجبة التي جعلت السلطات الرومانية تحاول يائسة استئصال الكنائس الفتية في شمال إفريقيا . لكنّها لم تدرك الاّ القليل أي فشل ذريع سيصيبها . فقد كُتب لكنائس إفريقيا الشمالية ان تصمد الى ما بعد زوال أعظم امبراطورية كانت مقتدرة عسكريًا ولم يرَ العالم لها مثيلاً .

ملاحظات

1- Cyprien *Epître* 33 ؛ Monceaux Tome II p. 137

2- Cyprien *Epître* 32 ؛ Monceaux Tome II p. 137

3- 1 كورنثوس 15:3

4- Cyprien *Epître* 34 ؛ Monceaux Tome II p. 138

5- Cyprien *Epître* 8

6- فيلبي 8:3

7- *Apologeticus* 39

8- *Apologeticus* 39

9- *Apologeticus* 42

10- أعمال 23:19 - 27

11- *Apologeticus* 39

12- رومية 1:13

13- بالإشارة الى مرقس 17:12

14- اعمال 29:5

15- متى 34:5 - 37

16- *Apologeticus* 4

17- Origène *Contra Celsum* 5:25 ؛ (اقتبسها Foakes - Jackson p. 45)

18- *Apologeticus* 2

19- *Apologeticus* 1

20- *Apologeticus* 37

21- *Epître* 10 (*Ad Trajan*) : 96 (Bettenson *DOTCC* pp. 3 - 4)

Foakes - Jackson (pp. 44 - 48) ،يستعرض بعض الأسباب وراء الاضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية الوثنية .

الفصل الحادي عشر

المعذّبون المبتهجون

ألقى مسيحيو شمال إفريقيا انفسهم في أتون المحن و البلايا ، غير آبهين بشكل مذهل لِلعواقب . و ارتفع عددهم الى المئات ، بل إلى الآلاف ، أولئك الذين ثبت أنهم يعانون الأمرّين بسبب التزامهم الايمان بالمسيح . لقد أعلنوا سرورهم و غبطتهم ليكونوا هكذا و ماتوا مبتهجين فرحين جدًا . رفضوا بصراحة ، و بشكل قاطع ، أن يقربّوا التقدمات لآلهة روما ، و لم يرتضوا لأنفسهم ان يُقسموا بقدرة الامبراطور الإلهية . ليس من السهل على جيلنا الحالي ان يتفهّم هذه الحماسة او يدرك مثل هذه التصرّفات ، لأننا لم نعتد عليها . و قد نعجب متسائلين : ما الذي يقف وراء هذا العناد الذي لا يقبل المساومة ؟ و لماذا صمّم المسيحيون ان يعترفوا بإيمانهم المسيحي مجاهرة حتّى و لو أدّى بهم ذلك الى التضحية بحياتهم ؟

علينا أولاً ان نتذكر أنهم كانوا واثقين من المبدإ الذي أرسوا عليه أقدامهم . فقد آمنوا تمامًا ، وبشكل راسخ ، بأنهم اكتشفوا الحق . كما اقتنعوا بشكل أكيد أنّ المسيح هو بالحقيقة الله المتجسّد الذي جاء من السماء ليكون « نور العالم » [1] . إنهم آمنوا بما قاله لهم سيدهم ، و وثقوا بأن طريق المسيح هو الأفضل ؛ لقد رأوا الفرق بأمّ أعينهم . كانوا يفتخرون بمسيحيتهم ، كما ان إخلاصهم لم يسمح لهم بأن يتفوّهوا بالكذبة العظيمة المطلوبة منهم و لم يكن لهم أبدًا أن يعبدوا الامبراطور الروماني ربًا و إلهًا . لقد شعروا بمحبة الإله الحقيقي الذي خلق كل شيء ، و اختبروا دفء الجماعة المسيحية و لطفها ، و كان اختبارهم لهذه البركات بمثابة تذوّق مبدئي للسماء في وسط عالم قاسٍ و شرس . كان ايمانهم يمنحهم بهجة عظيمة . فهذا الايمان حوّل حياتهم كلّها ، و لم يبقَ عندهم أدنى شك بحقيقته وبصحّته . و لا شيء كان بإمكانه ان ينتزع منهم هذا الايمان او يجعلهم يتنكرون له .

و أكثر من ذلك ، فقد كانوا ممتلئين بشعور شخصي غامر من العرفان بالجميل والإقرار بالفضل لمخلّصهم الذي أحبهم عندما لم يكونوا يفكّرون فيه . لقد فتّش عنهم كما يفتش الراعي عن خرافه الضّالة . و اعتنى بهم عندما كانوا في حالة بؤس وشقاء وانحدار . ثم أصعدهم من طين الحمأة ، و ثبّت على صخرة أرجُلَهم[2] . فكيف لهم ان ينكروا ربهم وهو الذي منحهم كل شيء حسنًا ، و هو من أعطاهم كل هذا الفرح و الحبور الذي أصبحوا الآن يتمتعون به؟ لقد وهبهم كل ما يجعل هذه الحياة جديرة بالاهتمام و ذات شأن رفيع - لقد منحهم الصحة و العافية والصداقة و المحبة ، و احترام الذات و المسامحة ، و القبول

والرجاء العظيم بالحياة الأبدية الخالدة . فكيف لهم ان يلعنوا ذاك الذي خلّصهم و أعالهم وأحبّهم الى المنتهى ؟! كما أعطى كل ما لديه من أجلهم ، و هو الذي ناضل بكفاح مضنٍ تحت وطأة صليب ثقيل ، و أخيراً مات معلّقًا عليه من أجلهم هم .

كذلك ، لم ينقص عن ذلك مقدار تأثرهم بالشرف العظيم الذي شعروا بأن الرب أنعم به عليهم : أن يكونوا شعبه الخاص ، أولئك الذين سوف يقومون من القبر لكي يملكوا معه الى أبد الآبدين . أمّا الامتياز الأكبر و الأروع ، فهو من نصيب من أفرزهم الرب شخصيًا ليعلنوا اسمه جهراً أمام هذا العالم المترقّب المنتظر . لقد كانوا في أشدّ الاشتياق لخدمة المسيح بأي شكل من الأشكال . فكيف إذًا يُظهرون ولاءهم و حبهم له ؟ و كيف سيعظّمونه على كل صلاحه من نحوهم ؟ إلاّ باحتمال الانزعاج بفرح من أجله على مدى عدّة ايام ، و بشهادة مخلصة ، و إعلان ثابت وطيد لإيمانهم امام الجماهير المحتشدة للاستماع الى حكم الموت الذي سيصدر بحقهم ، ثم وميض السيف ، و من ثم الحياة الأبدية . و من بين هذه الجماهير المحتشدة المترقّبة في السجون او في الساحة العامة ، قد يُقبل بعضهم الى معرفة الحق في اللحظة عينها لانتقال المؤمنين من هذا العالم . و مع ان تلاميذ الرب الأولين تخلّوا عنه و هربوا ، إلاّ أن هؤلاء سيقفون معه ويصمدون بشجاعة و إباء ؛ و إذا كان بطرس قد أنكره ، فهم ، على الأقل ، لم و لن يخجلوا من ان يكونوا أصدقاءه . فمثلهم مثل شاول الطرسوسي ، إذ شعروا بأنهم مُفرزين ليحملوا اسمه امام الحكّام و الملوك .[3] إنهم سوف يعترفون الاعتراف الحسن امام ولاة عصرهم وحكّامهم ، كما فعل المسيح امام بيلاطس البنطي .[4]

لم تفاجئهم تحدّيات الاضطهاد . هذا لأن سيدهم دعاهم إلى هذا العمل العظيم الجبّار ، وهو الذي وعد بأن يدعمهم و يقوّيهم . « فانظروا الى نفوسكم . لأنهم سيسلّمونكم الى مجالس وتُجلدون في مجامع و توقَفون امام ولاة و ملوك من أجلي شهادة لهم . و ينبغي ان يُكرز أولاً بالانجيل في جميع الأمم . فمتى ساقوكم ليسلّموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا . بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلّموا . لأن لستم انتم المتكلّمين بل الروح القدس . . . و تكونون مبغَضين من الجميع من أجل اسمي . و لكن الذي يصبر الى المنتهى فهذا يخلص . »[5] كان ذلك حقًا ، هذا لأن هؤلاء الرجال و النساء وجدوا في ساعة المحنة الحرية المجيدة التي دفعتهم إلى التحدث عن يسوع المسيح بسرور و بفصاحة انسكبا عليهم من فوق . لقد شعروا بمنتهى السعادة لكونهم مسيحيين ، و هم اكثر الناس امتيازًا في العالم بأسره . لم يكن لديهم شيء يرغبون في إخفائه ، او يخجلون منه ، فسيّدهم لم يرتكب أية جريمة ، و كذلك الأمر بالنسبة اليهم . كانوا فخورين بحمل اسم المسيح . و قد عبّر ترتوليانوس عن هذا الشعور العارم بالولاء للمسيح : « نقول امام جميع الناس ، و حينما تُمزّق اجسادنا و تدمى من جرّاء تعذيباتكم ، فإننا جميعًا نصرخ بأعلى ما أوتينا من قوّة : "نحن نعبد الله من خلال المسيح " . يحقّ لكم أن تعتقدوا أن المسيح ليس سوى إنسان ، و لكن اعلموا انه من خلاله ، و به فقط قد شاء الله ان يُعرف و يُعبد . »[6]

تشدّد المسيحيون المضطهدون و تقوّوا في معاناتهم هذه ، باقتناعهم التام المطلق بأن هناك حياة أفضل تنتظرهم . و ليس المطلوب منهم إلاّ أنْ يعبروا عتبة الموت الضيّقة ليدخلوا بعد ذلك الى دارهم الأبدية السرمدية ، فيكونوا دائمًا و أبدًا في حضرة اللّه المبارك حيث لا دموع و لا أحزان . وإذ سيعودون للاجتماع من جديد بفرح بأحبائهم ، في ذلك المكان المثالي ، كانوا يشتاقون إلى ان يُرحّب بهم هناك ، لا كعمّال بطّالين ، بل كخدّام صالحين و أمناء يرضى عنهم ربّهم . إنّ إقرارًا جريئًا بالإيمان بالمسيح سوف لن يضيع أجره . يقول المسيح « فكل من يعترف بي قدّام الناس أعترف انا ايضًا به قدّام ابي الذي في السماوات . » [7] كما ان الأقدم عهدًا بين الترانيم جميعها تقول : « إن كنّا قد متنا معه فسنحيا أيضًا معه ؛ و إن كنّا نصبر معه فسنملك أيضًا معه . »[8]

كان هناك الكثيرون ممن يرغبون في ان يملكوا مع الربّ يسوع ؛ كانوا يشتاقون بإخلاص الى ان يُتوّجوا بتاج الشهادة . و في يقينهم بإحراز النصر المبين على قوى الظلام ، كانوا قد حلّوا أنفسهم من رباطات هذا العالم الكاذب و المخدّر . قُدّر لهذا العالم ان يزول عن قريب ، و هم لم يعودوا يرغبون في ان يبقوا مستعبدين لادّعاءاته التافهة ، و لا لفساده المستشري . تكلم ترتوليانوس بلسانهم جميعهم عندما قال : « نحن نرغب التعجيل في امر حصولنا على المُلك ، لا ان نطيل زمن عبوديتنا . . . نعم ، ليأت ملكوتك ايها الرب سريعًا ، و سريعًا جدًا . و سيكون هذا تحقيقًا لأشواق المسيحيين ، و إرباكًا للأمم ، و غبطةً للملائكة . هذا ما نصلّي من أجله مبتهلين . »[9]

كانوا يتوقعون باستمرار رجوع المسيح . لذلك كانوا امام كل أزمة او مصيبة جديدة يتذكّرون تحذير السيّد و وعده : « نعم ، أنا آتي سريعًا . »[10] « اسهروا إذًا لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم . »[11] سيأتي الرب كمخلّص لشعبه ، و كديّان للعالم . يقول الكتاب أيضًا : « هوذا الديّان واقف قدّام الباب » .[12] « يوم الرب كلصٍّ في الليل هكذا يجيء . لأنه حيثما يقولون سلام و أمان حينئذٍ يفاجئهم هلاك بغتةً كالمخاض للحبلى فلا ينجون . » [13]

ها إن أيام العز و القوّة ، قد زالت فعلاً من الامبراطورية الرومانية ، و حيث بدأت تتدهور و تضمحل ، برزت حينذاك بوادر شؤم و تعاسة تنذر بالسوء ، و كأن العالم يُسرع الخطى اقترابًا الى نهايته : أوبئة و حروب و هزّات أرضية ، و انهيار الحكومات الثابتة ، و خيبة أمل بالنسبة الى ما كانت الامبراطورية تمثّله . لقد قال المسيح : « فإذا سمعتم بحروب و بأخبار حروب فلا ترتاعوا . لأنها لا بدّ ان تكون . و لكن ليس المنتهى بعد . لأنه تقوم أمّة على أمّة و مملكة على مملكة ، و تكون زلازل في أماكن و تكون مجاعات و اضطرابات . هذه مبتدأ الأوجاع . . . لأنه يكون في تلك الايام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله الى الآن و لن يكون . »[14]

كان كل شيء في انحدار ، و فُقد كل أمل في معالجة حالة الانسانية و لم يعد بإمكانها سوى التقهقر و الانحدار الى الأسوإ . و ليس غير أولئك المتفائلين جدًا كان بإمكانهم ان يفكّروا في غير ذلك . و المسيحي الذي كان قد أُخذ من هذا العالم ، قبل حلول هذه الايام الأخيرة المرعبة ، كان بوسعه ان يُعدّ نفسه مباركًا فعلاً . قال ترتوليانوس : « يبقى المؤمن منتظرًا ذلك اليوم . . . وهو قلقٌ يوميًا على ما يرجوه كل يوم . »[15] إن رغبة الكثيرين من المؤمنين في ترك هذا العالم

قبل أن يشبّ فيه الحريق الهائل الأخير ، قطع في الواقع ما تبقّى لهم من صلات به ، وهكذا شدّدهم لمواجهة ساعة المحنة ، لحظة المغادرة و الانطلاق .

كان بإمكان أتباع المسيح ان يبقوا واثقين بانتصارهم النهائي مهما كانت معاناتهم . و سبق لكلمة اللّه الحيّة ان تنبّأت بخصوص هياج الوثنيين المجنون على ابن الانسان . « هؤلاء سيحاربون (المسيح) و (المسيح) يغلبهم لأنه رب الأرباب و ملك الملوك . »[16] كان ترتوليانوس يتطلّع الى اليوم الذي فيه ستنقلب ممالك العالم و ستجثو كل ركبة باسم الرب يسوع .[17] لقد أسرعت مخيّلته و استَبَقَت مجيء المسيح ، يوم الدينونة العظيم و تدمير المُعذِّب . فلسوف يجرف الانتصار الأخير معه ذكريات الذل و الخزي ، هذه التي لحقت بشعب اللّه ، و كل ما عانوه على أيدي أولئك الظالمين الأشرار . كتب يقول : « و لكن . . . يا للمشهد الآتي! ظهور الرب ، معترَفًا به ، ممجّدًا ومنتصرًا . فكم سيكون عندذاك جذل الملائكة و ابتهاجهم ، و كم سيشرق مجد القديسين حين يقومون و يظهرون ! و بعد ذلك ، سناء عهد مُلْك القديسين الرائع ، و مدينة اورشليم الجديدة! و لكن ، هناك مشاهد أخرى الى جانب كل ما تقدَّم! إنه يوم الدينونة الأخير ، اليوم الذي لم تكن تتوقعه الأمم ، ذلك اليوم الذي ضحكوا عند سماعهم عنه . . . فعلى مَ سأتعجب عندئذ واندهش؟ . . . سوف أرى جميع أولئك الملوك الجبابرة الذين أُعلن عنهم جهراً بأنهم قد مُجّدوًا في السماء ، و هم يئنون و يتأوهون جميعًا في الظلمات العميقة السحيقة ، و سأرى . . . الحُكّام ، ومضطهدي اسم الرب ، و هم يذوبون في نيران هي أشدّ ضراوة و أعنف قسوة من تلك التي هاجوا ماجوا بها ضد المسيحيين المؤمنين . . . فلاسفة . . . شعراء . . . كتّاب المآسي . . . ممثلين . . . و سائقي المركبات ، و منذ الآن نستطيع أن نتخيّل ما سيحدث لهم . »[18] عندذاك سنلاحظ مصير اولئك الذين بصقوا على الرب يسوع و ضحكوا في وجهه ، و جلدوه و صلبوه .

فإذا ما جاء الاضطهاد ، فلا بدّ أن يكون وراءه الخلاص . لقد تشجّع المسيحيون بكلمات سيّدهم : « و متى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا و ارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب . »[19] كان يوم رجوع الرب يقترب اكثر فأكثر ، فما هي علامات دنوّ مجيئه يا ترى ؟ قال المسيح : «الشمس تظلم و القمر لا يعطي ضوءه ، و نجوم السماء تتساقط و القوّات التي في السموات تتزعزع . و حينئذ يبصرون ابن الانسان آتيًا في سحاب بقوّة كثيرة و مجد . فيرسل حينئذ ملائكته و يجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض الى أقصاء السماء . » [20] كان المسيحيون ينتظرون هذه العلامات بتوقّع . فهم سيكونون بين أولئك المختارين الذين جاء المسيح من أجلهم . و إذ يعلمون ذلك ، لم يهابوا السيف الخاطف و لا التهديد البشري المؤقّت .

و إذ كانوا ينتظرون هذا الحدث العظيم ، كانوا يجدون تعزية خصوصًا في السِّفر الذي كمّل قانون العهد الجديد ، سفر الرؤيا الذي كتبه الرسول يوحنا الشيخ من منفاه في جزيرة بطمس . و تصف فقراته الأخيرة ، بتفاصيل رائعة ، انتصار المسيح في النهاية ، الى جانب أمجاد المدينة المقدّسة . [21] رأى يوحنا ما سوف يحدث في المستقبل ، و بيّن ما رآه . لقد أُفرز

الشهداء لكي يحصلوا على تكريم خاص . فهم حملوا اسم المسيح حتى نهاية المطاف ، رافضين أية تسوية مع هذا العالم ، و مع حكّامه المجدّفين . « و رأيت نفوس الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع و من أجل كلمة اللّه و الذين لم يسجدوا للوحش و لا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم و على أيديهم فعاشوا و ملكوا مع المسيح ألف سنة . » 22

كان الشهداء ينتظرون حقًا إحراز مكافأة عظيمة ، إذ ما وُجدوا مُخلصين حتى الموت . وأولئك الذين هلكوا في سبيل ملكوت اللّه ، سيُرفعون فَوراً الى المجد بصفتهم « كهنة اللّه و المسيح » 23 ، بينما اخوتهم العاديين ، الذين ماتوا بسبب العجز او المرض ، كانوا لا يزالون في عالم الأموات (Hadès) حيث ينتظرون نهاية العالم و يوم الدينونة قبل ان يدخلوا بيتهم الأبدي . وأمّا بقية الأموات ، بحسب رؤيا يوحنا ، فلن يعودوا الى الحياة إلا بعد مضي ألف سنة . 24 و متى تمّت الألف السنة الأولى ، يُحلّ الشيطان من سجنه مرة أخرى ، « ليُضل الأمم » و « ليجمعهم للحرب»25 ، قبل اندلاع الحريق النهائي الهائل وخلق «سماء جديدة و أرض جديدة » .26

النبوة القائلة إن الشهداء سيصعدون ليحكموا مع المسيح على مدى ألف سنة ، استأثرت بعقول المسيحيين في جميع أنحاء العالم آنذاك . و قد ذُكر الحكم الألفي هذا في ما كتبه پُولْيكَارْبُوس في آسيا الصغرى (تركيا حاليًا) ، و إيرِينَايُوس في بلاد الغال (فرنسا حاليًا) ، ويُوسْتينُوس الشهيد في روما ، و بين المونتانيين في فريجيا و في افريقيا الشمالية . و قد اعتبر معظم هؤلاءَ الكتّاب ، ان هذه الفقرات من سفر الرؤيا تشير الى مملكة أرضية حقيقية سوف يتمّ تدشينها ، و التي سيحكم فيها المسيح مع قديسيه على مدى ألف سنة فعلية . أمّا غيرهم ، و من جملتهم إقْليمَنْدُوس و أُوريجَانُوس في الاسكندرية ، ومن ثم اغسطينوس في افريقيا ، فقد علّموا ان هذا الحَكم الألفي قد بدأ فعلاً عند مجيء المسيح الأول ، والذي بصعوده الى السماء ، بدأ يحكم هناك مع الشهداء .27 و لكن ، بمعزل عن أيٍّ من هذه التفاسير هو المفضّل ، فإن هذه المقاطع الكتابية ولّدت عند المسيحيين تعزية عظيمة و اطمئنانًا ثابتًا و قويًا في ما كانوا يواجهونه من صراعات .

وهناك أيضًا سبب آخر وراء إخلاص المسيحيين العنيد لإيمانهم : لقد كانوا على علم بالنتائج الحتمية التي سوف تترتّب على البدائل . و أدركوا انهم انخرطوا ، لا في صراع الأفكار والمبادئ الأخلاقية فحسب ، بل في معركة بين القوى الروحية أيضًا . كان رفضهم للأوثان ، وامتناعهم عن المشاركة في أي شكل من أشكال العبادة الوثنية ، ينبع من اقتناعهم بأن الأصنام ليست مجموعة من الاخشاب و الاحجار الباطلة التي لا نفع منها و حسب ، لكنها أيضًا مساكن تقطنها قُوّات شريرة و مقتدرة جدًا ، تلك القوّات التي قد تتمكّن من إتلاف الصحة و الخُلق و سبل العيش عند الناس ، رجالاً و نساءً ، و تسبّب لهم الجنون ، و حتى الموت .

كانت القوة المتميّزة لهذه الأرواح معروفة جداً : فالذين يتعبّدون لها كانوا قادرين على تقديم براهين على حصول أحداث خارقة لا يمكن تفسيرها إلاّ بقوة تلك الأرواح . كان الكهنة الوثنيون ومستحضرو الأرواح يفتخرون بالأمور الخارقة للطبيعة . لكن مصدر عرافتهم وسحرهم هو شيطاني بحت . و ما إن يتوسّل المتعبِّد و يتضرّع الى الروح الشرير ، حتى يجد نفسه و قد استُعبد بشكل تام للشيء الرهيب و المروِّع الذي كان قد التجأ اليه طالبًا عونه . لم تُخدع الجماعة المسيحية بالفكرة القائلة إنّ تقريب التقدمات للأصنام ، او القَسَم بقوّة الامبراطور الإلهية ليست إلاّ أعمالاً أدبية فارغة و من دون معنى . لكنهم عرفوا انّ تيارات شريرة شديدة الخطورة تكمن وراء هذه الديانات الكاذبة و البطّالة ، و أن كل من يقترب منها يعرّض نفسه لخطر الإنجراف في شقاوة لا يُعبّر عنها . لم يكونوا يجترئون على ان يرتبكوا مجدَّداً بنير عبودية .[28] لقد حذّرتهم كلمة الله بوضوح كاف من أن يكون لهم صلة ما أو أية علاقة بهذه القوى الشيطانية : «بل ان ما يذبحه الأمم فإنما يذبحونه للشياطين لا لله . فلست اريد ان تكونوا انتم شركاء الشياطين . لا تقدرون ان تشربوا كأس الرب و كأس شياطين . لا تقدرون ان تشتركوا في مائدة الرب و في مائدة شياطين . »[29]

إلاّ أن معرفة القوى الخارقة و الفوق الطبيعة لم تكن مقتصرة على عبدة الأوثان وحدهم . و بالطبع فإن أسمى القوى الروحية جميعها هو الله الكلّي القدرة نفسه ، و هو يمنح من في علاقة حميمة به قدرات فذّة و رائعة . و كثيراً ما كان المسيحيون في القرنين الثاني و الثالث للميلاد يطردون الأرواح الشريرة باسم يسوع ، و ذلك على غرار نظرائهم في العهد الجديد ؛ كما ان معجزات الشفاء لم تكن نادرة ، او غير شائعة آنذاك . و الشهداء كانوا يشهدون لأحلام ورؤى إلهية المصدر وذات معان روحية عميقة ، كما فعل ايضًا العديد من إخوتهم العاديين . وقد أدى ذلك الى انصمام عدد غيّر قليل من الناس الى مسيرة الايمان بالمسيح . و في كثير من الأحوال ، كانت حماسة المسيحيين وغيرتهم المذهلة قد نشأت بكل تأكيد من خبرتهم الشخصية القوية بكلٍّ من قوة الشيطان و قوّة الله . و لم يكن عندهم اي شك في الجهة التي كانوا يرغبون في الوقوف الى جانبها .[30]

لم ينظر المسيحيون الى ساعة المحنة كأنها إذلال يجب احتماله ، بل اعتبروها فرصة يجب انتهازها . فحينما كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على ان يكونوا محطّ الأنظار في الأماكن العامة ، كانوا يجدون في ذلك فرصتهم ليضيئوا هناك بمحبة الله . إن كنّا نحن في أيامنا ، نحاول ان نتحاشى ، أو ان نتجاهل ببساطة ، التحدّي الموضوع أمامنا في العظة على الجبل ، فقد قبلوه هم بالمقابل ، كما انهم افتخروا به . لقد غفروا لأعدائهم و باركوهم ايضًا ، و أداروا الخد الآخر ، تمامًا كما اوصاهم سيّدهم : « لكنّي اقول لكم ايها السامعون أحبّوا أعداءكم . احسنوا الى مبغضيكم . باركوا لاعنيكم . و صلّوا لأجل الذين يسيئون اليكم . من ضربك على خدّك فاعرض له الآخر ايضًا ، و من أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا . »[31] لقد صلّى المسيحيون من أجل الذين كانوا يعذّبونهم ، و ساروا الميل الثاني الرمزي بفرح إطاعةً لربّهم .[32] كانوا يعلمون أنهم سيكافأون على إخلاصهم . فالمسيح صرّح بالقول : « طوبى للمطرودين من اجل البِر . لأن

لهم ملكوت السموات . طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم و قالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين . افرحوا و تهللوا . لأن أجركم عظيم في السموات . » [33]

لقد اختبروا التعزية في أحزانهم و أوجاعهم . و ملأ روح اللّه قلوبهم بالبهجة و بالسرور المتّقد الملتهب الذي أعطاهم الجرأة و الثقة . كما انهم اكتشفوا في أوقات الحاجة و العوز كيف ان الرب يسوع ، العبد المتألم ، يقترب أكثر من عبيده المتألمين . هذا و انهم لم يذكروا في تبشيرهم عن قوة اللّه التي لا تُقاوم ، على قدر ما تكلّموا عن تعزياته الدافئة ، و عن محبته الثابتة و حنانه من نحو الضعيف والمنسحق . لقد كانوا على حق . هذا لأن المسيحية لا تكرز بإله بعيد ، يكتفي بفرض مراسيم باردة ناشفة و إصدار أحكام صائبة ، لكنها تقدّم أبًا محبًا يبحث عن الخطاة لكي يخلّصهم . فالانجيل لا يتحدث عن الله الذي يُلبس الأقوياء مجدًا ، بل عن اللّه الذي يملأ قلوب المتواضعين بالفرح والسرور . «أنزل الأعزاء عن الكراسي و رفع المتّضعين ؛ أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين . »[34]

كان تصرّف المسيحيين في قاعة المحكمة و في الميدان مدعاة باستمرار لانده اش الجموع المحتشدة . و حتى لو جُنِّبوا الموت ، يبقى أن شهادتهم المخلصة كانت إنجازًا مقتدرًا و انتصارًا بحدّ ذاتها . كان الاعتراف العلني بالإيمان بالمسيح جزءًا من دعوة الله للكنيسة في كرازتها بالإنجيل للعالم ، و فرصة يجب انتهازها بأي ثمن . كان الوثنيون يسجنون المسيحيين في الزنزانات ، و يعرّضونهم للوحوش الكاسرة ، و يأتون بهم مقيّدين بالسلاسل و الحديد ليقفوا امام الحكام و الولاة ؛ و بالرغم من كل هذا ، لم يكن المسيحيون يتصرفون بعدم لياقة ، او يُظهرون سخطهم على الحكام ، و نادرًا جدًا ما كانوا يخافون او يرتعبون . بل عوضًا عن ذلك ، كانت جلسات المحاكمة هذه تتّسم بموقف الشكر الهادىء للّه ، و بتعبير راسخ عن الثقة به تعالى كمن يمسك بيده زمام كل شيء . لقد علموا ان القضاة ، ليسوا الاّ أدوات يحرّكها الله الأزلي بيده الحكيمة بموجب ارادته . ألم يخاطب الرب يسوع بيلاطس البنطي بالقول : «لم يكن لك عليّ سلطان البتّة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق؟»[35] كان هذا الوثوق المطلق باللّه تعالى وبتحكّمه بجميع الأشياء ، هو الذي ألهم المؤمنين الصبر و السلوان ، و منحهم التصرّف الجليل الوقور الذي كان مؤثرًا للغاية و مثيرًا للإعجاب حقًا ، كما ورد في السجلات و محاضر الدعاوى القضائية ؛ لقد كانوا شجعانًا في وجه التهديد و الوعيد ، لطفاء مع أعنف مُعذِّبيهم و أشرسهم ، وقد تقبّلوا المعاناة و الآلام بفرح عظيم ، على اعتبار انها الطريق الذي عيّنه لهم الرب لقيادتهم الى المجد في ملكوته السماوي العتيد .

لقد تأثّر المشاهدون تأثرًا عميقًا بكل ما تقدّم . و لدينا شواهد صحيحة ومتحقّق منها عن وثنيين ادركوا حقيقة الانجيل ، و صمّموا على اتّباع المسيح في اللحظة نفسها التي كانوا يشاهدون فيها المسيحيين ، رجالاً و نساءً ، يدانون و يموتون من اجل القضية المسيحية .[36] كذلك كان هناك بكل تأكيد عدد أكبر من الناس ، من وثنيين و يهود ، تحركت مشاعرهم في العمق بما رأوا و ما سمعوا ، و قد حصلوا من جراء ذلك على انطباعات مفعمة بالحيوية ، قادتهم مع مرور

الوقت الى الإيمان عينه . كتب ترتوليانوس الى الحكام الرومان : « لا تنفعكم شراستكم شيئًا ، مع انكم تزدادون براعة وابداعًا في التعبير عنها ، إنها لمن الأمور التي تجذب الناس الى جماعتنا . لأنه كلّما أمعنتم في قهرنا وسحقنا ، ازداد عددنا . » و بعد هذا ينطق ترتوليانوس بذلك التحدّي الرائع الممتاز ، الذي دخل تراثنا المسيحي عندما قال : « ان دماء المسيحيين هي بذار . يحثّ الكثير من فلاسفتكم الناس على التحلّي بالصبر لاحتمال الآلام و الموت . . . و مع ذلك فإن كلماتهم هذه قد استقطبت حولهم عددًا من التلاميذ أقلّ من أولئك الذين علّمهم المسيحيون بقدوة أعمالهم . هذا العناد نفسه الذي تعيّروننا به ، هو الذي يُظهر لكم وجه الحق . فمن ذا الذي لا يتحرّك للبحث عن السبب الذي يقف وراء صمودنا العنيد بعد أن يراه ، و من ذا الذي لا ينضم الى إيماننا بعد تقصّيه له ، و من ذا الذي لا يرغب في المعاناة بعد انضمامه إلينا ، حتى يتسنّى له أن يربح نعمة الله كلّها؟ . . . من أجل هذا ، نحن نشكركم على حكمكم علينا في الوقت عينه الذي فيه يصدر هذا الحكم . ثمة تباين كبير بين ما لله و ما للانسان ، حتى إنه عندما تُدينوننا ، يقوم الله بتبريرنا . »[37]

لقد كانت دماء الشهداء بذار الكنيسة فعلاً . فأبواب السجون كانت محاطة بحشود الصحابة و الأصدقاء ، و جميعهم مملوؤون غيرة لزيارة إخوتهم و أخواتهم المقيّدين بين جدرانها . كانت الاستجوابات العمومية في المحاكم الرومانية ناجحة ، بشكل ليس له مثيل ، في نشر رسالة الإنجيل بشمال افريقيا . كما ان مقابر الشهداء اصبحت مواقع مفضّلة لعقد الاجتماعات المسيحية . والكنائس استقت ايضًا قوّتها و تشدّدها من القدوة الملهمة لأبطالها و بواسلها . لقد كانوا يحتفلون كل سنة بذكرى اليوم الذي فيه تألم هؤلاء الأبطال علىَ اعتبار ان هذا اليوم هو يوم مجدهم . كان المسيحيون يشجعون الكنائس من السجون و يقدّمون لها نصائح عديدة ، وكانت اقوالهم تُعتبر كأنها إلهامات أوحى بها اليهم الله ذاته . و قد رحّب كثيرٌ من الناس بما كان يحصل عليه هؤلاء المؤمنون السجناء من أحلام و رؤى ، و اعتبروها صادرة من عند الله . كانت روايات الشهداء المكتوبة ، اكثر المؤلفات شعبية عند الكنائس الأولى . لقد ازدهرت الجماعات المسيحية و نمت بقوّة ، من جراء الأحزان و الأوجاع عينها التي كان القصد منها تحطيم هذه الجماعات .

فما هي الخلاصة التي نستطيع ان نستنتجها من هذا التصرّف الرائع عند مواجهة الاضطهاد ؟ إن القسوة و الضراوة التي تعامل بهما الحكام الرومان مع الإيمان المسيحي لم تستطيعا سحقه ، بل جعلتاه اكثر شعبية . لم تُمحَ الكنائس او تُزَال من الوجود لكنها نشطت و تعزّزت . فلمَ حصل ذلك ؟ علينا أولاً ان نتذكر أنه ، مع حلول القرن الثالث للميلاد ، كان المسيحيون قدَ اصبحوا يشكّلون أقلية عددها محترم في المدن في افريقيا الشمالية ، كما انهم كانوا الأغلبية في بعض المناطق . كانت هذه المقاومة الجريئة للسلطات أسهل حينما يكثر عدد المسيحيين جدًا . و لم يكن باستطاعة الحكّام ان يلقوا القبض عليهم جميعًا و يبيدوهم : لم تكن السجون تكفي لاستيعاب هذه الجماهير الغفيرة ، و لو فعلت الحكومة ذلك ، لتوقفت نشاطات الحياة العامة في البلاد وجمدت تمامًا . كان على نسبة معيّنة من الذين احتشدوا لتقديم الإكرام علنًا للشهداء ، ان يكابدوا

عقابًا على فعلهم هذا ، إلاّ ان الكنيسة ، ككلّ ، كانت في أمان من الإبادة . و مقابل كل مسيحي يقبع مسجونًا في داخل زنزانته ، هناك مئة آخرون خارج السجن ، و جميع هؤلاء متشوّقون الى موآزرته و مساندته في ساعة الشهادة و المجد ، وأيضًا الى تكريم ذكراه بعد ذلك .

و لا ريب في ان النمو الراسخ لجماعة المسيحيين في السنوات التي سبقت الأزمة ، يشكّل المفتاح لتفسير جرأة هذه الجماعة و قدرتها على الصمود و البقاء حين نزلت بها النوائب . لقد استفادت الكنائس من السلام و الحرية المتوافرين لها ، إذ اشتغلت جديًا ما دام ضوء النهار مشرقًا . و قد أصبح لديها الآن ، كما كان حال يوسف في مصر ، مصادر فسيحة واسعة من المختزنات الروحية ، تكفيها لسنوات القحط و الجوع . كذلك كان عند المسيحيين ، و على غرار العذارى الخمس الحكيمات ، مقدار كاف من الزيت لإنارة مصابيحهم ؛ و هذه المصابيح كانت مضيئة ، و مجهّزة أفضل تجهيز وأكمله لتشعّ بلمعانها في أحلك الليالي .[38]

و عليه ، فإن التاريخ نفسه يُظهر لنا ، و حتى من وجهة النظر البشرية ، كيف ان القوى العاملة لصالح الكنيسة كانت أعظم من القوى المنظّمة ضدّها . و المسيحيون كانوا يتمتّعون بتأكيد راسخ بالانتصار ، و ذلك بفضل اقتناعهم بصحة الانجيل و ببطلان الوثنية . بالمقابل ، لم يكن عند الوثنيين اية ثقة مماثلة بديانتهم . كان الوثنيون يخجلون من سخافات ديانتهم و من فسادها الخلقي ؛ و أما تمسّكهم بها فهو لأنهم قد تعوّدوا عليها و لأنها كانت اساس علائقهم . إن سلاح الافتراء الذي طالما استعمله الوثنيون ضد المسيحيين في الايام الأولى ، سقط عاجزًا ضعيفًا على أرض المعركة ، عندما أظهر الشهداء ، و على مرأى من الجميع ، أيّ نوع من الإيمان كان عندهم . لم تستطع الوثنية ان توحي بمثل هذه الاستقامة الخلقية او الإقدام و الصبر و العزيمة الشخصية . و أكثر من هذا ، فقد كانت تعجز عن إلهام معتنقيها بالرجاء العظيم ، و بتأكيد الخلاص و الحياة الأبدية ، الوعود التي كانت تؤازر المسيحيين و تثبّتهم الى آخر ساعات حياتهم . لم يكن بوسع الوثنية ايضًا ان تضاهي المسيحية لجهة شركة المحبة ، علامتها المميّزة ، متخطّية بذلك التمييز البغيض بين الناس ، على أساس الطبقة الاجتماعية والثقافة و العنصر ، العوامل التي كانت تُفسد الجماعات الوثنية .

و بالطبع ، لقد عمل الاضطهاد على ضمّ الجماعات المسيحية بعضها الى بعض ، و أصبحت الفروقات القديمة طيّ النسيان خلال فترات الحرمان المشتركة . و كلّما كان يُتلى اي مرسوم من المراسيم الامبراطورية ، كان يعني ذلك ان الضربة قد تسقط على أي واحد من أعضاء الكنيسة من دون اي تمييز . عندذاك كان المؤمنون يسارعون فوراً لزيارة بعضهم بعضًا للتشجيع ، والحث على الصمود . و ما إن يعلموا بخبر إلقاء السلطات القبض على أيّ من أعضاء الكنيسة ، حتى كانوا يقومون بحشد طاقاتهم ، و لملمة شملهم لأجل تنظيم زيارات دورية الى السجن ، لسدّ أيّ نوع من احتياجات زميلهم ، و لمؤازرته و شدّ عزيمته في الايمان . كانوا يفسّرون له الكتاب المقدس مادحين ايمانه ، وممجّدين مدى عظمة مهمته الإلهية ، و هم يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدته على اكمال النصر على طول أرض المعركة الممتدّة امامه . كانوا يصلّون لأجله بحرارة ،

كما ان غيرتهم هذه لم تكن أقل عندما كانوا يُصلّون معه . و في يوم المحاكمة كانوا يحتشدون بعدد كبير ، مالئين قاعة المحاكمة ، او في الساحة العامة ، لكي يقدّموا لأخيهم دعمًا معنويًا ، و يصلّوا لأجله أيضًا ، و للاستماع الى آخر كلماته ، و لكي يحتفظ بشجاعته و إقدامه ولا يضعف . إن أولئك الذين اختيروا للوقوف امام الجماهير المحتشدة ، كان يُنظر اليهم كجنود المسيح ، و كأبطال الجماعة المسيحية . و إذ كانوا يشهدون لحق الإنجيل ، كانوا في الواقع يقرّون ايضًا بمدى قوّة مجموعتهم المسيحية و إيمانها . فالشهيد كان يمثّل الكنيسة التي ينتمي اليها ؛ و بطولة الواحد كانت تنعكس ايجابًا كشرف للجميع .

لم يكن الأبطال الحقيقيون في الكنيسة الأولى في افريقيا الشمالية من وعّاظها العظماء ، او من صفوف علماء اللاهوت اللامعين فيها . إن الرجال و النساء الذين كانوا يُذكرون بحب عميق والذين يُتحدث دائمًا عن مآثرهم بولاء مفعم بالمحبة ، كانوا في الواقع فقراء بأمور هذا العالم ، ولكنهم كانوا أغنياء بإيمانهم . قال صَمُوْئيل برنْكلْ (Samuel Brengle) : « إن إحدى كبرى مفارقات التاريخ ، هو التجاهل و الاستخفاف التام بالرتب و الألقاب في الأحكام النهائية التي يمرّرها الناس بعضهم على بعض . ان التقدير النهائي للرجال يُظهر بأن التاريخ لا يهتم ، و لا حتى بمقدار ذرّة واحدة ، بالرتب والألقاب التي يحملها المرء ، و لا يأبه حتى للمناصب التي كان يتبوّأها ، و لكنه يهتم فقط بنوعية أعماله و طبيعة عقله و قلبه . نحن لا نزال نتذكر حتى اليوم فيليستاس وسبيراتوس وكلرينوس بأطيب الذكريات و أحبها ، بينما أسماء الارستقراطيين المتغطرسين الذين نطقوا على هؤلاء القديسين بحكم الموت ، أصبحت في طي النسيان . و قد قال المسيح بحق :«ولكن ، كثيرون أوّلون يكونون آخرين و الآخرون أوّلين .»[39]

ملاحظات

1- يوحنا 12:8
2- بالإشارة الى المزمور 2:40
3- اعمال 15:9 و 16
4- 1 تيموثاوس 13:6
5- مرقس 9:13 - 13
6- *Apologeticus* 21
7- متى 32:10
8- 2 تيموثاوس 11:2 و 12
9- *De Oratione* 5
10- رؤيا 20:22

11- متى 42:24
12- يعقوب 9:5
13- 1 تسالونيكي 2:5 و 3
14- مرقس 7:13 و 8 ، 19
15- *De Anima* 33
16- رؤيا 14:17
17- فيلبي 10:2
18- *De Spectaculis* 30
19- لوقا 28:21
20- مرقس 24:13 - 27
21- رؤيا 4:20 يعتبر بعض العلماء أن سفر الرؤيا قد كتبه « يوحنا آخر ، » إلاّ أن البرهان على صحة هذا الرأي غير متوافر .
22- رؤيا 6:20 . راجع Schaff *HOTCC* Vol. II p. 83
23- رؤيا 5:20
24- رؤيا 2:20 ، 7 و 8
25- 2 بطرس 7:3 - 13
26- (Schaff *HOTCC* Vol. II pp 589 - 620) يبحث الأفكار المتنوعة التي كانت عند اللاهوتيين المسيحيين الأوائل بشأن علم الأمور الأخيرة
27- غلاطية 8:4 و 9 ؛ 1:5
28- 1 كورنثوس 20:10 و 21
29- Frend pp. 94-95
30- لوقا 27:6 - 29
31- بالإشارة الى متى 41:5
32- متى 10:5 - 12
33- لوقا 52:1 و 53
34- يوحنا 11:19
35- Neill pp. 43-44
36- *Apologeticus* 50
37- بالإشارة الى تكوين 46:41 - 57 ؛ متى 1:25 - 13
38- مقتبسة (Oswald Sanders *Spiritual Leadership* p. 13)
39- مرقس 31:10

الفصل الثاني عشر

قوة الحياة الجديدة

إن المستقبل ممتد أمامنا . و قد تصير أعمالنا و أقوالنا في يوم من الايام موضوعًا للدراسة التاريخية . و ما كان باستطاعة المؤمنين الأوائل أن يتخيّلوا ان افريقيا وحدها ستحتوي ، مع حلول العام 2000 ، على 250 مليون مسيحي ، او ان 15 مليون عربي في العالم يفتخرون بأنهم من أتباع المسيح . و على الرغم من ذلك فإن ثقتهم الكاملة بالانتصار النهائي ، جعلتهم يتحمّلون الآلام بصبر ، مُظهرين حلْمهم لمن يعيشون حولهم ، و مؤكدين بذلك أنه لا يمكن لمقاصد الله ان تفشل وأنه تعالى اَختار انَ يكمّل مشيئته بواسطة شهادتهم المسالمة للحق .

لقد أحس المسيحيون بعدم حاجتهم الى فرض دينهم او الدفاع عنه بأسلحة بشرية – بالقوة او بالقانون او بالتهديد . و لهذا السبب فإن الأوطان ذات الإرث المسيحي تسمح بالحرية الدينية الكاملة لأتباع الديانات الأخرى . كما ان المسيحيين لا يقنطون البتة عندما يكونون أقلية في مكان معيّن . فهم سيكونون مواطنين مخلصين و جيرانًا متعاونين و محترمين و نزهاء ولطفاء . و سيفسّرون إيمانهم بكل سرور لمن يهمّهم الأمر ، لكن سيتركون لكل فرد الحرية لأن يطلب الى الله ان يظهر له الحق كما هو .

لقد فشلت فشلاً ذريعًا محاولات الناس الدنويين في العصور الوسطى لتحويل الكنيسة الى جَيش صليبي . و سرعان ما يُترك هذا التحريف الواضح لمبادئ المسيح الداعية على المحبة لجميع الناس بمجرد ان اصبح بإمكان أتباعه ان يقرأوا الكتاب المقدس بحرية و بلغتهم الخاصة . و منذ ذلك الوقت فصاعداً ، عادت الكنائس في جميع انحاء العالم الى أصولها النقية و المقدسة و « ثمر البر يُزرع في السلام من الذين يفعلون السلام » [1]

والغاية التي تلهم المسيحيين الحقيقيين في الحياة هي : أن يملأوا هذا العالم بمحبة الله . لقد انطلقوا عارضين الشفاء على ذوي الأرواح المريضة ، والرجاء لليائسين ، و السلام و الغفران للرجال و النساء البعيدين عن الله . لقد كان المسيحيون أطباء وممرضات ، لا على صعيد الجسد ، بل النفس ، و كان دواؤهم الشافي هو محبة الله ، كما ظهرت في المسيح . كتب بولس الرسول : « و لكن كنت محترصًا أن أبشّر هكذا ليس حيث سُمّي المسيح» ، « الذي ننادي به منذرين كل انسان و معلّمين كل إنسان بكل حكمة لكي نحضر كل انسان كاملاً في المسيح يسوع . » [2] لقد عزم التلاميذ على أن ينفّذوا مأمورية المسيح الأخيرة لهم : « فاذهبوا

وتلمذوا جميع الأمم . . . و علّموهم أن يحفظوا جميع ما اوصيتكم به . »[3] كان المسيحيون نور العالم ، و كانوا حريصين على أن يُشرق هذا النور في كل مكان .[4]

شجّع احدهم الآخر في هذا العمل العظيم ، حيث كانوا يجتمعون لقراءة كلمة الله وللصلاة طلبًا لبركته تعالى على مساعيهم . كانت الشركة المسيحية تمنحهم قوة هائلة . وفي أثناء سفر المبشّر ، كان يتشجع بما يقدّمه لهم اخوته و اخواته في الكنيسة التي أرسلته ، من دعم مُحب و صلاة من أجله ، كما انه كان متأكدًا من أن ترحيبًا حارًا ينتظره لدى عودته . كانوا واثقًا من الرسالة التي دُعي الى المناداة بها : « لأني لست أستحي بانجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن .» [5]

لقد اعطت كلمة المسيح معنىً للحياة ، كما أظهرت طبيعة الإنسان الحقيقية . كذلك أعطت الانسان العاقل فهمًا لسلوك الناس ، و ما هي الاهتمامات التي تشغلهم . و هي ، فوق هذا كله ، تعرض عليهم رجاء أكيدًا لمستقبل أفضل . لخّص الرسول بولس القصد من التعليم المسيحي الذي يُشبع القلب و العقل : « لكي تتعزّى قلوبهم مقترنة في المحبة لكل غنى يقين الفهم لمعرفة سرّ الله الآب و المسيح المذخّر فيه جميع كنوز الحكمة و العلم . » [6] لقد وجد المسيحيون طريقًا جديدًا للحياة ، وهو أن يحبوا أقرباءهم ، و يغفروا للذين يسيئون اليهم ، و يحسنوا لكل الناس . كانوا في اجتماعاتهم يقتربون الى ربّهم و بعضهم الى بعض ، فهناك كانوا يسجدون للرب في زينة مقدسة .[7] وكانوا يحصلون بذلك على القوة الروحية اللازمة لتتميم المهمة التي اؤتمنوا عليها . كانوا يجدون في هذا فرحهم و بهجتهم . كان هذا قصد الله فيهم . كما كان هذا سرّ نجاحهم .

ملاحظات

1- يعقوب 18:3
2- رومية 20:15 ؛ كولوسي 28:1
3- متّى 19:28 و 20
4- متّى 14:5
5- رومية 16:1
6- كولوسي 2:2 و 3
7- المزمور 2:29

شمال افريقيا الـشـرقي في القرن الثالث الميلادي

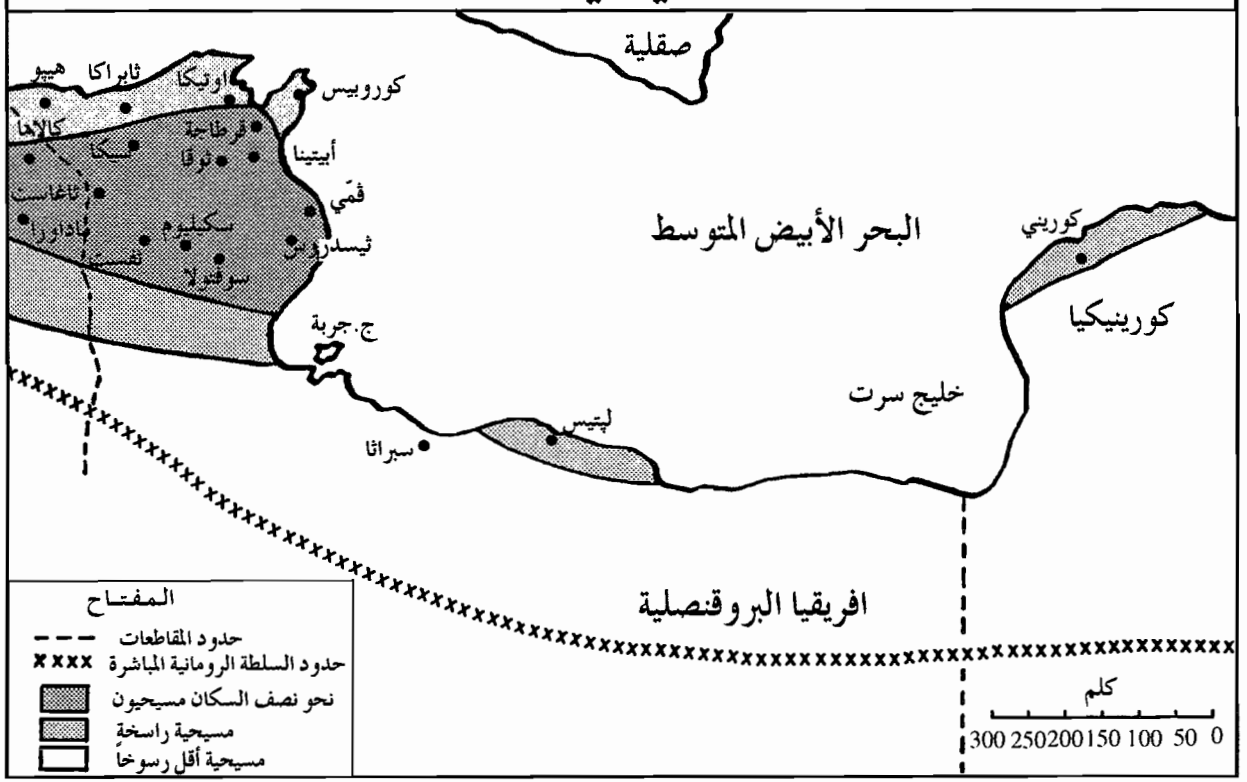

شمال افريقيا الغربي في القرن الثالث الميلادي

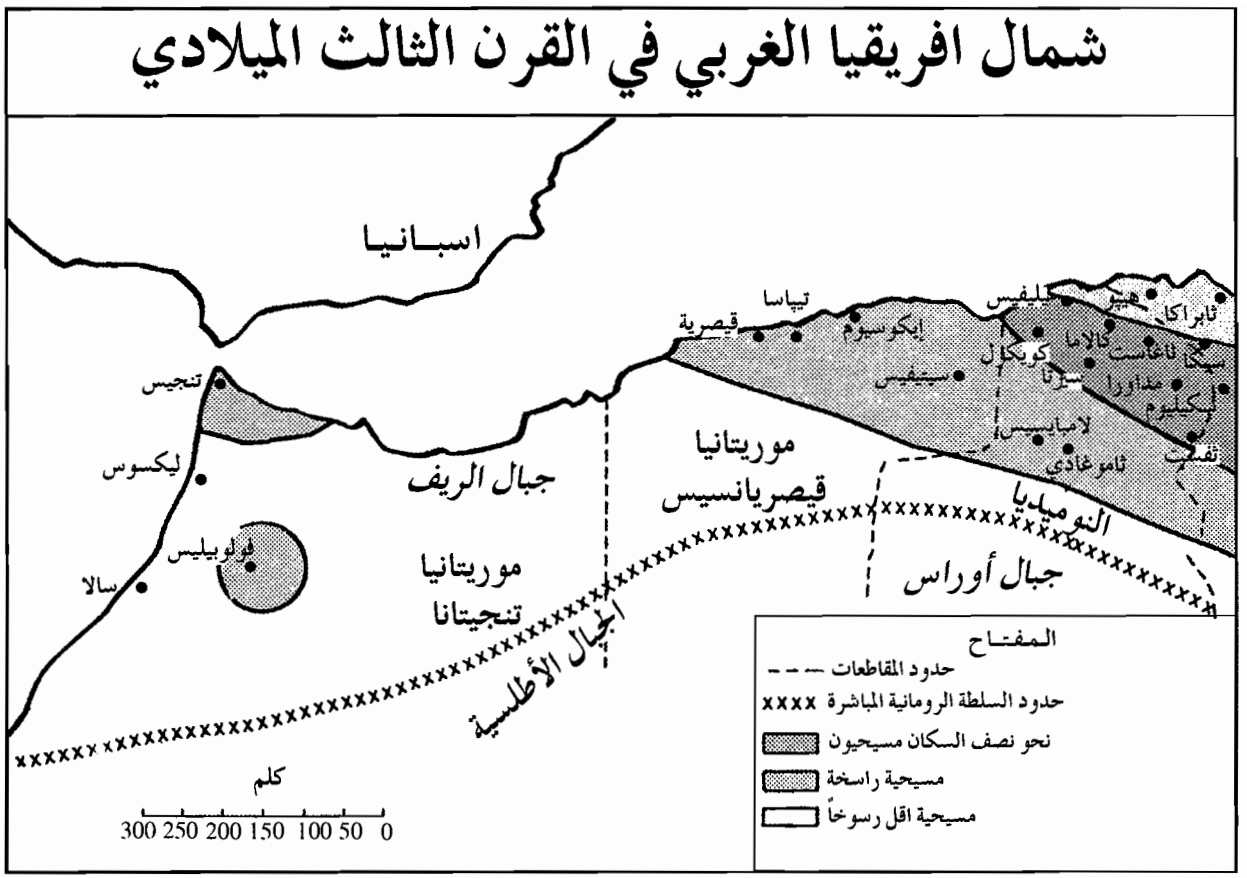

الـتـواريـخ

قبل المسيح

1000 الفينيقيون يستقرون على شاطىء البحر الأبيض المتوسط عند إفريقيا الشمالية

800 بداية امبراطورية قرطاجة

146 روما تهزم امبراطورية قرطاجة ، بداية الحكم الروماني في افريقيا

بعد المسيح

نحو 68 استشهاد الرسولين بطرس و بولس

156 استشهاد بُولِيْكَارْبُوْس ، ناظر سميرنا

نحو 160 ولادة تَرْتُولِيَانُوس

165 استشهاد يُوسْتِينُوس الشهيد

177 - 192 الاضطهاد في أثناء حكم مَارْكُس أُورِيلِيُوس و كُومّودُس

177 الاضطهاد في ليون و فِيَان (فرنسا)

180 الاضطهاد في سْكِيلِيوم

نحو 195 اهتداء ترتوليانوس الى المسيحية

نحو 200 ولادة كُبْرِيَانُوس : إصدار الحرم الكنسي في روما بحق المونتانيين

202 - 204 الاضطهاد في أثناء حكم سِفِيرُوس

203 استشهاد پِرپِيْتُوا و فِلِيسِتَاسْ : انضمام ترتوليانوس الى المونتانيين

نحو 230 موت ترتوليانوس

الأسماء الحديثة للمدن

كوريني	شَهات	(Chahat)	ماداورا	مداوروش	(Mdaourouch)
سبراثا	صبراتة	(Sabratha)	تَفَست	تبسة	(Tébessa)
ثيسدروس	الجم	(El Djem)	سيرتا	قسنطينة	(Constantine)
قُمّي	المهدية	(Mahdiya)	ثاموغادي	تيمقاد	(Timgad)
كوروبيس	كوربة	(Korba)	لامبايسيس	تازولت	(Lambèse)
قرطاجة	قرطاجة	(Carthage)	كويكول	الجميلة	(Djemila)
أبيتينا	شاوود	(Chaoud)	ميليفيس	الميلية	(Mélève)
أوتيكا	أُتيك	(Utique)	سيتيفيس	سطيف	(Sétif)
ثوقا	دقة	(Dougga)	إكوسيوم	الجزائر	(Alger)
سوفتولا	سبيطلة	(Sbeitla)	تيباسا	تيبسة	(Tipasa)
ثابراكا	طبرقة	(Tabarka)	قيصرية	شرشال	(Cherchell)
سيكّا	الكاف	(El Kef)	تنجيس	طنجة	(Tanger)
سكيليوم	كاسرين	(Kasserine)	ليكسوس	العرائش	(Larache)
هيبو	عنّابة	(Annaba)	فولوبيليس	وليلي	(Volubilis)
كالاما	قالمة	(Guélma)	سالا	سلا	(Salé)
ثاغاست	سوق اهراس	(Souk Ahras)			

في كثير من أجزاء شمال إفريقيا توجد أطلال بنايات مسيحية عريقة. ترى ماذا نعرف عن الحضارة المتقدِّمة والدِّين المتطور اللذين تشهد لهما هذه الآثار؟

وعلى رفوف خزاناتنا كتابات علماء مسيحيين من شمال إفريقيا كأُغسطينوس وكبريانوس وترتوليانوس. ترى بماذا كان أسلافنا هؤلاء يؤمنون؟

هذا الكتاب الممتع يفتح باباً على جزء مهمّ من تراثنا الثقافي والديني.

لنفس الناشر كتاب:

التراث المسيحي في شمال إفريقيا

الذي يُكمل الرواية التاريخية الممتدة حتى العصور الوسطى.